المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ديونسيوس التلمحرى

تاريخ الأزمان



ترجمة وتقديم:
شادية توفيق حافظ

مراجعة:
السباعى محمد السباعى

1277



يمثل "تاريخ الأزمان"، الذى ألَّفه ديونسيوس التلمحرى باللغة السريانية، الحلقة الأولى فى سلسلة الكتاب اليعاقبة، وهو واحد من أشهر مؤرخى القرن التاسع الميلادى (الثانى الهجرى) يشتمل على أحداث 260 عامًا تحدث فيه عن ظهور الإسلام والفتوحات الإسلامية.

استقى مادته التاريخية ممن سبقه من المؤرخين، إما نقلاً أو تلخيصًا حتى وقت تأليف الكتاب فى العصر العباسى؛ عصر المأمون والمعتصم والواثق فسجل ما عاينه من أحداث.

كان ديونسيوس بطريركًا لأنطاكية؛ لذا لم يكتف بذكر الأحداث السياسية، بل ربطها بغيرها من الأحداث الكنسية والاجتماعية.

لوحة الغلاف: نيكولاس بوشيه
تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح

تاريخ الأزمان

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢٧٧
- تاريخ الأزمان
- ديونسيوس التلمحرى
- شادية توفيق حافظ
- السباعى محمد السباعى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب:

ܡܟܬܒܢܘܬܐ
ܠܡܪܝ ܕܝܘܢܘܣܝܘܣ ܕܬܠܡܚܪܐ

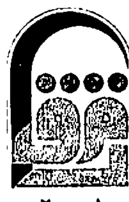
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ الأزمان

تأليف
ديونسيوس التلمحرى

ترجمة وتقديم
شادية توفيق حافظ

مراجعة
السباعى محمد السباعى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

التلمحرى، ديونسيوس
تاريخ الأزمان، تأليف: ديونسيوس التلمحرى، ترجمة وتقديم: شادية توفيق حافظ، مراجعة: السباعى محمد السباعى. ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨م.
٢٦٠ ص، ٢٤سم.
أ- توفيق حافظ، شادية (مترجم ومقدم)
ب- محمد السباعى، السباعى (مراجع)
ج- العنوان ٢١٠,٩

رقم الإيداع: ٢٤٥٥٢/ ٢٠٠٨
الترقيم الدولى: 978-977-479-011-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجمة

حظى التاريخ بعامة والتاريخ الإسلامى بصفة خاصة باهتمام كبير من الباحثين فى الشرق والغرب، من المسلمين ومن غيرهم، وتنوعت الكتابة التاريخية تنوعا شمل كل مناحى الحياة الفكرية والسياسية والدينية وغيرها. وتباينت وجهات نظر الباحثين حولها أحيانا وتطابقت أحيانا أخرى، ولم يسلم تاريخنا من ذلك. ولاشك أن العقيدة تؤدى دورًا بارزًا فيما يعبر عنه كل هؤلاء الباحثين والمؤرخين مهما حاولوا تفادى ذلك. والباحث الثبت والمؤرخ الجيد هو من استطاع أن ينظر إلى الأمور والأحداث نظرة موضوعية بعيدة عن الهوى والغرض.

ورأيت أن نقل ما كتبه المؤرخون من غير المسلمين عن تاريخنا الإسلامى يثرى مكتبتنا العربية ويضيف إليها وجهات النظر المختلفة، ولذا اخترت كتاب"تاريخ الأزمان" الذى ألفه "ديونسيوس التلمحرى" لما يتناول من أخبار عن ظهور الإسلام وانتشاره وما قام به المسلمون من فتوحات.

لقد ألف "ديونسيوس" كتابه "تاريخ الأزمان" باللغة السريانية، وهى اللغة التى يؤثر رجال الدين من المسيحيين التعامل بها فى كنائسهم وأديرتهم، كما كانت هى اللغة السائدة بين المسيحيين بصفة عامة فى هذه المنطقة التى كانت مسرحًا لتلك الأحداث والخطوب.

ويرجع تاريخ تأليف هذه النسخة الخطية التى قمت بترجمتها إلى القرن التاسع الميلادى (الثانى الهجرى).

وقد استقى ديونسيوس - كغيره من المؤرخين السريان - مادته التاريخية عن العصور المتقدمة عن سابقيه إما نقلا أو تلخيصا حتى وصلت إلى عصره، فبدأ يكتب ما عاينه أو شاهده من أحداث، فجاء كتابه صورة حية لأحداث عصره ووقائعه.

ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين السريان كانوا فى تلك الفترة أرسخ قدما من العرب فى تدوين التاريخ، والمعروف أن العرب بدأوا فى تدوين تاريخهم عن طريق المشافهة، وكان ذلك دأبهم فى استقاء كل علومهم. على أن الجيل الأول الذى شهد هذه الأحداث وشارك فيها عمد إلى روايتها ثم نقلتها عنه الأجيال التالية، وقام من هذا الجيل من دوَّن بعض هذه الأحداث فى أواخر القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى، فقد كان العلماء يجمعون أخبار الحادثة الواحدة من رواة مختلفين ثم يضمون هذه الروايات بعضها إلى بعض ويدوّنون ذلك كله فى كتيب. ولكن لم يكن عمل هذه الطبقة من المؤلفين مرتبًا بوجه عام ولا شاملاً وافيًا، وإنما كثر الترتيب والتنظيم فى الطبقة التى جاءت بعدهم من أمثال "البلاذرى" و"الطبرى".

وإذا رجعنا إلى "البلاذرى" و"الطبرى" وغيرهما وجدنا أنهم لا يعتمدون فى تاريخهم على قصص مسلسلة تحكى وقائع متتابعة وحوادث ثابتة فى أماكن محددة بأشخاص معينة، وإنما نراهم يعتمدون على روايات السلف المتعددة. ولذلك نجد حادثة واحدة يكثر ورودها فى أكثر من مكان فى المؤلف الواحد، وعلى لسان أكثر من راوٍ واحد. وليس الأمر وقفًا على هذا الاختلاف فى تفاصيل الحادث الواحد، بل لقد تعداه إلى سنة وقوع الحادث، وكل مؤلفاتهم خير شاهد على ذلك.

أما السريان فقد بدأوا فى كتابة التاريخ على أثر حوادث الاضطهاد التى عانتها المسيحية تحت حكم الفرس والروم وتدوين سير شهدائهم، وكان ذلك فى القرن الثالث الميلادى. فإذا كان القرن السادس أو قبله بقليل بدأت حولياتهم فى التاريخ إلى جانب ما كانوا يسطرونه من سير القديسين والأبطال.

ولما كان المسلمون قد فتحوا بلاد السريان عام ١٧ من الهجرة، أى منتصف القرن السابع الميلادى فلا ريب أن السريان - وقد رسخت أقدامهم فى تدوين التاريخ - قد أخذوا فى تسجيل أحداث هذه الفترة إبَّان وقوعها، كما كان شأنهم قبل هذا العصر. وتشهد على ذلك تلك المخطوطات التى لا تزال تحتفظ ببقاياها حتى الآن فى المتاحف ودور الكتب. ولم يجد المؤرخ السريانى غضاضة فى الاعتماد على الكتب القديمة، فكان يستعين بمؤلفات السابقين، بل إنه كان ينقل الأجزاء

الكاملة من هذه المؤلفات ويضمنها كتابه، ثم يضيف إليها من عنده ما شاهده من أحداث عصره.

وعلى هذا النهج سار مؤرخنا "ديونسيوس التلمحرى" إذ نقل عن سابقيه عددا غير يسير من الأحداث التى لم يعشها، نظرا لوقوعها فى عصور متقدمة عن العصر الذى عاش فيه وشاهد أحداثه.

ديونسيوس

فى القرن التاسع الميلادى عاش "مار ديونسيوس الأول المعروف بالتلمحرى" بطريرك أنطاكية، والذى يمثل الحلقة الأولى فى سلسلة الكُتَّاب اليعاقبة. ورغم أننا لاندرى حقيقة اسمه على وجه التحديد أو حتى لقبه أو أسرته أو تاريخ ميلاده ، فإنه باستقراء عدد غير يسير من المراجع والمصادر التى تناولت حياته تسنى لنا أن نقف على أن مولده كان فى الربع الأخير من القرن الثامن الميلادى، ولكن هذه المصادر والمراجع جميعها لم تذكر عاما محددا لمولده. والراجح أن تاريخ ميلاده ينحصر بين عامى ٧٨٥ و ٨٠٠م؛ إذ نجد أن الدير الذى نشأ به قد احترق عام ٨١٥م فانتقل إلى دير آخر ليستكمل فيه دراسته. وفى عام ٨١٨م انتخب بطريركا؛ الأمر الذى يرجح معه أنه كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين أو ثلاثة وثلاثين عاما عند توليه الأسقفية، وربما كان ذلك سنًا مناسبًا لتوليه هذا المنصب. وهذا الاستنتاج تبيناه من مراجعة عمر بعض البطاركة عند تنصيبهم مثل مار ميخائيل الكبير (ولد ١١٢٦م ونُصِّب ١١٦٦م) وابن العبرى (ولد ١٢٢٦م ونُصِّب ١٢٦٤م) وساويرس الأنطاكى (ولد ٤٥٩م ونُصِّب ٥١٢م) ومسعود الزازى (ولد ١٤٣١م ونُصِّب ١٤٩٣م) ونوح اللبنانى (ولد ١٤٥١م ونُصِّب ١٤٩٣م) . ولأن ديونسيوس التلمحرى توفى بعد حياة قصيرة مما ينفى توليه فى سن متأخرة نجد أن الأرجح أنه تولى وهو فى الثلاثينيات من عمره، وبذلك نصل إلى تحديد عمره بالتقريب.

نشأ ديونسيوسِ فى بلدة "تلمحرة"[*] إحدى قرى العراق، بالقرب من نهر بلخ أحد روافد نهر الفرات.

بدأ ديونسيوس التلمحرى يتلقى العلم فى دير قنسرين الذى كان يعد فى ذلك الوقت مركز إشعاع للثقافة اليونانية، فذاع صيته وطبقت شهرته أنحاء العالم. وفى عام ٨١٥م احترق دير قنسرين؛ الأمر الذى اضطر الرهبان أن يتفرقوا وينفرط عقدهم ويولوا وجوههم شطر الأديرة المحيطة بهم. فاتجه ديونسيوس إلى دير مار يعقوب فى كيسوم بين حلب والرها فى مقاطعة سميساط، حيث أتم فيه دراساته العلمية والعلمانية ونال شهرة واسعة. وفى عام ٨١٨م نصب ديونسيوس بطريكا لأنطاكية لمدة سبعة وعشرين عاما.

وإلى جانب أعماله ومسئولياته ومهامه الداخلية امتد نفوذه إلى خارج بلده، فقد بدأ أعماله بطريكًا بزيارة الأقاليم التى تقع تحت رعايته، مثل سدوم وأنطاكية وقرقيساء ونصيبين ودارا وكفر توتا، ثم انتقل إلى الرقة حيث كان يتمتع بحماية أميرها "عبد الله بن طاهر"، واستطاع أن يحصل منه على موافقة بإعادة بناء دير قنسرين الذى كان قد احترق. ولكن عبد الله سافر فجأة إلى مصر فى عام ٨٢٥م لإخماد الفتنة التى تزعمها" أبو السرايا" وبقى فى مصر حتى عام ٨٢٧م . وأثناء غيابه فى مصر خلفه على الرقة شقيقه محمد بن طاهر ليدير شئونها، ولكنه كان على عكس أخيه لايميل إلى النصارى، فأمر بهدم الكنائس التى كان شقيقه قد أمر بإنشائها فى الرها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أقدم على تحويل بعض الكنائس إلى مساجد. ونتيجة لهذا التغير المفاجئ فى معاملة النصارى شد ديونسيوس رحاله إلى مصر وقابل الأمير عبد الله بن طاهر، ورجاه أن يكتب إلى أخيه محمد بن طاهر أن يخفف من وطأة معاداته وتشدده مع المسيحية والمسيحيين،

(*) تلمحرة أو تل محرة: بلدة بين حصن مسلمة بن عبد الملك والرقة واسمها اليوم "تل المنخير". (المترجمة)
وننوه هنا إلى أن كل الهوامش والحواشى والتعليقات فى هذا الكتاب إنما هى للمترجمة، ولذلك أوردناها مرقمة فى صفحاتها دون ذكر كلمة (المترجمة). [التحرير]

وبالفعل حقق مسعاه، وغادر مصر إلى سوريا فرحا بنصره ونجاح مسعاه فى هذه الرحلة. وما كاد عام ٨٢٩م يبدأ حتى غادر ديونسيوس المدينة ميمما شطر بغداد لزيارة الخليفة المأمون، وظل مقيما بها حتى شهر أكتوبر، حيث غادرها إلى أنطاكية مارا بتكريت فالموصل. وفى عام ٨٣٠م تحققت له مقابلة الخليفة المأمون الذى استقبله استقبالا رائعا. وعندما اعتزم الخليفة السفر إلى مصر لتهدئة الثورة التى قام بها مسيحيو مصر اصطحب معه ديونسيوس، وكانت خطة الخليفة أن يعهد إليه بإقناع الأقباط الثائرين لاعتقاده أن ديونسيوس قادر على إخماد الثورة وإخضاع الأقباط المتمردين، إلا أن هذه الخطة قد باءت بالفشل فاضطربت نار الثورة، وكان من نتيجتها أن هدمت المدن والأحياء التى يقيم بها المسيحيون.

وفى عام ٨٣٥م توجه ديونسيوس إلى بغداد لتهنئة الخليفة المعتصم الذى تولى الخلافة بعد وفاة المأمون، محاولا توطيد الروابط والعلاقات الودية بينهما.

فى هذه الفترة كان ديونسيوس يعانى حالة من الاكتئاب والتشاؤم جعلته يتمنى الموت، وذلك لإحساسه بالفشل فى عدم توفيقه فى إخماد الثورات التى نشبت فى عهده سواء بين المسيحيين أنفسهم أو من جراء تهديدات العرب وغزواتهم.وسرعان ما تحقق له ما كان يتمناه، حيث وافته المنية ولفظ أنفاسه الأخيرة فى ٢٢ أغسطس عام ٨٤٥م بعد أن شغل كرسى البطريركية لمدة سبعة وعشرين عاما، كانت كلها مليئة بالاضطهادات والفتن، ودفن فى دير قنسرين الذى أمضى فيه زهرة شبابه وبدأ فيه حياة التنسك والرهبنة.

شادية توفيق حافظ

المقدمة

يبدأ سرد وقائع هذه الأحداث - أعنى هذه المخطوطة - منذ بدء الخليقة، ويمتد حتى ميلاد إبراهيم وإلى حكم نيناوى الذى أسس مدينة نينوى وبسط نفوذه عليها لمدة اثنين وخمسين عاما.

ففى العام الثانى والأربعين من حكم نيناوى ولد رئيس البطاركة إبراهيم وذلك بشهادة **أوسابيوس**[١] الذى استقينا منه وثائق هذا التاريخ الذى امتد حتى عهد قسطنطين المؤمن. ومنذ تلك الفترة وحتى حكم تيودسيوس الصغير اقتفينا أثر سقراط. ثم منذ تيودسيوس حتى عهد الإمبراطور **يوستنيوس**،[٢] أى حتى عام٨٨٥ يونانية (٥٧٤م) عاوننا القديس **يوحنا**[٣] أسقف آسيا.

فى الحقيقة منذ ذلك الوقت وحتى العام الذى نحن بصدده الآن، أى عام ١٠٨٦ الإسكندر (١٥٨م) لم نجد أحدا أدق وأصدق فى كتابة التاريخ أو وصف الأزمة القاسية والمريرة التى حلت بنا وبآبائنا من تلك الكتابات القديمة، وخاصة تلك المجموعة من الأزمات التى تحملناها بسبب ما اقترفته أيدينا من آثام، عندما وقعنا فى أيدى الأشوريين والبرابرة.[٤]

---

(١) يعتبر أوسابيوس القيصرى CAESARENSIS EUSEBIUS (٢٦٥-٣٤٠م) أبا للتاريخ الكنسى، فقد اشتهر تاريخه الذى وضعه باليونانية، والذى ترجم إلى عدة لغات منها السريانية فى وقت مبكر، فاستفاد منه معظم المؤرخين الكنسيين استفادة كبيرة. ومن أشهر كتبه "شهداء فلسطين". وهو صديق الملك قسطنطين الكبير وإليه تنسب حياة قسطنطين. (تواريخ كنسية ١٢٦)

(٢) هو يوستينيوس الثانى(٥٦٥-٥٧٨م)، لم يخلف يوستينيوس عقبا ولكنه كان يثق بابن أخيه يوستينيوس ويستشيره فى أمور الدولة. لمس أعضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا يوستنيوس فعولوا على انتخابه فور وفاة الإمبراطور الشيخ، وكان يوستينوس قد أدرك الثالثة والثمانين حين مرض مرضه الأخير. (أسد رستم: الروم١٩٥)

(٣) هو يوحنا الأفسسى. ولد فى بلدة(أكل) من ولاية آمد (ديار بكر) عام ٥٠٧م تقريبا. رسمه يوحنا مطران "تلا" شماسا، وترهب عام ٥٢٩ م. رحل إلى أنطاكية عام ٥٣٢ م، وإلى مصر عام ٥٣٤م، والقسطنطينية عام٥٣٥م.وفى عام ٥٥٨م رسمه يعقوب البرادعى مطرانا لأفسس فنسب إليها وإلى آسيا الصغرى.(أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور، ص٢٦٤) WRIGHT(W): SYRIAC LITERATURE P.103-107.

(٤) المقصود بالبرابرة "الغرباء" أو" الأجانب " بالنسبة إلى اليونانيين والرومان.(تاريخ الكنيسة ١٥٥)

لقد تركزت فى نفوسنا ذكرى تلك الفترة الأليمة وذلك الحزن الكئيب الذى تكبده الناس من قبل الأشوريين، والذى أشار إليه النبى عندما قال: **(ويل لأشور قضيب غضبى، والعصا فى يدهم هى سخطى. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطى أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة)**،[٥] ولقد أردنا أن نعرف القضيب عصا الرب التى سلمها إلى أشور ليعاقب العالم، والتى ظهرت فى السماء **لعدة أيام**.[٦] ربما سيرتجف الذين سيأتون من بعدنا سيخشون الرب وسيسيرون أمامه بالعدل خشية أن يقعوا هم أنفسهم فى أيدى هذا الذئب المفترس. فإنه مكتوب: **(قال لهم وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التى أنا أشهد عليكم بها اليوم لكى توصوا بها أولادكم ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة)**،[٧] وأيضا: **(اذكر أيام القدم وتأملوا سنى دور فدور، اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك)**.[٨]

لقد طوفنا ببلاد كثيرة ولم نصادف تاريخا دقيقا لهذه الحوادث، بل وجدنا أنها كلها مجرد شروح لبعض الأحداث من وجهة النظر الذاتية. ولقد سلكنا نهجا منظما فى جمع المعلومات وتنسيقها فى كتاب واحد سواء تلك التى استقيناها من المعمرين الذين كانوا شهود عيان أو التى عاصرنا أحداثها بأنفسنا. ومن ينظر إلى هذا الكتاب ويطلع عليه يجب أن يلاحظ أن تلك الأحداث المتباينة لم تقع فى مكان واحد ولا فى مملكة واحدة ولا حتى فى منطقة واحدة. وإذا صادفوا حولية أخرى لاتتفق أحداثها مع هذه فليفطنوا إلى أن الكُتّاب السابقين أنفسهم لم يتفقوا على منهج واحد فيما بينهم فكان أحدهم يفضل الإيجاز والثانى يلجأ إلى المبالغة والثالث يؤرخ لكنيسة والرابع يتناول موضوعات متفرقة.

---

(٥) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٥/٦.
(٦) هنا إشارة إلى ظواهر فلكية مثل كواكب سيارة وشهب وغيرها.
(٧) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٤٦.
(٨) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٧.

إن الحكماء والذين يخشون الرب لم يهتموا كثيرا بالتوقيت الـدقيق لوقـوع الحادثة، فربما كان ذلك قبل أو بعد وقوعها بعام أو عامين. وإنمـا كـان يكفـيهم الإحاطة بما نزل بالأجيال الماضية من عقاب حتى يباعدوا بـين أنفسـهم وبـين ارتكاب المعاصي خشية أن يجلبوا على أنفسهم نفس الكوارث. احترس إذن واذكر الإله ربك، خشية أن يحل بك غضبه.

نبدأ من عام ٨٩٨ يونانية

فى عام ٨٩٨ يونانية (٥٨٦م) توفى الملك **يوستينيوس**،[٩] وتولى الحكم بعده **يوستينيوس الرابع**[١٠] بالاشتراك مع طيباريوس.

وفى عام ٩٠١ يونانية (٥٨٩-٥٩٠م) توفى **يوستينيوس**[١١] وانفرد بالحكم **طيباريوس**.[١٢]

وفى عام ٩٠٢ يونانية (٥٩٠-٥٩١م) توفى الملك القديس **بطرس**[١٣] بطريرك أنطاكية.

عام ٩٠٥ يونانية (٥٩٣-٥٩٤م) توفى **طيباريوس**[١٤] وخلفه موريقيوس الذى ظل فى الحكم لمدة ثمان سنوات.

---

(٩) كان يلقب بيوستينيوس العظيم (٥٢٧-٥٦٥م)، وكان مقدونى الأصل، إلا أن بعض الأساطير التى جاءت فى فترة متأخرة جعلته من أصل سلافى. عندما اعتلى العرش كان يبلغ من العمر ٤٥ عاما وكان نشطا لا تعرف نفسه الكلل، حتى وصفه أحد معاصريه بقوله "الإمبراطور الساهر". (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٨٦) LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.X; P.2.

(١٠) المقصود هنا هو يوستينيوس الثانى JUSTIN II إن اللبس والخلط الذى حدث بين اسمى "يوستينيوس" أمر طبيعى عند الكتاب السريان. أما بالنسبة "ليوستينيوس الرابع" الذى ورد ذكره هنا فلم يكن له أى وجود فى التواريخ.

(١١) هو يوستينيوس الثانى (٥٦٥-٥٧٨م)، توفى فى الخامس من أكتوبر عام ٥٧٨م (٨٨٩ يونانية) بعد أن حكم اثنى عشر عاما وعشرة أشهر وواحدا وعشرين يوما. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١ ص١٩١)

(١٢) هو طيباريوس الثانى (٥٧٨-٥٨٢م=٨٨٩- ٨٩٣ يونانية) إمبراطور بيزنطة. عندما أصيب يوستينيوس الثانى بالجنون واشتدت وطأة المرض عليه اختارت الإمبراطورة صوفيا طيباريوس إمبراطورا فى ٢٦ سبتمبر عام ٥٧٨م. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١ ص١٩١)

(١٣) بطرس الثالث القالونيقى، ولد عام ٥٧٨م فى مدينة قالونيقس، أى الرقة، وفى عام ٥٨١م رسم بطريركا لأنطاكية، فى دير "مار حنينا". رحل إلى الإسكندرية وولاية العرب أى حوران، سعيا وراء الروابط الدينية بين كرسى أنطاكية والإسكندرية. كانت وفاته فى دير الجب الخارجى، فى ٢٢ أبريل عام ٥٩١م، وقيل عام ٥٩٠م. BAR- HEBRAUES: CHRON.ECCL..TI. P.250

(١٤) طيباريوس الثانى، توفى فى اليوم الرابع من أغسطس عام ٥٨٢م (٨٩٣ يونانية)، بعد أن حكم أربع سنوات، ونقل جثمانه بحرا إلى القسطنطينية. (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص٦٦)

عام ٩١٢ يونانية (٦٠٠-٦٠١م) حدث إظلام شديد فى وضح النهار وتراءت الكواكب كما لو كان ليلا، واستمرت هذه الظاهرة لمدة ثلاث ساعات، وبعدها انجلى الظلام وأضاء النهار كما كان من قبل. فى هذا العام توفى **موريقيوس**،[١٥] وتولى الحكم بعده شخص آخر يدعى أيضا موريقيوس بالاشتراك مع تيودسيوس لمدة اثنى عشر عاما.

عام ٩١٤ يونانية (٦٠٢-٦٠٣م) استولى نرسى قائد جند الفرس على الرها ولما دخلها قبض على **ساويرس**[١٦] أسقف المدينة وتم رجمه بالحجارة حتى فارق الحياة.

عام ٩١٥ يونانية (٦٠٣-٦٠٤م) أصبح القديس **أثناسيوس**[١٧] بطريركا لأنطاكية.

فى عام ٩١٦ يونانية (٦٠٤-٦٠٥م) وقعت **الرها**[١٨] فريسة الاحتلال.

---

(١٥) اختلفت الأراء حول شخصية موريقيوس، هل هما شخصان حكما فى فترتين متتاليتين؟ أو أنه شخصية واحدة حكمت لمدة ٢٠ عاما؟ فبعض المصادر اتخذت الرأى الأول. (مثل تاريخ أبى الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص ٦٦، وديونسيوس التلمحرى فى مخطوطته) أما الذين أيدوا الرأى الثانى فهم الأغلبية. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١ ص١٩٢)

GOUBERT: BYSANCE AVANT L' ISLAM. P.36-41 PARIS 1951

ويعد موريقيوس (٥٨٢-٦٠٢م) أشهر خلفاء يوستينيوس وأذكاهم وأقدرهم، ولد فى أرابيوسوس فى آسيا الصغرى عام ٥٣٩م، وفيها تلقى علومه، ثم تركها واتجه إلى القسطنطينية. كان خبيرا فى شئون الدولة العسكرية والإدارية والمالية. (أسد رستم: الروم، ج١ ص١٩٧)

(١٦) فى عام ٥٧٨م خلف ساويرس يعقوب البرادعى فى أسقفية الرها، وظل بها حتى وفاته حين رجم عام ٦٠٣م. ASSEMANI: Bibl. Orient.T.I P.424

(١٧) هو أثناسيوس الأول، يعتبر من خيرة بطاركة أنطاكية، سميساطى الموطن، ترهب فى دير قنسرين، واختير للكرسى البطريركى من عام ٥٩٥ حتى٦٣١م، وفى رواية ضعيفة من عام ٦٠٤ حتى ٦٣١م حيث توفى. (أغناطيوس الأول: اللؤلؤ المنثور، ص٢٧٧) ASSEMANI:BIBL. OR. . II.333

(١٨) اختلفت المصادر فى تاريخ احتلال الرها، فبعض المصادر الأجنبية قررت أنه تم الاحتلال عام ٦٠٩م، مثل: BAR- HEBRAEUS: CHRON.SYR. P. 98.

DUVAL (R): HISTOIRE D'EDESSE. P. 223, NOTE.

أما المصادر العربية، فالبعض منها قال: عام ٣ هـ (٦٢٤-٦٢٥م). والبعض قال: عام ٦ هـ (٦٢٧-٦٢٨م).

فـــى عـــام٩٢٣ يونانيـــة (٦١١-٦١٢م) قتـــل **موريقيـــوس**[١٩] وابنـــه **تيودسيوس**[٢٠] وتولى **فوقاس**[٢١] الحكم لمدة ثمان سنوات.

عام ٩٢٨ يونانية (٦١٧-٦١٨م) أصدر الملك **فوقاس**[٢٢] أمرا بتعميد كـــل اليهود الواقعين تحت نفوذه، وأرسل فوقاس جورجيوس الحاكم إلى أورشليم وإلـــى كل إقليم فلسطين لإجبار اليهود على التعميد، فذهب إلى فلسطين وجمع كل يهـــود أورشليم وضواحيها. فلما مثل عظماؤهم أمامه بادرهم قائلا: "هل أنتم عبيد الملك؟" فقالوا: "نعم". فقال لهم: "لقد أمر **سيد البلاد**[٢٣] أن تعمدوا". حينئذ لاذوا بالصـــمت ولم يتفوهوا بكلمة، فسألهم الحاكم: "لماذا لم تجيبوا؟" فانبرى أحدهم ويدعى يونـــان قائلا: "إن كل ما يأمر به رب الأرض مستجاب ولكن بالنسبة لهـــذا الأمـــر فـــلا نستطيع تنفيذه لأنه لم يحن بعد ميعاد العماد المقدس". فلما سمع الحاكم هذا الكـــلام استشاط غضبا وانتفض واقفا حيث صفع يونان على وجهه ثم توجه إليهم بقولـــه: "إن كنتم حقًا عبيدًا فلمَ لا تطيعون ســـيدكم؟" وأصدر أمرًا بتعميدهم ســـواء قبلـــوا أو رفضوا هذا التعميد.

---

(١٩) أصدر فوقاس أوامره- بعد أن أصبح إمبراطورًا- بنقل موريقيوس إلى خلقدونية، وقتله هو وعائلتـــه. فقاموا بقطع رقاب أولاده الخمسة أمامه، ثم قضوا عليه فى يوم ٢٧ نوفمبر عام ٦٠٢م بالغا من العمر ٦٣ عاما و٣ أشهر و١٣ يوما، وألقوا بجثمانه هو وأولاده فى البحر. (جورجى زيدان: تاريخ التمـــدن الإسلامى، ج٤ ص٥٢)

(٢٠) ولد تيودسيوس عام ٥٨٥م، وفى عام ٥٩٠م فى يوم ٢٦ مارس اختار له والـــده موريقيـــوس اســـم أغسطس، ووضع البطريرك التاج على رأسه، وفى عـــام ٦١٠م أى بعـــد ١١عامـــا تقريبـــا تـــزوج تيودسيوس من بنت البطريق جرمان. و ليس صحيحا أنه بعد عامين من ولادته أطلق عليه والده لقب قيصر، ومما هو معروف أنه لم يحصل مطلقا على هذا اللقـــب. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. X P. 232-274.

(٢١) فوقاس: PHOCAS إمبراطور بيزنطة (٦٠٢-٦١٠م). وصل إلى الحكـــم عـــن طريـــق انتفاضـــة عسكرية، وفى ٢٣ نوفمبر عام ٦٠٢م نصبه الشعب إمبراطورًا، ولكن بدأت المؤامرات ضـــده عـــام ٦٠٥م، وقام الفرس بغزو الإمبراطورية البيزنطية عام ٦٠٧م، وفى عام ٦١٠م دخل هرقل العاصمة البيزنطية وخلع فوقاس. وتقدر مدة حكمه بنحو ٧ سنوات و١٠ أشهر و٩ أيام. (د.إبـــراهيم العـــدوى: الإمبراطورية البيزنطية، ص١٩٦)

(٢٢) كثير من المؤلفين نسبوا هذا الحادث إلى هرقل، ولكن ذلك العمل يتناسب أكثر مع شخصية فوقـــاس. LEBEAU: HISTORE DU BAS EMPIRE T.X P. 450-451.

(٢٣) كان يطلق عادة - من باب الرسميات - على أباطرة بيزنطة لقب "سيد البلاد".

في هذا الوقت ظهر **يعقوب اليهودى**،[٢٤] وأثناسيوس بطريرك أنطاكية، **ويوحنا**[٢٥] أسقف العرب، **وشمعون**[٢٦] أسقف حران، **وقرياقوس**[٢٧] أسقف آمد.[٢٨]

عام ٩٣٢ يونانية (٦٢٠-٦٢١م) استولى العرب على فلسطين حتى نهر الفرات العظيم، فهرب الرومان وعبروا إلى الضفة الشرقية للفرات التى أصبحت تحت السيطرة العربية أيضا.

لقد ظهر من بينهم أول ملك يدعى "محمدًا"[٢٩] وهو الذى كانوا يدعونه "نبيًّا"، لأنه هو الذى صرفهم عن دياناتهم المتعددة إلى عبادة إله واحد خالق للكون، وسنَّ لهم القوانين بعد أن كانوا متجهين إلى عبادة الشياطين والأصنام ولاسيما عبادة الأشجار. ولما كان قد أثبت لهم وحدانية الله وبفضل توجيهه انتصروا على الرومان، فسنَّ لهم القوانين التى تتفق مع نزعاتهم؛ لذا فقد أطلقوا عليه اسم "النبى" واسم "رسول الله" أيضا. كان هذا الشعب مقبلا على كل ما هو محرم وكل ما يحقق شهواتهم، فكانوا يرفضون كل قانون لا يحقق لهم متعتهم سواء أكان صادرا من محمد أم من أى شخص آخر يرعى حدود الله، فكانوا يقبلون على كل ما يحقق لهم رغباتهم، حتى ولو كان صادرًا من أشر الناس لديهم. كانوا يقولون: "هذا ما قد سنَّه النبى رسول الله". وأيضا: "هذا ما كان الرب قد أمر به".

---

(٢٤) ربما كان المقصود هنا يعقوب الرهاوى.

(٢٥) يوحنا هنا هو جرجس، وليس يوحنا أسقف العرب، وهو من الباحثين المشهورين فى ذلك الوقت، وصديق أثناسيوس الثانى. رسم أسقفا لعرب بنى طيئ وعقيل وتنوخ، فعرف بأسقف العرب أو أسقف عرب الجزيرة المؤمنين، وكان مقر أسقفيته عاقولا، أى الكوفة. توفى فى فبراير عام ٧٢٥م. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور، ص٣٠٩)

(٢٦) يعتبر اليعاقبة "شمعون" قديسا، ويحتفلون بذكراه يوم ٣ يناير من كل عام.

(٢٧) مطران آمد، ترهب وتعلم فى دير مار زكى، ثم تتلمذ على البطريرك بطرس الثالث الذى رسمه مطرانا لآمد حوالى عام ٥٨٢ أو٥٨٣م. سن ستة قوانين، وتضمن كتاب الهدايات لابن العبرى بعضها. توفى عام ٦٢٣م. ASSEMANI: BIBL. OR. T.II. P.98.

(٢٨) مدينة آمد أو ديار بكر، تقع على دجلة فى تركيا حاليا، وكان "ديوقلطيانوس" قد حصنها لحماية نصيبين. (تواريخ سريانية ١٤٩)

(٢٩) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ملكا، وإن عرف العرب ملوكًا فى الجاهلية مثل ملوك الغساسنة والمناذرة والتدمريين والحميريين.

لقد حكمهم "محمد" لمدة سبع سنوات.

عام ٩٣٣ يونانية (٦٢١-٦٢٢م) توفى **فوقاس**[٣٠] ملك الرومان وخلفه **هرقل**[٣١] لمدة واحد وثلاثين عاما.

عام ٩٣٤ يونانية (٦٢٢-٦٢٣م) مات مار قرياقوس أسقف آمد وخلفه مار توما.

عام ٩٣٧ يونانية (٦٢٥-٦٢٦م) غابت نجوم السماء واتجهت صوب الشمال كالسهام. كان هذا فألاً سيئا ينذر بهزيمة الرومان واستيلاء العرب على بلادهم؛ الأمر الذى تحقق فعلا بعد فترة وجيزة.

عام ٩٣٨ يونانية (٦٢٦-٦٢٧م) مات ملك العرب، أى نبيهم **محمد**[٣٢] **فخلفه أبو بكر**[٣٣] **لمدة خمس سنوات.**[٣٤]

عام ٩٤٠ يونانية (٦٢٨-٦٢٩م) بدأ هرقل ملك الرومان فى بناء كنيسة آمد العظيمة.

---

(٣٠) كان "فوقاس" PHOCAS خلفا جاهلا فبغضته الرعية، فقام "هرقل" بقتله وتولى الإمبراطورية مكانه عام ٦١٠م. (جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج٤ ص٥٢)

(٣١) هرقل HERACLIUS الأول هو الإمبراطور الرومانى على الشرق (٦١٠-٦٤١م)، أزاح "فوقاس" سلفه وتولى الحكم فى السابع من أكتوبر عام ٦١٠م، وكان يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاما. حاول إصلاح المملكة المفككة بسبب نزاع المونوفيزيين الدينية وغزوات الفرس والمصريين واللوباريين. تمكن من الفرس حتى دخل تبريز وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا، كما دخل نينوى وطيسفون. قهره العرب فى اليرموك عام ٦٣٦م. (تاريخ ميخائيل السريانى الكبير، ج٢ ص٢٩٢)

(٣٢) عاش النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ثلاثا وستين عاما، ولا ريب أن المصاعب السياسية والاجتماعية التى حفلت بها سنواته الأخيرة قد أثرت فى صحته. إن الرسول قد مرض فجأة، وكان مرضه الحمى. (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٦٧)

(٣٣) أبو بكر الصديق (رضى الله عنه)، كان له فى خلافته(٦٣٢-٦٣٤م) بيت مال ينفق كل ما فيه على المسلمين، ولما مات لم يجدوا فيه إلا دينارًا واحدًا. (جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج٤ ص٤٤)

(٣٤) الصحيح أن مدة خلافته كانت سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٢ ص٢٨٧)

عام ٩٤٣ يونانية (٦٣١- ٦٣٢م) مات أبو بكر ملك العرب وجاء خلفا له **عمر**[٣٥] الذى حكم لمدة اثنى عشر عاما.

عام ٩٤٤ يونانية (٦٣٢-٦٣٣م) نزل هرقل ملك الرومان إلى الرها حيث دارت معركة فى **الجابية**[٣٦] انهزم فيها الفرس وانسحبوا من ما بين النهرين.

عام ٩٤٨ يونانية (٦٣٦-٦٣٧م) هاجم العرب الجزيرة فانهزم الرومان ودخل "عياض" الرها.

عام ٩٥٢ يونانية (٦٤٠-٦٤١م) انقض العرب على مدينة **دارا**[٣٧] وهاجموها. قتل من كلا الجانبين أعداد كبيرة وكان أكثرهم من العرب. وفى النهاية عقدت معاهدة بين الطرفين ففتحت أبواب المدينة، ومنذ ذلك الوقت لم يقتل أحد.

وفى نفس هذا العام حاصروا "أدبين" حيث قتل عدد غفير بلغ حوالى اثنى عشر ألفا من "أرمينيا".

فى ٩٥٣ يونانية (٦٤١-٦٤٢م) استولى العرب على **قيسارية**[٣٨] فى فلسطين.

عام ٩٥٥ يونانية (٦٤٣-٦٤٤م) جاء "ولنتين بطريق" قائد القوات الرومانية لمحاربة العرب ولكنه جبن أمامهم وهرب تاركا كل ما لديه من عدد وعتاد فاستولى عليها العرب.

---

(٣٥) هو عمر بن الخطاب(رضى الله عنه)، فتحت فى أيام خلافته(٦٣٤-٦٤٤م) البلاد وكثرت الغنائم، وأصبحت خزائن كسرى وقيصر بين يدى رجاله، ومع ذلك بلغ من الزهد والتقشف ما ليس بعده غاية، حتى قيل إنه كان يقف للخطابة وعليه إزار مرقع بالجلد. (جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج٤ ص٤٥)

(٣٦) قرية من أعمال دمشق، بالقرب منها تل يسمى تل الجابية. وفى الجابية خطب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) خطبته المشهورة. كانت الجابية مقر الأمراء الغساسنة من قبل، وقد احتفظت بأهميتها العسكرية حتى عهد الأمويين. (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٩٨)

(٣٧) بلدة واقعة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين. (الكنيسة الشرقية ١٣٠)

(٣٨) بلدة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. كانت قديما من أعيان أمهات المدن، أما الآن فليست كذلك، وهى بالقرى أشبه منها بالمدن. (ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤ ص٤٢)

وفى نفس هذا العام دخل "بروقوب" و"تيودور" بطنن فى "سروج" وقد تملكهم غضب شديد؛ فنهبوا وسرقوا وسلبوا كل ما وقعت عليه أيديهم، ثم قفلوا إلى بلادهم عائدين.

خلف البطريرك أثناسيوس القديس يوحنا تلميذه. فى تلك الفترة اشتهر القديس يوحنا بطريرك أنطاكية ويوحنا أسقف العرب وشمعون أسقف الرها ومتّى أسقف حلب من **دير زوقنين**[٣٩] المقدس والقديس توما أسقف آمد من نفس الدير.

عام ٩٥٦ يونانية (٦٤٣-٦٤٤م) مات **عمر**[٤٠] ملك العرب، وخلفه **عثمان**[٤١] الذى حكم اثنى عشر عاما.

عام ٩٦٠ يونانية (٦٤٨-٦٤٩م) دخل معاوية قبرص، وفى نفس العام استولى على **أرواد**[٤٢] (أدور- أرود).

عام ٩٦١ يونانية (٦٤٩-٦٥٠م) توفى القديس **مار**[٤٣] يوحنا بطريرك أنطاكية، ودفن فى آمد فى كنيسة مار زعورا المقدسة.

وفى نفس العام توفى القديس مار يوحنا أسقف العرب، حيث دفن فى آمد فى كنيسة القديس مار يوحنا المعمدان.

---

(٣٩) دير عظيم فى آمد (ديار بكر) وله شهرة واسعة. نشأ فيه "أياونيس الأول" المتوفى عام ٧٥٥م، وأربعة عشر أسقفا. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور، ص٥١١)

(٤٠) قتل عمر بعد عودته من الحج الذى اعتاد على أدائه كل عام، فقام غلام فارسى يدعى "أبو لؤلؤة فيروز" وطعنه بالخنجر طعنتين. (المسعودى: مروج الذهب، ج ١ ص٣٠١)

(٤١) ولى عثمان بن عفان(رضى الله عنه) الخلافة(٦٤٤-٦٥٦م=٢٣-٣٥هـ)، وكان أول خليفة اقتنى المال لنفسه، وقيل أيضا إنه فى أيامه اقتنى الصحابة الضياع وابتنوا الدور واختزنوا الأموال.(جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج٤ ص٤٦)

(٤٢) أرواد: هذا الاسم غير واضح بالنسبة لديونسيوس، فقد قال إنه "أدور" ووضع بين قوسين "أرود"، ولكن الصحيح "أرواد"، وهى جزيرة بالقرب من القسطنطينية غزاها وفتحها المسلمون عام ٥٤م مع "جنادة ابن أبى أمية"، فى أيام "معاوية بن أبى سفيان"، وسكنها "معاوية"، وأقاموا بها سبع سنوات. (ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١ ص١٦٢)

(٤٣) "مار" لفظة سريانية تعنى السيد أو الرب، وتطلق على القديسين والرؤساء الكنسيين تعظيمًا. (تاريخ الكنيسة ٨)

وفى العام نفسه توفى أيضا فى آمد القديس **مار شمعون**[٤٤] أسقف الرها، والذى دفن أيضا فى كنيسة مار زعورا.

عام ٩٦٢ يونانية (٦٥٠-٦٥١م) أصبح مار تيودور بطريركًا لأنطاكية، وفى الرها كان (قرياقوس).

عام ٩٦٣ يونانية (٦٥١-٦٥٢م) نشب قتال بين العرب والرومان فى **طرابلس**.[٤٥]

عام ٩٦٤ يونانية (٦٥٢-٦٥٣م) دخل **حبيب**[٤٦] الجزيرة، وجاء بروقوب لعقد صلح مع العرب.

عام ٩٦٥ يونانية (٦٥٣-٦٥٤م) مات **هرقل**[٤٧] ملك الرومان بعد أن حكم فترة تقدر بنحو واحد وثلاثين عاما، ثم جاء خلفا له **قسطنطين الصغير**[٤٨] لمدة عام واحد.

عام ٩٦٦ يونانية (٦٥٤-٦٥٥م) مات قسطنطين فخلفه **قسطنطين آخر**[٤٩] لمدة سبعة وعشرين عاما.

---

(٤٤) لم يخلف مار شمعون ساويرس مباشرة فى الأسقفية؛ فهناك أسقفان جاءا بعد ساويرس، هما يعقوب وإشعياء، بخلاف الأساقفة النسطوريين الذين فرضوا على المدينة بأمر الفرس.
DUVAL: HISTOIRE D' EDESSE P.237-239-240.

(٤٥) فى عام ٢٣ هـ، أى عام ٦٤٣م قام عمرو بن العاص بغزو إقليم طرابلس، وكانت مدينة حصينة مسورة من سائر الجهات ما عدا الجهة الشمالية المطلة على البحر، فحاصرها شهرا وامتنعت عليه، ثم تم له فتحها فى هذا العام. (البلاذرى: فتوح البلدان، ج١ ص٢٦٥)

(٤٦) هو حبيب بن مسلمة الفهرى.

(٤٧) ضعفت طاقة هرقل الجسمانية، لدرجة أقعدته عن تولى قيادة الجيوش البيزنطية بنفسه لمقابلة القوات الإسلامية، فكان يعهد إلى أولاده وأقاربه قيادة الجيوش، غير أن الفوضى شملت أرجاء البلاط البيزنطى وقتئذ، فترك وصية تنص على أن يتولى شئون الدولة من بعده ابنه الأكبر قسطنطين، وتشاركه زوجته مارتينا مع ابنها. (إبراهيم العدوى: الإمبراطورية البيزنطية ص ٥٠)

(٤٨) تولى الحكم بعد وفاة هرقل فى آن واحد كل من ولديه قسطنطين الثانى وهرقلون، على أن يحكما بإشراف مارتينا زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون، وتوفى قسطنطين الثانى فى أواخر مايو عام ٦٤١م مسموما، فاتهمت مارتينا بقتل ابن ضرتها لكى يستأثر ابنها هرقلون وحده بالحكم. (أسد رستم: الروم ج١ ص٢٥٤).

(٤٩) فى عام ٦٤٢م نشبت ثورة، وقطع لسان مارتينا وجدع أنف هرقلون ونفيا إلى رودس، وتولى الحكم قسطنطين الثالث وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره، ويدعى قسطنس الثانى CONSTANS II، وتولى الحكم عام ٦٤٤م، واستهل نشاطه البحرى بهجوم على قبرص عام ٦٤٩م، وباحتلال أرواد عام ٦٥٠م. (أسد رستم: الروم ج١ ص٢٥٥)

عام ٩٦٧ يونانية (٦٥٥-٦٥٦م) مات **عثمـان**[٥٠] ملـك العـرب. نشـب الخلاف واهتزت المنطقة، واضطرب العـرب، وانتشـر الفسـاد فـى الـبلاد، وسفكت دماء عربية كثـيرة بأيدى العرب أنفسـهم، وذلك لرفضـهم الخضـوع لرئيس واحد؛ إذ إن كل واحد منهم كان يتطلع إلى الحكم، فقد كـان معاويـة قائـد القوات فى **المنطقة الغربية**[٥١] يتمنى الحكم. وكان الغربيون يحبونه فبايعوه ودانوا له بالطاعة، ولكن المنطقة الشرقية والجزيرة تصدوا له، واستجابوا لـرئيس آخـر يدعى **عباسًا**[٥٢] ونصبوه خليفة، ومنذ ذلك الحين نشبت بينهم الحـروب وسـفكت الدماء وارتوت الأرض بدمائهم. قامت حروب كثيرة فى كل مكان، ومضت حوالى خمس سنوات على هذا الحال من الخلافات والحروب.

عام ٩٦٨ يونانية (٦٥٦-٦٥٧م) نشبت معركة فى **صفين**[٥٣] بـين عبـاس ومعاوية، وسفكت دماء كثيرة من الجانبين.

عام ٩٧٣ يونانية (٦٦١-٦٦٢م) قتل **عباس**[٥٤] غدرا من العظماء فى يـوم الجمعة أثناء سجوده للصلاة. ومنذ ذلك الحين انفرد معاوية بالملـك لمـدة واحـد وعشرين عاما، شاملة السنوات الخمس التى مضت فى الحروب بينه وبين عباس.

---

(٥٠) كان قتله لثمان عشرة خلت من ذى الحجة عام ٣٥ يوم الجمعة، وكانت خلافـته اثنى عشرة عاما إلا اثنى عشر يوما. سمى يوم قـتله "يوم الدار" لأنهم هجموا عليه فى داره وقتلوه بهـا. (ابـن الأثيـر: الكامل فى التاريخ ج٣ ص٩٠)

(٥١) المقصود بالمنطقة الغربية هنا سوريا ومصر، على عكس المنطقة الشرقية وهى المقصود بها الجزيرة وبلاد أشور. إن كلمتى المنطقة الغربية والشرقية استخدمها الكتّاب اليعاقبة، وذلك لتقسيم المنطقة إلـى أقسام أو وحدات كنسية. فواحدة منها تخضع لبطريرك أنطاكية، والأخـرى إلـى مفريـان تكريـت. ASSEMANI: BIBL. ORIEN. T.II P. 362.

(٥٢) المقصود هنا دون شك هو"على" وليس "عباس". وهو"على بن أبى طالـب" (٦٥٦- ٦٦١م=٣٥-٤١ هـ). هناك ظن أو قول بأن ديونسيوس، لأنه كان يدون كتبه فى سوريا، وكـان السـوريون وثيقـى الصلة بمعاوية، فأضرموا العداوة لعلى وأبنائه. وتبعًا لميل تلك الأمة فقد محوا أسماء على وأبنائه من قائمة الخلفاء، وأضافوا سنوات حكمهم إلـى سـنوات حكـم معاويـة. ASSEMANI: BIBL. ORIEN. T. II. P. 103.

(٥٣) موقع بالقرب من الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى، بين الرقة ونـابلس. وكانـت وقعـة صفين بين على (رضى الله عنه) ومعاوية فى غرة صفر عام ٣٧ هـ =٦٥٦ م. (ياقوت الحمـوى: معجم البلدان ج٣ ص٤١٤)

(٥٤) المقصود هنا هو "على" (رضى الله عنه) رابع الخلفاء الراشدين، كان قتله صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان عام ٤٠ هـ.(ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج١ ص١٨١).

عام ٩٧٦ يونانية (٦٦٤-٦٦٥م) توفى القديس مار تيودور بطريرك أنطاكية، وخلفه القديس مار ساويرس برمشقا. (وفى الرها خلف قرياقوس القديس مار يعقوب).[٥٥] وفى هذا الوقت ظهر أهرون الفارسى الذى أطلق عليه اسم المفسر الفارسى.

عام ٩٨٨ يونانية (٦٧٦-٦٧٧م) مات **معاوية**[٥٦] ملك العرب، وجاء خلفا له **يزيد**[٥٧] الذى حكم لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة.

عام ٩٩٠ يونانية (٦٧٨-٦٧٩م) فى الثالث من شهر نيسان (أبريل) يوم الأحد وقع زلزال هائل وعنيف، هدمت على أثره بطنن فى سروج، وكذلك كنيسة الرها القديمة، حيث لقى الكثير مصرعهم.

عام ٩٩٢ يونانية (٦٨٠-٦٨١م) توفى **يزيد**[٥٨] ملك العرب، وحكم بعده **مروان**[٥٩] لمدة عام واحد، وفى نفس العام توفى قسطنطين ملك الرومان، وجاء خلفا له **قسطنطين آخر**[٦٠] لمدة ستة عشر عاما.

---

(٥٥) أضيفت هذه الجملة فى هامش المخطوطة لأنها يجب أن تقرأ هنا. ويعقوب لم يخلف القديس "قرياقوس" مباشرة، بل كان هناك قديس يدعى "دانيال"، توفى عام ٦٦٩م، وهو تاريخ وفاة "قرياقوس". Duval: Histoire D'edesse p.241

(٥٦) توفى معاوية بدمشق فى رجب عام ٦٠ هـ = ٦٧٩ م بالغا من العمر ثمانين عاما (الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٤).

(٥٧) كانت مدة حكم يزيد ثلاث سنوات وثمانية أشهر. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص١١١)

(٥٨) أغفل ديونسيوس معاوية وابنيه يزيد وعبد الملك، وأضاف سنوات حكمهم إلى مدة حكم مروان. توفى يزيد فى ١٤ من ربيع الأول عام ٦٤ هـ= ٦٨٣ م، وكانت مدة خلافته ثلاث سنوات وستة أشهر. (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج١ ص١٩٣)

(٥٩) بويع مروان بالأردن عام ٦٤ هـ=٦٨٣م، وهو أول من أخذ الخلافة بالسيف. مات بدمشق، وكانت مدة ولايته سبعة أشهر وأياما. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٣ ص٣٤٨)

(٦٠) هو قسطنطين الرابع (٤٨-٦٦هـ=٦٦٨-٦٨٥م). فى أثناء غياب قسطنطين الثالث فى ايطاليا وصقلية كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو بعد فتى، فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة فى صقلية نهض إليها، فأخذ بالثأر، وعاد والشعر قد نبت فى وجهه فلقب بالألحى POGONATUS (أسد رستم: الروم ج١ ص٢٥٨)

عام ٩٩٣ يونانية (٦٨٢-٦٨٣م) مات مروان ملك العرب، وجاء خلفا له **عبد الملك**[٦١] الذى حكم لمدة واحد وعشرين عاما. وفى أثناء حكمه حدث شقاق استمر تسعة أعوام، رفض العرب أثناءها الخضوع لحاكم واحد؛ فلم يتوقفوا عن الحروب والمعارك طيلة السنوات التسع.

عام ٩٩٤ يونانية (٦٨٢-٦٨٣م) مات القديس مار ساويرس برمشقا، وظل منصب البطريرك شاغرا لمدة خمس سنوات بسبب النزاع بين الأساقفة.

عام ٩٩٩ يونانية (٦٨٧-٦٨٨م) أصبح **القديس أثناسيوس**[٦٢] بطريركًا.

عام ١٠٠٢ يونانية (٦٩٠-٦٩١م) ساد السلام ودانت البلاد كلها لعبد الملك، واستقر على العرش.

عام ١٠٠٣ يونانية (٦٩١-٦٩٢م) أجرى عبد الملك **تعديلا**[٦٣] فى سوريا، فقد أصدر قانونا صارمًا ينص على أن يلحق كل فرد ببلدته أو قريته أو مسقط رأسه، ويسجل اسمه واسم أبيه، وكذلك كرومه وزيتونه وثروته وعدد أولاده وكل مايملك. كان هذا بداية الجزية المفروضة على رءوس الأفراد؛ فقد كان ذلك بداية المساوئ التى حلت بالمسيحيين. كان الملوك حتى ذلك الوقت يستولون على خير

---

(٦١) عبد الملك بن مروان هو خامس خلفائهم، بويع عام ٦٥هـ=٦٤٨م عقب موت مروان، واستتب له الأمر بالشام ومصر، وتوفى عام ٨٦هـ=٧٠٥م. (جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ج٤ ص٦٧)

(٦٢) عام ٩٩٥ يونانية نُصب أثناسيوس المفسر الملقب "بالبلدى" بطريركًا، وتوفى بعد جلوسه على الكرسى بثلاث سنوات، أى عام ٩٩٨ يونانية، فى أيلول، وكان قد رسم مار يعقوب أسقفا للرها. وأثناء احتضاره أوعز إلى سرجيس الزوقنينى الذى كان يعتبر نفسه رئيسا للأساقفة، ليرسم جورجيسو أسقفا للعرب، فتم ذلك فى تشرين الثانى. (تاريخ ميخائيل السريانى ٣٦٨)

(٦٣) كان رأى السمعانى ASSEMANI عن التعديل أنه المساواة، وهو الذى يسمى الآن بالخراج. (السمعانى: المكتبة الشرقية ج٢ ص١٠٤) ولقد اختلفت الآراء حول من الذى فرض هذا النظام المالى فى البلاد، أهو عبد الملك بن مروان أم هو عمر بن عبد العزيز؟ فيقول البعض إنه عبد الملك مثل ديونسيوس التلمحرى (المخطوطة).
DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P.228/ LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XIII P. 23./BAR-HEBRAEUS: CHRON.ECCL. P. 108.
ولكن أغلب المراجع والمصادر العربية تؤيد أنه عمر بن عبد العزيز، وهو الظن الغالب.

البلاد، وليس فقط من الأفراد. منذ ذلك الوقت بدأ أولاد هاجر يستعبدون أولاد آرام، ولكن الويل لنا لأننا ارتضينا أن يحكمنا العبيد، تلك هي الضريبة الأولى التي فرضها العرب.

عام ١٠١٤ يونانية (٧٠٢-٧٠٣م) توفى الملك **عبد الملك**[٦٤] ملك العرب، بعد فترة من الحكم استمرت واحدًا وعشرين عاما، شاملة السنوات التسع التي وقعت فيها الفتنة؛ فحكم بدلا منه **الوليد**[٦٥] لمدة تسع سنوات.

عام ١٠١٥ يونانية (٧٠٣-٧٠٤م) توفى القديس أثناسيوس بطريرك أنطاكية، الذي خلفه القديس مار يوليان.

عام ١٠١٦ يونانية (٧٠٤-٧٠٥م) حل طاعون عظيم وشديد على البلاد، لدرجة أن الأهالي لم يتمكنوا من دفن الموتى، وقد استفحل خاصة في بلدة سروج. وعلى أثر هذا الطاعون توفى اثنان وسبعون شخصا في **دير مار سيلا**.[٦٦]

عام ١٠٠٨ يونانية[٦٧] (٦٩٦-٦٩٧م) توفى **قسطنطين**[٦٨] إمبراطور الرومان، وجاء خلفًا له **جستنيان**[٦٩] الذي حكم لمدة عشر سنوات.

عام ١٠١٧ يونانية (٧٠٥-٧٠٦م) اجتمع سينودس (مجمع كنسي) في دير مار سيلا، وكان رؤساؤه مشهورين، وهم البطريرك يوليان وتوما أسقف آمد ويعقوب أسقف الرها مفسر الكتب والقديس **مار يعقوب**[٧٠] أسقف الرها.

---

(٦٤) عمّم عبد الملك بن مروان استعمال اللغة العربية في الدواوين. وتوفى عام ٨٦ هـ=٧٠٥م في النصف من شعبان. (جورجي زيدان: ج٤ ص٦٧)

(٦٥) سادس الخلفاء، وهو ابن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ=٧٠٥-٧١٥م) شهد العرب في أيامه أزهى أيامهم وأعظم فتوحاتهم. كان عند أهل الشام من أفضل خلفائهم، بنى المساجد ومنها مسجد دمشق ومسجد المدينة والمسجد الأقصى ووضع المنابر. (ابن الأثير ج٤ ص١٣٧)

(٦٦) يقع دير مارسيلا في ضواحي سروج. (اللؤلؤ المنثور ٥٠٢)

(٦٧) هنا رجوع بالتاريخ.

(٦٨) هو قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م).

(٦٩) هو جستنيان الثاني(٦٨٥-٦٩٥م)، وهو ابن قسطنطين الرابع.

(٧٠) قال السمعاني إن يعقوب رسم أسقفا عام ٦٥١م، بينما أرجعه ديونسيوس في المخطوطة إلى عام ٦٧٧ أو ٦٨٠م. WRIGHT: SYRIAC LITTERATURE P.141- 145.

عام ١٠١٨ يونانية (٧٠٦-٧٠٧م) توفى **جستنيان**[٧١] إمبراطور الرومـــان، وخلفه على العرش **ليونتيوس**[٧٢] الذى حكم أربع سنوات.

عام ١٠١٩ يونانية (٧٠٧-٧٠٨م) توفى القديس مـــار يوليـــان بطريـــرك أنطاكية، وخلفه مار إليا.

عام ١٠٢٠يونانية (٧٠٨-٧٠٩م) فرضت ضريبة جديـــدة أضـــيفت إلـــى الضريبة السابقة، مما ضاعف من المساوئ.

عام ١٠٢١ يونانية (٧٠٩-٧١٠م) توفى القديس مار يعقوب أسقف الرهـــا، وجاء خلفا له **مار حبيب**.[٧٣] فى هذا الوقت اشتهر القديس مار توما العمودى مـــن **تلا**.[٧٤]

عام ١٠٢٢ يونانية (٧١٠-٧١١م) مات لونتيـــوس إمبراطـــور الرومـــان، والذى تولى الحكم بعده **طيباريوس أبسيمار**[٧٥] لمدة سبع سنوات.

عام ١٠٢٣ يونانية (٧١١-٧١٢م) مات **الوليد**[٧٦] ملك العرب، وجاء خلفـــا له **سليمان**[٧٧] الذى حكم لمدة سنتين ونصف السنة.

---

(٧١) لم يمت جستنيان فى ذلك التاريخ، ولكن ليونتيوس قام بنفيه. (أسد رستم: الروم ج١ ص٢٧٠)

(٧٢) استغل ليونتيوس LEONTIUS (٦٩٥-٦٩٨م) انتفاضة أهالى القسطنطينية لكى يغدو إمبراطورا بعد يوسطينيانوس، ولكن سرعان ما حل طيباريوس مكانه، فحبسه فى دير ثم قطع رأسه عام ٧٠٥م.
LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII.P.3.

(٧٣) الحقيقة أن مار حبيب لم يخلف مار يعقوب، ولكن الذى حدث أن يعقوب ترك الأسقفية لمدة عشـــرين عاما بدءا من عام ٦٨٨م، وفى هذه الفترة حل محله مار حبيب. وبعد موت حبيب عام ٧٠٨م رجـــع يعقوب إلى الرها أسقفا، وتوفى بعد عدة أشهر، وجاء خلفا لـــه جبرائيـــل. DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P. 245- 25

(٧٤) تلا أو تل موزلت كانت مدينة فى بلاد ما بين النهرين، وتبعد تقريبا بمسافة متساوية من الشرق عـــن نصيبين ومن الشمال عن آمد، وبمعنى أدق بين نصيبين والرها.
ASSEMANI: DISS. DE SYRIS. MONOPH.P.114.

(٧٥) هو طيباريوس الثالث (٦٩٨-٧٠٥م) قام بالاستيلاء على العاصمة بعد أن حبس "ليونتيوس " فى أحـــد الأديرة، وقد اشترك فى الحكم معه ولداه "تيودور" و "قسطنطين".
LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII P. 44-62.

(٧٦) مات الوليد عام ٩٦هـ=٧١٥م، وكانت مدة خلافته تسع سنوات وسبعة أشهر، وكانـــت وفاتـــه بـــدار مروان، ودفن بدمشق. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٤ ص١٣٧)

(٧٧) هو سليمان بن عبد الملك. فى عام ١٠٢٦ توفى "الوليد" أمير المسلمين، وخلفه أخـــوه ســـليمان مـــدة خمس سنوات وستة أشهر. وفى هذه السنة دخل سليمان منطقة غلاطية واحتل حصونها، وعاد بغنـــائم وفيرة. (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج١ ص٢٠٠)

عام ١٠٢٤ يونانية (٧١٢-٧١٣م) مات القديس مار توما أسقف آمد، وخلفه مار تيودوت.

بعد الإمبراطور الرومانى أبسيمار تولى الحكم **جستنيان**(٧٨) لمدة ست سنوات، وبعده حكم **فيليبكس**(٧٩) لمدة ثلاث سنوات، وبعد ذلك جاء **أنستاس**(٨٠) لمدة سنتين، وأخيرا **توداسيوس**(٨١) قسطنطين لمدة عام واحد، وهو الذى كان يتولى الحكم عندما هاجم **مسلمة**(٨٢) الأراضى الرومانية. إن جملة سنوات حكم هؤلاء الأباطرة الرومان يقدر بنحو اثنى عشرة عاما. إن هذا الحساب قائم على أساس تقريب تاريخ وقوع الحدث إلى أقرب سنة. إن العرب لا يحسبون الشهور ولكن يحسبون الأقمار مثل السوريين؛ حتى إن معظم الكُتّاب لا يقومون بالتأريخ الدقيق، ولكن يحسبون فقط سنوات الحكم ويحذفون سنوات النزاع الذى يقع بين

---

(٧٨) ظهر جستنيان الثانى مرة أخرى (٧٠٥-٧١٢م) وذلك بعد عشر سنوات من اختفائه. كان أول إمبراطور سكّ على العملة صورة المسيح، حكم ست سنوات، وتوفى فى أواخر يناير عام ٧١٢م=٩٤هـ، وبموته انتهى أمر الهرقليين بعد فترة حكم تقدر بحوالى مائة عام وستة أشهر. (أسد رستم: الروم ج١ ص٢٧٢) LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII P. 60- 83.

(٧٩) لم يكن فيليبكوس البردانى (٧١١-٧١٣م) سوى رجل لهو ولذة، فقد قضى وقته منصرفا إلى المتع. دخل العاصمة بينما كان يوستنيوس فى سينوب، فقتله وقتل ابنه طيباريوس، وبذلك انتهى أمر الهرقليين بعدما حكموا مئة سنة وسنة. (أسد رستم: الروم ج١ ص ٢٧٢)

(٨٠) أنستاس الثانى أو أنسطاسيوس (٧١٣-٧١٥م)، أما اسمه الحقيقى فهو "أرتاميوس"، وكان رئيس كتاب القصر، وقام الشعب بتعيينه ولكن تمرد عليه الجند بعد ذلك وخلعوه.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII.P. 108.

(٨١) هو توداسيوس الثالث، آخر ملوك الأسرة الهرقلية البيزنطية. (عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ص١٦١)

(٨٢) كان قد تولى الخلافة فى دمشق سليمان بن عبد الملك (٧١٥-٧١٧م)، فأعد أسطولاً كبيرًا وجيشًا عظيمًا، وأسند القيادة فى البر لأخيه "مسلمة". واعتمد مسلمة على تجويع المدينة أكثر من اعتماده على مهاجمتها جبهيًا، فجاء شتاء (٧١٧-٧١٨م) بثلج دام ثلاثة أشهر، فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار، وبين من لقى حتفهم الوزير سليمان. وفى ربيع عام ٧١٨م وصل أسطول احتياطى من مصر وجيش جديد من طرسوس، واحتل هذا الجيش شاطئ البسفور الآسيوى، ورسا الأسطول فى مياهه، فتسللت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصرى فأحرقته، ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إربًا، وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة، ثم فاجأه البلغاريون من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفا، فتراجع عن عاصمة الروم بعد أن فقد معظم جيشه. وتعرض الباقى لعاصفة فى بحر إيجة، فلم يعد إلى شواطئ الشام سوى خمس سفن فقط. (أسد رستم: الروم ج١ ص ٢٧٤).

CANARD, M: EXPEDITIONS ARABES . JOURNAL ASIATIQUE .1929, P. 102.

حكمين. أما أنا فقد اتبعت هذا النظام فى حساب تلك الفترة لكى لايحدث أى لبس لدى القارئ.

عام ١٠٢٨ يونانية (٧١٦-٧١٧م) دخل مسلمة الإمبراطورية الرومانية. لقد تجمعت قوات غفيرة من العرب لاحصر لها، وبدأوا يغيرون على أراضى الروم؛ فهرب كل سكان بلاد آسيا وكبادوكيا وفروا أمامهم، وكذلك كل أهالى المنطقة الساحلية.

لقد زحفوا إلى **الجبل الأسود**[٨٣] ولبنان حتى مليتين ونهر أرسيناس، حتى وصلوا إلى داخل أرمينيا. كانت تلك المنطقة مشهورة بكثرة عدد سكانها وكثافة كرومها ومحاصيلها وبكثرة أشجارها الجميلة، ولكن منذ ذلك الحين أصبحت مهجورة وخالية من السكان.

عندما شاهد الملك هذا العدد الغفير زاحفا عليه، وعلم أن **لاوون**[٨٤] قائد قواته قد عقد اتفاقية معهم ارتعد قلبه وضعفت يداه وتنازل عن العرش، فخلعوا عنه التاج وقاموا بحلق رأسه. تلك هى عادة ملوك الروم الذين إذا تنحى أحد منهم عن العرش تحلق رأسه ويبقى فى منزله. عندئذ استدعاه لاوون رئيس القوات وقال له: "تشجع ولا تخف". فلم يستسلم للهزيمة، ولكنه عاند وأصر على التنازل عن الملك.

كان لاوون هذا رجلا ذا قلب قوى ومحبا للحرب إلى أقصى حد، وكان سورى الجنسية والأصل. وبسبب شجاعته جعلوه قائدا للقوات، وبحكمته استطاع

---

(٨٣) الجبل الاسود أو جبل موروس يقع بالقرب من أنطاكية فى سلوقية التى هى اليوم السويدية.(اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٦)

(٨٤)هو مؤسس الأسرة الأسورية أو السورية، اختلفت الآراء فى أصله، فإن "تيوفانس" المرجع الرئيسى فى سيرة لاوون قال عنه "إنه من أصول جرمانيكية، ومن أصل أسورى THEOPHANES: CHRONOGRAPHIA.ED. BEOR P. 391. كان يشغل أولا منصب حاكم أناتوليا (أى البند الشرقى من أقاليم آسيا الصغرى)، وحاول المسلمون استمالته إلى جانبهم إبان زحفهم على القسطنطينية، ولكنه استغل هذه الفرصة وصحب الجيوش الإسلامية إلى أسوار العاصمة، حيث عزم على تنفيذ ما بيته فى نفسه من تحقيق مآربه الخاصة؛ فتمكن من الدخول إلى القسطنطينية، وأنهى قصة اضطراب أحوالها، وتقلد أعنة الإمبراطورية. ولما كان خبيرا بأساليب العرب ومطامحهم فقد تمكن من توجيه دفة الدفاع عن العاصمة بشكل ضمن له الفوز. (إبراهيم العدوى: الإمبراطورية البيزنطية ص٦١)

أن يحمى الأرض من أن تروى بدماء الرجال، فقد عقد اتفاقا مع مسلمة ووعده أن يدخل القسطنطينية دون قتال. وقد وثق فيه مسلمة عندما دخل ولم يحارب ولم يقم بأسر أحد، واتجه إلى القسطنطينية وذهب وصوّب الحصار حول المدينة.

وعندما دخل لاوون المدينة، ورأى الرومان فى حالة من اليأس، وأن الإمبراطور تنازل عن الملك، أخذ يشجعهم قائلا لهم: "لاتخشوا شيئا". فعندما رأوا شجاعته وخافوا أن يحدث له ما حدث للإمبراطور السابق أخذوه ونصبوه **ملكا**.[٨٥] وبمجرد أن استقر التاج الملكى على رأسه تحلى بالقوة والشجاعة، فحصن سور المدينة، وأرسل قوة لتقطع الطرق وتسمح فقط بمرور القوات القادمة من سوريا، كما هدم وكسر معبر السفن.

لقد وجد العرب أنفسهم وقواتهم فى **الحصار**[٨٦] كالمساجين، فأمر مسلمة بزرع الكروم، ولكن حدث أن حلت بهم **مجاعة**[٨٧] قاسية وشديدة، وصلت بهم إلى حد أن الخبز نقص فى معسكرهم، فاضطروا أن يأكلوا دوابهم وخيولهم. وعندما سأل مسلمة لاوون: "أين القسم الذى أقسمته بالسماح لى بدخول القسطنطينية دون قتال؟" أجاب لاوون بهدوء: "انتظر بضعة أيام حتى يخضع لى عظماء الإمبراطورية".

لقد ظلوا هكذا دون قتال فى مراكزهم، بعضهم فى الداخل والبعض الآخر فى الخارج لمدة ثلاث سنوات[٨٨] ولقد اشتدت وطأة المجاعة على العرب، لدرجة أنهم أكلوا أحذيتهم وجثث الموتى، بل كانوا يفتكون بعضهم ببعض، حتى أصبح الواحد منهم لا يأمن الخروج بمفرده.

---

(٨٥) دخل لاوون من الباب الذهبى، واستقبل بحفاوة بالغة فى المدينة، وبفرحة عظيمة ذهب إلى كنيسة أيا صوفيا، وتزوج فى ٢٥ مارس عام ٧١٧م.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII. P. 108.

(٨٦) لم يدم هذا الحصار أكثر من عام واحد، فقد زال فى ١٥ أغسطس عام ٧١٨م. كثير من الكتاب قدروا هذا الحصار بنحو ثلاث سنوات. (إبراهيم العدوى: الدولة البيزنطية ص ٦١)

(٨٧) لقد اشتدت هذه المجاعة بالعرب لدرجة أنهم من قسوتها بعد أن أكلوا الجياد والبغال والجمال وأوراق الشجر وحتى جلود أسلحتهم وأحذيتهم كانوا على استعداد لأكل الجثث.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII. P. 122-123.

(٨٨) دام الحصار لمدة عام واحد ورفع فى ١٥ أغسطس عام ٧١٨.

وبينما كان مسلمة يستحث لاوون كل يوم قائلا: "لتفِ بوعـدك أو أحـارب" وصلهم نبأ وفاة سليمان خليفة العرب، وتولى **عمر الثانى**[89] خلفا له. ثم أرسل لهم عمر خطابا يقول: "اخرجوا من هنا حتى لا تموتوا جوعا أنتم ومن معكم". وبعد أن تسلم مسلمة الخطاب طلب من لاوون أن يدخل المدينة لزيارتها؛ فدخلها مع ثلاثين فارسا، ومكث بها ثلاثة أيام حيث شاهد الأعمال الملكية، ثم انسحب العـرب مـن هناك وخرجوا دون أن يفعلوا شيئا، حتى وصلوا إلى بلدة تسمى **طاونـا**،[90] فلمـا رآهم حاكم المدينة جائعين وفى حالة من الهزال والضعف احتقرهم، وتوجـه إلـى لاوون قائلا: "أرسل لى قوة وسأهاجمهم سرًّا".

ولكن تلك الخطة لم تخف عليهم، فعندما شعروا أن هناك قوة آتية خلفهم قام أحد رؤساء قوات مسلمة ويدعى عباسًا، وطلب مـن المجموعـة الملكيـة قـائلا: "أعطونى جيشا حتى أذهب وألتقى بهم قبل أن يصلوا، خشية أن يحاصرونا ويمحوا أثرنا من على وجه الأرض، وتصبح نهايتنا أسوأ مما حدث لنا فى هذا الطريـق". فأخذ قوة هائلة وذهب لمقابلتهم، وكان الآخرون يسيرون فى جماعات متفرقة لعدم استعدادهم للحرب، وأيضا بسبب عدم معرفتهم بقـوة العرب القادمـين إليهم. لقـد نزل عباس قبلهم فى مكان واسـع، كانوا هم أنفسـهم مستعدين لنصب خيامهم فيه فى ذلك اليوم، وقام بوضع القوات كلها فى كمين أعده فى خنـادق ومنـازل مـن بوص كانت موجودة هناك. جاء الرومان ونزلوا فى الحقول لايعرفون شيئا، ولـم يدركوا قط ما فعله العرب، فنصبوا خيامهم وأرسلوا جيادهم للرعى كما هى عـادة

---

(٨٩) هو عمر بن عبد العزيز (٧١٧- ٧٢٠م = ٩٩ - ١٠١هـ) ثامن الخلفاء الأمـويين، أوصـى إليـه بالخلافة سليمان بن عبد الملك لما اشتد مرضه بدابق. لقد قطع عمر بن عبد العزيز السب عن علـى ابن أبى طالب عقب خطبة الجمعة، كما أنه أبطل تحصيل الجزية ممن أسلم. وقد توفى مسموما سـنة ١٠١هـ لخمس بقين من رجب يوم الجمعة بالمناصرة ودفن بدير سمعان، وقيل توفى بـدير سـمعان ودفن به، وهو المعروف الآن بدير النقيرة من عمل معرة النعمان، وكانت مدة خلافته سنتين وخمسـة أشهر، وكان عمره أربعين سنة وأشهرًا. كان فى وجهه شجة من رمح دابة وهو غلام، ولهـذا كـان يدعى بالأشج. (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص٢٠١)

(٩٠) بلدة فى كبادوكيا مشهورة منذ عدة قرون، كانت واسعة وغنية وآهلة بالسكان، ولكنها اليوم مهجـورة ولاتحتفظ إلا باسمها وبأساقفتها، وقد سقطت طوانة أو طاونا (من أعمال آسيا الصغرى) فـى أيـدى العرب بعد حصار طويل. (تاريخ ميخائيل السريانى الكبير ج٢ ص٣٧٥)

الجيش. حينئذ خرجوا من كمائنهم وخنادقهم حيث كانوا يقيمون، فانقض عليهم العرب وفقا للإشارة المتفق عليها بينهم فأبادوهم جميعا بحد السيف، ولم ينج منهم أحد. كان الرومان حوالى **ستين ألفا**،[٩١] وبعد أن نهب العرب الغنائم رجعوا إلى زملائهم. وحدث أن كانت قوة رومانية أخرى آتية بعدهم، ولكن عندما علمت بما حدث لسابقتها تملكها الخوف وقفلت راجعة. أما العرب فبعد أن سلبوا ونهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم خرجوا من تلك المنطقة وعادوا إلى سوريا.

عام ١٠٣٢ يونانية (٧٢٠-٧٢١م) التى كانت أول سنة لعمر خليفة العرب، والسنة الرابعة للاوون ملك الروم، خرج مسلمة من مملكة الروم بعد أن خرّب ونهب كل تلك المنطقة، وحولها إلى صحراء قاحلة. إنى قد أغفلت أحداثا كثيرة وقعت فى تلك الغزوة، وذلك لكى لاأطيل... تمت القصة.

فى تلك الفترة ظهر البطريرك إليا والأسقف مار حبيب من الرها وشمعون من حران وتيودوت من آمد.

عن علامة الإعجاز التى قام بها مار حبيب أسقف الرها

(أما سر الملك فخير أن يكتم وأما أعمال الله فإذاعتها والاعتراف بها كرامة).[٩٢]

إنه لن يكون غريبا، كما أن آذان المستمعين لن تستاء، إذا رويت معجزة تدل على عظمة الرب التى حدثت على يد أحد رسله فى أيامنا. عندما أراد العرب غزو البلاد الرومانية كان من بين تلك القوات العربية رجل عربى جاء وأقام فى **دير القديس مار هابيل**[٩٣] فى أرض الرها، فلما رأى أن حارس هذا الدير رجل تقى

(٩١) لقد فقد الرومان نحو أربعين ألف محارب فى تلك المعركة.
BAR- HEBRAEUS: CHRON. SYR. P. 120.

(٩٢) العهد القديم: الأسفار القانونية، سفر طوبيا ١٢: ٧.

(٩٣) دير يقع فى قرية فى كورة سعرت، وهى مدينة جنوبى بدليس، جنوب شرقى بحيرة "وان". (اللؤلؤ المنثور ص ٥١٦)

متواضع يقظ يتحلى بكل الفضائل الإلهية عهد إليه بمبلغ لابأس به من الذهب، وقال له: "احتفظ لى بهذا، فإذا رجعت حيًا استرددته منك، أما إذا وصلك خبر موتى فوزّعه على الفقراء". ثم غادر المكان.

قبل الراهب الأمانة، فأخذ الكنز وحفر فى الأرض لإخفائه فيها، حتى لا يشعر به أحد ممن معه. غاب العرب لمدة ثلاث سنوات ولم يُكشف السر، فحدث - لحكمة من الخالق - أن خرج الحارس من هذا العالم المضطرب قبل أن يخرج العرب من بلاد الروم. ثم جاء صاحب الأمانة وسأل عن الرجل فأخبروه أنه قد مات، فقال لهم: "أعطونى ما أودعته لديه". فأجاب الرهبان: "لا علم لنا بما تقوله، وأيضا لم يتحدث عن هذا ولم يوصِ أحدًا منا بشىء كان يوجد لديه...".

ولما كان هذا الرجل العربى قويا فقد هدد وتوعد الرهبان قائلا: "أعطونى مالى وإلا فسأهدم ديركم". ولأن الأمر كان يتعلق بمبلغ غير بسيط فقد كانوا مضطربين جدا، فأمرهم الحاكم أن يبيعوا كل ما يملكون ويعطوا الرجل المبلغ ثمنا لتحررهم، وإذا لم يكف هذا المبلغ فسيباع رهبان هذا الدير حتى يسددوا المبلغ. وعندما علم كل أهالى البلدة والمنطقة بهذا الحكم القاسى الذى صدر ضد الرهبان الأتقياء أصابهم هلع شديد من غدر الزمن، ففضلوا أن يبيعوا أبناءهم وإخوانهم عبيدًا على أن يقوموا بخدمة الوثنيين.

لقد شعر أسقف البلدة العفيف مار حبيب بحزن عميق، عندما رأى أن إخوانه على وشك أن يساقوا إلى العبودية، وبعد أن ذرف دموع الحسرة بجوار المخلص امتطى جواده واتجه إلى الدير بصحبة حشد عظيم من نبلاء المدينة والمنطقة، حتى يلتمسوا الرحمة من هذا الرجل. لقد حاولوا أن يقنعوه بكل الطرق بأن الرهبان سيأتون من كل مكان ليدبروا له المبلغ المطلوب، ولكنه لم يستجب قائلا: "إن لديهم مالى فليعطونى ما هو لى وسأذهب". أما الآخرون فكانوا من جانبهم يؤكدون له دائما بالقسم وبالنواح أنهم لا يعرفون شيئا عن ذهبه، ولكنه لم يقتنع بكلامهم.

كان القديس مار حبيب مضطرب الفؤاد ومشتت الفكر، فالبعض يقول نحن لانعرف شيئا، ولكنه لم يتقبل ذلك قط، ولم يصدقه. وتسلح بدرع الإيمان الحقيقي، تسلح بالرب ويمم شطر بيت عنيا وسأل عن لعازر **(وقال أين وضعتموه؟ قالوا له يا سيد تعال وانظره).**[٩٤] لقد أخذ بيده الأبخرة والمباخر وذهب إلى مقبرة الدير دون أن يسمح لأحد أن يصحبه، فذهب ووقف على الضريح حيث دفن الراهب الطيبَ. هنا سجد وصلى ثم قام وقدم البخور وأطلق أمام الرب رائحة دموع قلبه العطرة.

لقد وقف على باب الضريح بهذا الإيمان الراسخ كما يتصرف رب المعجزات، ونادى قائلا: "يا فلان انهض باسم الرب". عندما سمع هذا القول جلس أمامه بوجه باسم، كما لو كان لم يعرف فساد المقبرة، فقال له حبيب: "يا بنى قل إذا ما كان السيد فلان من العرب قد عهد إليك بشيء إبان ذهابه إلى أرض الروم؟" أجاب: "نعم يا سيدى". "كم؟" سأل الأسقف. أجاب: "آلافا من المن". سأل حبيب: "أين هى؟" أجاب: "لقد دفنتها بين أبواب الدير تحت الكرسى الفلانى، فإذا أمرت فسأذهب بنفسى وأرد له ماله". فسأله مرة أخرى: "هل يعرف أحد غيرك فى هذا الدير مكان الدين؟" فأجاب: "لا يا سيدى". فقال له القديس: "إن ميعاد بعث الموتى لم يحن بعد، استرح الآن حتى يأمرك صوت الرب بالنهوض". وعلى الفور تحول وأصبح كما كان من قبل.

عندما علم القديس الحقيقة كلها ارتاح، فجاء وأمرهم بأن يحضروا له فأسًا، وتوجه إلى المكان الذى عينه له "الميت"، وأمرهم أن يقلبوا المقعد وأن يحفروا ويفتشوا تحته. ولما نفذوا أمره ظهر الذهب، فأعاده إلى صاحبه، وبذلك تمكن من إنقاذ الدير المقدس.

---

(٩٤) العهد الجديد: إنجيل يوحنا ١١: ٣٤.

عام ١٠٣٤ يونانية (٧٢٢-٧٢٣م) توفى عمر[٩٥] خليفة العرب بعد أن حكم مدة سنتين وأربعة أشهر، وجاء بعده يزيد[٩٦] الذى حكم أربع سنوات.

عام ١٠٣٥ يونانية (٧٢٣-٧٢٤م) أمر يزيد بإزالة الأصنام[٩٧] حيثما وجدت، سواء فى المعابد أو فى الكنائس أو فى المنازل، ولذا أرسل عمالا مكلفين بتحطيم الأصنام حيثما كانت.

عام ١٠٣٦ يونانية (٧٢٤-٧٢٥م) أصدر يزيد مرسومًا قاسيًا يأمر بقتل الكلاب البيضاء والحمام الأبيض والديوك البيضاء. لقد أبيدت الحيوانات الخرساء البريئة، بحيث أصبحت أسواق المدن والقرى معبأة برائحة جثثهم. كان مكتوبًا **(وباركها الله قائلا أثمرى واكثرى واملئى المياه فى البحار وليكثر الطير على الأرض)**،[٩٨] كان ذلك يؤدى بحياتهم على عكس ما كان يأمر به الخالق، وكانوا بوحشيتهم يريدون أن يهلكوا ما كان قد صنع فى الشدى الأموى وثبت بإرادة الخالق، وفقًا لقاعدة الخليفة وإصرارًا على تحدى أوامر الخالق، وأن يمنع العالم من أن يسير وفقا للقوانين التى فرضت عليه من كاتبه. لقد أمر يزيد بالقضاء على كل الرجال الشقر،[٩٩] ولكن هذا المشروع فشل بفضل من يخشون الرب، ولم يسفر

---

(٩٥) توفى عمر بن عبد العزيز فى رجب عام واحد ومائة من الهجرة، يوم الجمعة ٩ فبراير عام ٧٢٠م، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، بالغا من العمر تسعة وثلاثين عامًا وأشهرًا، وقيل كان عمره أربعين عامًا وأشهرًا، وكانت كنيته "أبا حفص". قيل إنه مات مسموما عند أكثر أهل التاريخ. (ابن الأثير: الكامل ج٤ ص١٦١)

(٩٦) هو يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ=٧٢٠-٧٢٤م)، كُنى بأبى خالد، كانوا يسمونه "خليع بنى أمية"، شغف بجاريتين إحداهما سلامة والأخرى حبابة. تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز لمدة أربع سنوات، وسار فى طريق غير طريقه. أصدر أمرًا بإزالة جميع الصور والتماثيل سواء صور البشر أو الحيوانات، من الكنائس والمبانى والحيطان، ومن الخشب والحجر، حتى الرسوم التى فى الكتب. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص١١٥)

(٩٧) كان هناك يهودى من اللاذقية فى سوريا قد تنبأ للاوون بأنه سيكون إمبراطورًا إذا أزال الصور والأصنام من المعابد، فجاء هذا اليهودى وتنبأ ليزيد بن عبد الملك بأنه سحكم لمدة ثلاثين عاما وقيل أربعين عاما فى هناء وسرور إذا أزال من كل مملكته الصور والأصنام التى يعبدها ويقدسها المسيحيون. فقام يزيد بتنفيذ طلبه آملاً فى الحكم، ولكنه توفى بعد أربع سنوات. (أسد رستم: الروم ج١ ص٣٠٥)

(٩٨) العهد القديم: التكوين ١: ٢٢.

(٩٩) المقصود هنا الرجال ذوو العيون الزرقاء.

عن موت أحد. كما أمر أيضا ألا تؤخذ شهادة سورى ضد عربـى، وحـدد فديـة العربى ١٢ ألف دينار والسورى ستة آلاف، من هنا جاءت القوانين الجائرة. لقـد أمر أيضا أن تقطع ذراع اللص بدلا من يده، ولهذا فقد احتقره العرب كما احتقروا تعاليمه.

عام ١٠٣٨ يونانية (٧٢٦-٧٢٧م) مات **يزيد**،[١٠٠] فى البداية كـان **أبـو رين**[١٠١] أميرًا له فى الجزيرة ثم عين مرداسًا[١٠٢] الذى غضب عليه هـو الآخـر فأعاد أبارين.

عام ١٠٣٩ يونانية (٧٢٧-٧٢٨م) حكم العرب **هشام بن عبـد الملـك**[١٠٣] مدة تسعة عشر عاما وأربعة أشهر.

عام ١٠٤٠ يونانية (٧٢٨-٧٢٩م) توفى القديس مار حبيب أسقف الرهـا، وخلفه **قسطنطين**.[١٠٤]

فى هذه الفترة ظهر البطريرك مار إلياس وشمعون أسقف حران وقسطنطين أسقف الرها **وتيودوت**[١٠٥] أسقف آمد.

---

(١٠٠) توفى يزيد لخمس بقين من شعبان عام ١٠٥هـ الموافق ليوم الثلاثاء ٢٥ من يناير عام ٧٢٤م ولـه أربعون سنة، وقيل خمس وثلاثون سنة وقيل غير ذلك. وكانت ولايته أربع سنوات وشهرًا وأيامًـا، ويقال إن مرضه كان السل. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٤ ص١٩٠)

(١٠١) أغلب الظن أن هذا الاسم خطأ، والمقصود هو "عمر بن هبيرة"؛ فإن يزيد بن عبد الملك لمـا ولـى الأمر استعمل على العراقيين وخراسان "عمر بن هبيرة الفزارى". (ابن العبرى: تـاريخ مختصـر الدول ص١١٥)

(١٠٢) أغلب الظن أن هذا الاسم خطأ، والمقصود هو "مروان بن محمد بن مروان". لما مـات يزيـد بـن الوليد بن عبد الملك سار مروان فى جنود الجزيرة إلى الشام لمحاربة إبراهيم بن الوليد بـن عبـد الملك، ولما دخل دمشق أتى بالغلامين "الحكم و عثمان" ابنى الوليد مقتولين فدفنهما، وبايعه النـاس. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ١١٩)

(١٠٣) عاشر الخلفاء الأمويين (١٠٥-١٢٥هـ=٧٢٤-٧٤٣م) وكان عمره لما ولى الخلافة أربعة وثلاثين عاما وأشهرًا. لما ولى هشام بن عبد الملك الخلافة اعتمد العصبية اليمنية؛ فعزل عمر بن هبيرة عن العراق ثم ولى مكانه خالد بن عبد الله القسرى، وكان يمنيا. (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشـر ج١ ص٢٠٤)

(١٠٤) رسم قسطنطين أسقفا للرها عام ٧٢٩ وتوفى عام ٧٥٤م. فى عهده حدث فيضان نهر ديصان عـام ٧٤٣م. DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P. 254

(١٠٥) يعتبر تيودوت من أشهر القديسين اليعاقبة، يحتفل بذكراه فى يوم السـادس عشـر مـن أغسـطس DUVAL:HIST. D'EDESSE P. 254.

عن تيودوت أسقف آمد

هو القديس تيودوت أسقف آمد الذى نشأ فى عزلة، وقد وهب نفسه لأعمال الرهبنة المتواضعة التى كان يحبها. كان رجلا مسالما لطيف المعشر صبورا يتحلى بكل الفضائل الإلهية، لقد تنازل عن أسقفية المدينة، فقد استقال من منصبه وترك المدينة وذهب إلى منطقة دارا بين حدود دارا وآمد، وسلك نهج مارتوما من تلا؛ فبنى لنفسه هناك عمودا وصعد عليه، كما بنى أيضا فى نفس هذا المكان ديرًا كبيرًا، هو الموجود حاليا بجوار بلدة تسمى **قالوق**[١٠٦] حيث أنهى حياته، وقد تولى القديس مار قزما الأسقفية خلفا له.

عن القديس مار قزما أسقف آمد

كان القديس مار قزما أيضا راهبًا عظيمًا متحليًا بكل الفضائل، لقد أتى بأمور عجيبة مثل إليا ومثل الرسل الأوائل. ولكن لأنه كان متحمسا وكان يعدل فى المعاملة بين الكبار والصغار، لم يكن محبوبا من عظماء المدينة، حيث كان دائم اللوم لهم صراحة دون مواربة وبألفاظ قاسية على ما يرتكبون من أعمال منافية للآداب، فكانوا يتحاشون أن يتفوه ليلعنهم، لأنه كان رجلا صريحا وصارما، ولم يتجرأوا على عصيانه علنا، ولذا كانوا يحرّضون سكان البلاد على عدم استقباله عند قدومه لزيارتهم، ليكون ذلك سببا لطرده من بلدهم. ولكل هذا لم يستفد به أحد، كما لم يستفد به حتى القلة القليلة التى اتبعت تعليماته.

---

(١٠٦) قرية قالوق من أعمال الصور، كانت آهلة بالسريان من أواسط القرن السابع عشر. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص ٥١٨)

ووفقا للخطة التى دبرها القدماء فقد قام بزيارة للمنطقة دون أن يعلم بـالفخ الذى نصبوه له، فوصل إلى بلدة تسمى تل دكوم، كان أهلها محتقـرين. وكالعـادة عندما دق الجرس تجمع القوم، وأظهروا عدم الرغبة فى استقباله، واعتبروه غيـر كفء لأن يتحدث إليه أحد، وأرسلوا إليه امرأة عجوزًا لتقول له: "اذهب باحترامك واترك الطريق، وإلا فلن تخرج من هنا إلا بعد إساءة معاملتك". هـؤلاء الرجـال المنحرفون **(لا يعلمون ولا يفهمون، فى الظلمة يتمشون، تتزعـزع كـل أسـس الأرض)**،[١٠٧] وليكن كلاما مخلصا إلى تلاميذه لايكون هباء: **(ومن لا يقـبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضـوا غبـار أرجلكم. الحق أقول لكم ستكون الأرض سدوم وعمورة يوم الـدين حالـة أكثـر احتمالا مما لتلك المدينة)**.[١٠٨] وأيضا: **(وكل من لا يقبلكم فـاخرجوا مـن تلـك المدينة وانفضوا الغبار أيضا عن أرجلكم شـهادة علـيهم)**،[١٠٩] **(وأيـة مدينـة دخلتموها ولم يقبلوكم فأخرجوا إلى شوارعها وقولوا)**.[١١٠]

لقد استفاد القديس من مكرهم بواسطة العجوز، فأمر تلميذه أن يغيـر مـن اتجاه العربة التى يركبها، وأن يتجه إلى الجانب الجنوبى للبلدة. إن القول النبـوى: **(الرجل البليد لايعرف والجاهل لايفهم هذا)**[١١١] ينطبق على هـؤلاء البؤسـاء. إن الذنب الأول لم يكفهم ولكنهم ذهبوا وصعدوا إلى باب كنيستهم الذى كـان مرتفعـا وذلك لكى يستهزئوا من القديس، وانتظروا رد فعله.

ولكن هذا الشجاع عندما رأى مدى احتقارهم لم يضطرب، بل اسـتمر فـى طريقه حتى تجاوزه محاطا بالإيمان والثقة بربه، وعندما وصل إلى الحدود الشرقية لمدينتهم أمر بوقف المركبة وخلع نعليه ورفعهما تجاه البلدة ونفضهما فوقها (البلدة)

---

(١٠٧) العهد القديم: المزامير ٨٢: ٥.
(١٠٨) العهد الجديد: إنجيل متى ١٠: ١٤/١٥.
(١٠٩) العهد الجديد: إنجيل لوقا ٩: ٥.
(١١٠) العهد الجديد: إنجيل لوقا ١٠: ١٠.
(١١١) العهد القديم: المزامير ٩٢: ٦.

قائلا: "مادمت لم تستقبلى أسقفك فانتظرى وثقى أن غضب الله ينتظرك قريبا ودون تأخر". ثم استأنف طريقه سريعًا مارًا بالبلدة التى تقع فى الشرق وتدعى **طرمل الكبيرة**[١١٢] وكان قادما من الغرب.

كان ذلك وقت حصاد الشعير، ولم يكن هناك أى أثر لسحب تكدر صفو السماء فى هذا اليوم. ولكن حدث أن نزل فجأة ودون تأخر على المدينة البائسة الغضب الإلهى، الذى كان قد أراد أن يكون أداة ظلم فى أيدى عظماء البلدة، حتى يصبح مثار ندم وخوف لكل المنطقة، وكل الذين يتجرأون على احتقار قديسهم، وليكون تحذيرًا للأجيال القادمة.

دخل طرمل التى أظلتها السحب، وبينما كان أهلها مشغولين هنا وهناك إذا بريح عاصف تهب على المدينة تكاد تزيل الجبال، ثم سقط برد أشبه بالحجارة، أصاب كرومهم وتينهم وحطم الأشجار التى على الحدود، وقضى على كل الأعشاب الخضراء التى فى حقولهم، وحوّل محاصيلهم إلى رماد، لدرجة أنه أزال كل أثر لها وبعثرها، حتى إنهم لم يتمكنوا من جمعها، وفقدوا كل أمل فى الحياة على وجه الأرض.

عندما رأى المحتقرون ما حدث لهم (**لم يزُوغوا عن شهوتهم. طعامُهم بعد فى أفواههم فصعد عليهم غضب الله وقتل من أسمنهم، وصرع مختارى إسرائيل)**[١١٣] أدركوا أن الغضب يثقل عليهم وتنبهوا كما لو كانوا فى نوم عميق، كالثمل الذى غلب عليه النوم. لقد تذكروا ما قد صنعوا بأسقفهم وعرفوا أن هذه الكارثة حلت بهم لأنهم احتقروه، ولقد ازداد يقينهم بهذه الفكرة عندما وجدوا أن هذه الكارثة لم تتجاوز حدود بلدتهم، ولهذا خرجوا جميعًا كبارًا وصغارًا حفاة خاضعين باكين بدموع الحسرة ومجللين بالخجل، وذهبوا إلى حيث يوجد الأسقف. عندما

---

(١١٢) كان هناك دير موجودًا فى مكان يسمى طرمل، يقع على مقربة من "دارا"، ولكن هذا المكان يبدو أنه كان بعيدًا جدًا عن آمد. ASSEMANI: BIBL. ORIEN. T.XII P. 61

(١١٣) العهد القديم: المزامير ٧٨: ٣٠/٣١.

رآهم القديس فعل مثل اليشع أمام هؤلاء الأطفال الذين قد فرقتهم الدب، فقد حزن حزنا شديدا، خاصة وأن الغضب الإلهى قد أتى على كل ما يملكون. لقد وقف فى جانبهم وصلى من أجلهم.

بهذه الطريقة نشر الرب هيبته ورهبته على المنطقة كلها، وأيضا على عظماء المدينة، حتى إنه عندما ترك القديس المدينة - حيث كان يقيم - جاء سكان المدن الأخرى جميعا كبيرهم وصغيرهم بكل خشوع لاستقباله. بعد القديس مار إليا بطريرك أنطاكية خلفه القديس أثناسيوس.

عام ١٠٤٢ يونانية (٧٣٠-٧٣١م) عبر مسلمة **باب الأتراك**.[١١٤] ولأن الهون أى **الأتراك**[١١٥] كانوا قد خرجوا من بلادهم واقترفوا جرما فى أرمينيا وفى كل المنطقة الشمالية، لذلك خرج إليهم مسلمة مع قوة كبيرة العدد. كانوا يخرجون كل عام ويقترفون أفظع الجرائم، لذلك تقدم نحوهم فتصدوا له ولكنه شن عليهم حربا وأباد عددا كبيرا. وهنا أصابهم الخوف والفزع وسجدوا تحت أقدامه يطلبون السلام، فمنحهم إياه متوهما أنهم سيحافظون على وعدهم له.

فى نفس هذا العام هدم مسلمة باب الأتراك الذى يقع فى مدخل منطقة الأتراك. ولأنهم كانوا فى الداخل فقد أعلنوا الحرب عليه، فخاف أن يغامر فى المنطقة المجهولة التى يملكها الأتراك خشية أن يتجمعوا ضده ويبيدوه من على وجه الأرض. إنهم شعب ليس لهم رب مثل غيرهم من المجوس، ولذلك أمر مسلمة بهدم هذا الباب التركى الذى كان قد بنى على يد الإسكندر المقدونى، فقاموا فى البداية بحل وإخراج كل الجمال ثم الحمير ثم العمال، وأخيرا خرجوا هم ناثرين خلفهم الأشواك فى كل الممرات.

---

(١١٤) هو باب الأبواب، أى الدربند شروان أو باب النار. وباب الأبواب على بحر الخزر، وهى مدينة أكبر من أردبيل، نحو ميلين فى ميلين، وهى محكمة البناء موثقة الأساس من بناء أنو شروان، وإلى جانبه جبل عظيم يعرف "بالذنب"، ويطلق عليه أهل أرمينا " باب الزور". (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج١ ص ٣٠٣)

(١١٥) كلمة الأتراك هنا خطأ، والصحيح "الخزر". لقد حدث خلط فى الأحداث بالنسبة لديونسيوس، وقد علق على هذا "لوبو" فى كتابه LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII P.165.

عام ١٠٤٣ يونانية (٧٣١-٧٣٢م) جمع مسلمة حشدا كبيرا مــن الصــناع والحرفيين والعمال، وأعدوا كل المعدات اللازمة للبناء، وأعادوا بناء باب الأتــراك الذى كان قد هدم فى العام السابق.

بعد أن أعاد بناءه عقد مع الأتراك معاهدة مؤيدة بقســم، تــنص علــى: "أن لايعبر أحد حدود صديقه ثم يخرج". ولكن هؤلاء الأتراك الذين كــانوا لايعرفــون الرب ولايفهمون أنهم عباده ولايقنعون بوجود إله فى السماء، لم يوفــوا بوعــدهم، كانوا حمقى تجاه الرب، واحتقروا عهده فعبروا الحدود واقترفوا كثيرًا من الجرائم فى المنطقة الخارجة عن حدودهم.

فأرسل هشام قائده الجراح(١١٦) لملاقاتهم مع عدد غفير من الفرسان، فــدخل المدينة وقت الحصــاد، وأثناء دخوله اقترف كثيرا من الجرائم فى تلك المنطقــة. ولأنه كان رجلا لا أخلاق له، بالإضافة إلى شعوره بالقوة، لم يكن يتحرى العــدل فى حكمه، فأفسد مزارع الفلاحين. وفى طريقه سبب كثيرًا من الأضرار للمساكين، فجاء إليه الأهالى وشكوا إليه، ولكن لم يوجد أحد راضيا ممن كان معــه، لأنهــم قاسوا مثل الباقين من دخوله، وكانوا يتمنون أن ينال جزاءه. وعندما دخل منطقــة الأتراك وشنَّ حربا عليهم قاموا بقتل عدد كبير من جنوده، وأخــذوا كثيــرًا مــن الأسرى إلى بلادهم. بعد أن حدث ذلك طلب من هشام أن يرسل له نجــدة، فــدخل مسلمة مع قوة عظيمة ليلحــق به، ولكن قبل أن تدركه كان الجراح وكل قـــواته قد **أبيدت بحد السيف**،(١١٧) لأن الأتراك قد أحاطوا بهم من كل جانب فـــى أعـــداد غفيرة، وقضوا عليهم دون أن يفلت أحد. لقد رد الرب إلى الشرير جـــزاء الجـــرم الذى ارتكبه والذنوب التى اقترفها فى طريقه هو وجيشه تجاه الفلاحين، كــل مــا اقترفوه أثناء زحفهم تراكم مرة واحدة على رأسهم.

---

(١١٦) هو عبد الله بن الجراح.

(١١٧) تلك المعركة وقعت على مقربة من أردبيل فى بلدة أذربيجان، وقد قتل فيها الجراح.
LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII P. 168.

عندما دخل مسلمة اضطرب الأتراك أمامه وتملكهم الخوف، فقد كانوا يخشونه بمجرد السمع به من قبل أن يروه. لقد أعلن عليهم الحرب وسكب دماءهم على سطح الأرض كالمياه، وأشبع طيور السماء وحيوانات الأرض من لحومهم. وبعد أن هزمهم نصب **مروان بن محمد**[118] على أرمينيا، وهو نفسه الذى حكم العرب فى فترة بعد الحرب ثم انسحب تاركا خلفه قوة عظيمة، وقد سبب هذا الأخير خسائر أكثر ممن سبقوه.

عام ١٠٢٩ يونانية (٧١٧-٧١٨م) وقعت زلزلة عنيفة ومخيفة فى أماكن كثيرة فى المعابد والكنائس، وفى أبنية عظيمة، وخصوصا بيت العماد و**كنيسة الرها القديمة**.[119] لقد تهدمت منازل قديمة وعريقة على سكانها، بينما تلك التى صمدت ولم تندثر فى تلك الهزة احتفظت بأطلالها، وذلك حتى يستشعر الأهالى الخوف من الرب كلما نظروا إلى ما تبقى من آثار الهزة الأرضية.

فى تلك الفترة قام هشام بتوسيع **الزينونة**[120] حيث بنى على روافده مدنًا وقصورًا حصينةً وكثيرًا من القرى، وقد زينها بأنواع مختلفة من النباتات. كما وسع أيضا **نهر بالش**،[121] حيث بنى قصرًا فخمًا وزرع نباتاتٍ من كل نوع، كما وسَّع أيضا نهر **عانة**،[122] حيث بنى قلاعًا وحدائقَ.

---

(١١٨) مروان بن محمد هو آخر خلفاء بنى أمية، يبدو أن الذى حدث غير الحقيقة، فإن مسلمة – لأنه لم يتمكن من مقاومة الأتراك – قد عزله الخليفة داخل محلة مروان عام ٧٣١م، فقد تمكن مروان من مواجهة أمراء القوقاز وصد الخزر الذين عقد معهم هدنة مؤقتة، ذلك هو رأى "لوبو". قتل مروان فى صعيد مصر عام ٧٥٠م وصارت الخلافة للعباسيين.

LEBEAU: HISTORE DU BAS EMPIRE TXII P. 169.

(١١٩) حتى عام ٢٠١م لم تكن توجد لمسيحيى الرها إلا كنيسة واحدة، ولذلك سميت كنيسة الرها القديمة. لقد تهدمت فى ذلك الفيضان وكذلك فيضان عام ٣٠٣م، وقد أعيد بناؤها عام ٣١٣م فى عهد "قونا" أسقف الرها. وفى عام ٥٢٥م هدمت مرة أخرى نتيجة للفيضان، فأعاد "جستنيان" بناءها بطريقة رائعة وفخمة، حتى أصبحت من روائع العالم. وهدمت مرة أخرى عام ٦٧٩م فى الثالث من أبريل، وكذلك عام ٧١٨م. DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P.15- 245.

(١٢٠) موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك فى بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات.(ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٣ ص١٦٣)

(١٢١) بالس أو بالش بلدة بأرض الشام بين حلب والرقة، وهى برباليوس القديمة. تسمى فى وقتنا الحالى "مسكنة" وهى أول مدن الشام من جهة العراق. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص٥٠٥)

(١٢٢) عانة بلد مشهور غربى الفرات، جنوب شرقى دير الزور، من بلاد العراق، وبها قلعة حصينة. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص٥١٧)

من جانبه وسع شقيقه مسلمة بالش، وبنى بجوار النهر الذى وسعه قصورًا وقرى ومنازل زينها بأشكال مختلفة من الزخارف.

عام ١٠٤٠ يونانية (٧٢٨-٧٢٩م) استولى مسلمة على قيصرية الجديدة، حيث أسر سكان تلك المنطقة وباعهم فى سوق العبيد كالحيوانات، فيما عدا اليهود الذين سلموه المدينة، فقد انضموا سرًا إلى جانب مسلمة، وبعد أن أخذوا منه وعدًا مهدوا له فدخل المدينة بالخديعة. لقد أسرهم ولكنه لم يبعهم قط، فقد اصطحبهم معه.

عام ١٠٤٥ يونانية (٧٣٣-٧٣٤م) دخل **سليمان**(١٢٣) مملكة الروم، واستولى على **بلوزيوم**،(١٢٤) وساق كل أهلها إلى الأسر. فى ذلك الوقت ثار أرتباس صهر **الإمبراطور قسطنطين**(١٢٥) إمبراطور الرومان، وبعد أن أصبح سيد مدينة القسطنطينية فقد تمسك بالتاج الملكى. وبينما سار قسطنطين مع جيشه لصد أعدائه ترك فى المدينة **أرتباس**(١٢٦) الطاغية، ليحميها مع حامية كبيرة من بلوزيوم، فتسلم المدينة ووطد نفوذه، ولكنه نسى العهد الذى أبرمه مع **لاوون**،(١٢٧) ورأى أن يحتل المدينة ويصبح بالقوة سيد الإمبراطورية، وبينما كان يحتل هو المدينة، والقوة الملكية مع قسطنطين تعسكر فى الخارج، كانت قوات البلوزيوم تحارب فى الداخل ضد الإمبراطور.

---

(١٢٣) فى عام ٧٣١م قام معاوية ويرافقه سليمان- ابنا الخليفة هشام - وظهرا فى بلوزيوم. ولكن "تيوفان" يقول إن الذى قام بهذه الرحلة هو معاوية بمفرده.
LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P.169.

(١٢٤) بلوزيوم هى بلدة الفرما أو مفتاح مصر الشرقى. (إبراهيم العدوى: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص٤٩)

(١٢٥) يقال هنا إن قسطنطين إمبراطور الرومان. ولكن الإمبراطور الرومانى فى تلك الفترة كان "لاوون الثالث" (٧١٧-٧٤٠م). كان لاوون هذا له ابن يدعى "قسطنطين"، ولكنه فى تلك الفترة لم يكن يبلغ إلا الثانية عشرة من عمره. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T.XII.P.191

(١٢٦) كان أرتباس يجاهد من أجل الوصول إلى الإمبراطورية ويصبح حاكما، فقد نجح فى استمالة الوالى الذى كان الإمبراطور قد أنابه فى إدارة شئون الإمبراطورية فى غيابه.
LEBEAU: HISTORE DU BAS EMPIRE T XII P. 191.

(١٢٧) هنا رجع ديونسيوس وذكر أن لاوون هو الإمبراطور.

عندما دخل سليمان أرسل له لاوون قائلا: "لاتقترب منى فلن تفلت بسلام من تحت يدى، ولكن اذهب إلى بلوزيوم فخذها أو خربها، افعل بها كل ما تريد لأنك هناك لن تجد أحدا يقاومك". وهكذا ذهب إليها وسلبها ونهبها وفقا لإرادته، حاملا من الغنائم ما لم يحمله أحد غيره.

عندما أمسك لاوون بالطاغية[١٢٨] فقأ عينيه وأوقف رواتب الجند العسكريين الذين تعاونوا معه.

عام ١٠٤٦ يونانية (٧٣٤-٧٣٥م) وصل مالك بن شبيب أمير مليتين، وعبد الله البطل، وحاصرا مدينة سينادا، وبينما كانا يعسكران فى مزارعها تجمعت ضدهما قوة عظيمة العدد تريد الانتقام مما ارتكبه العرب فى العام الماضى فى بلوزيوم. فى ذلك الوقت كان العرب - الذين كان يبلغ عددهم نحو خمسين ألفًا - معسكرين فى مخيمهم دون حذر، وإذ بالرومان يحاصرونهم فجأة، وينقضون عليهم من كل جانب، ويقضون عليهم جميعا بحد السيف. ولقد تمكن من الهرب منهم عدد قليل جدًا، وذلك بفضل بزوغ النهار، فكانوا يهربون مدافعين عن أنفسهم بالسيف والرمح والقوس، بعد أن أمضوا الليل سيرا على الأقدام. ولم يتمكن من الهرب من بين الآلاف الخمسين الذين جاءوا إلا نحو خمسة آلاف فقط. ولقد لقى القواد أنفسهم حتفهم بالحراب فى تلك المعركة. ومما هو جدير بالذكر أنه لم ينزل بالعرب أسوأ مما نزل بهم فى تلك المعركة.[١٢٩]

فى تلك الفترة ظهر فى المنطقة الغربية داهية، خدع وأغوى عددًا كبيرًا من اليهود وأضلهم. إن الشيطان الذى كان عامل هدم وغواية منذ الأزل كان يقوم دائما بخداع الرجال، ليس بعضهم ولكن جميعهم على حد سواء، وذلك على اختلاف

---

(١٢٨) يقولون فى بعض المراجع إن الذى قام بذلك هو قسطنطين، فهو لم يكتف بذلك فقط، بل أحدث مذبحة فى المدينة، وقتل الجند وكل من كان فى يوم ما فى جانب أرتباس، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ونهب منازلهم وخربها. ويقولون أيضا إنه جعل أرتباس وأولاده وأصدقاءه يركب كل واحد منهم حمارًا ووجهه ناحية الذيل، ويمسك بالذيل فى يده ويلف المدينة.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P. 197.

(١٢٩) وقعت تلك المعركة عند "أكرينوس". THEOPHANES: AD. ANN. 22 LEONIS

جنسياتهم وألسنتهم، لايميز بين فريق وآخر، مستغلاِ قدرته على إغـراء نصـيره بارتكاب المعاصى والآثام، موهمًا إياه أن الخير كل الخير له فى اتباعها. لقد اشتُق اسمه "شيطان" من صميم الدور الذى يؤديه، ففى الواقع هذا الاسـم معنـاه خصـم ومعارض وعدو، حيث كان لايتغاضى عن شىء، ولا يكف عـن إيقـاع العـداوة والبغضاء بين الشعوب على مر الأجيال، ولا تخونه الشجاعة، ولا يتخلى أبدا عـن شروره القديمة التى كان قد ابتدعها للقضاء على الجنس البشرى.

فى ذلك الوقت ظهر فى أرض الجزيرة رجل من بلـدة فلقـت فـى إقلـيم ماردين، ومر بالمنطقة الغربية بحذاء **السامراء**.[١٣٠] هذا الرجل وجد مـأوًى فـى منزل أحد عظماء اليهود، وما إن استقر فيه حتى أغوى ابنة هذا اليهودى، فعنـدما علم اليهود بهذا اقتادوه إلى الموت. ولكن لأنه كان مسـيحيًا فقـد حكمـوا عليـه بالعذاب، إلا أنه وهو فى غمرة التعذيب سنحت له فرصة للهرب من بين أيديهم.

منذ ذلك الوقت فكر فى إنزال كل أنواع العذاب بهـم، فـذهب إلـى بـلاد الآراميين التى كانت غارقة فى بحار من السحر، وهناك وهب نفسه لسلطان السحر والشعوذة، حيث برع فى فنون الضرر والأذى وتفنن فيها، ثم نزح من هذا المكان وصعد إلى السامراء، وقال لليهود: "هأنذا موسى الذى أخرج بنفسـه منـذ القـدم إسرائيل من مصر، والذى لازمهم فى البحر والصحراء لمدة أربعين عامـا. أنـا مرسل مرة أخرى لأخلص إسرائيل وأقودكم إلى الصحراء، وآخـذ بأيـديكم مـرة أخرى إلى أرض الميعاد الموروثة التى ستملكونها كما كنتم من قبل. وأيضا مثلمـا حـدث قديما سيغـلب الرب كل الأمم التى تسكنها لكى يتقلد آباؤكم مناصبهم، كما سيجعلهم يختفون جميعا من أمامكم لكى تدخلوها وتملكوها كسابق عهـدكم، وكـل الإسرائيليين المشتتين سيجتمعون وفقا لما هو مكتوب". **(يقول السيد الـرب جـامع منفيِّى إسرائيل: أجمع بعد إليه إلى مجموعيه)**.[١٣١]

---

(١٣٠) مدينة كانت بين بغداد وتكريت شرقى دجلة. (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٣ ص١٧٣)
(١٣١) العهد القديم: إشعياء ٥٦: ٨.

ولما كانوا مرتبطين بلغة واحدة فقد كان سـحره يثير انتباههم، وكانوا منساقين خلفه، كان تارة يجعلهم يدورون فى الجبال ويقذف بهم من قمم منحدرة ويقتلهم، وتارة يحبسهم فى كهوف ومغارات حيث يلقون حتفهم. لقد جعلهم يقاسون آلامًا كثيرةً، فقتل وأهلك عددًا كبيرًا منهم. وقد استولى على قدر كبير من الذهب عن طريق تهديدهم بالسحر حين قادهم إلى الصحراء. وقد جعلهم يقاسون أشد أنواع العذاب يوميا، ولما فاض بهم بدأ يدبر لهم الحيل، فاستولى على ذهبهم وحليِّهم وعبيدهم وأخذها منهم وهرب إلى بيته.

ثاب اليهود إلى رشدهم عندما تبينوا الأذى الذى أذاقهم إياه، فطاردوه فى مشارق الأرض ومغاربها يسألون وينقبون عنه، وما إن وقعت عليه أيديهم حتى اقتادوه إلى هشام أمير المؤمنين فى بابل، حيث أنزلوا به أشد أنواع العذاب والآلام، وفى النهاية صلبوه على شجرة. وهكذا لفظ أنفاسه بعد أن منحه الرب المكافأة التى يستحقها.

عام ١٠٤٧ يونانية (٧٣٥-٧٣٦م) ثار عتيق وضم قطاع **الحاروريت**،[١٣٢] وعندما أقدم على هذا العمل تصرف كعادة العرب، حيث يتركون زوجاتهم وكل ما يملكون، فذهب مع عشرين من رفاقه إلى ناحية **سنجار**.[١٣٣] عندما علم هشام بذلك أصدر أمرا إلى اثنين من قادة فرسان سنجار هما "قاليو" و"زهير" أن يخرجا إليه ويشنا الحرب عليه. عندما تلقى القائدان الأمر حشدا قوة عظيمة وخرجا لمطاردته، وعندما أدركاه فى صحراء سنجار طلب منهما الانتظار إلى الصباح لشن الحرب.

---

(١٣٢) "الحاروريت" هذه الكلمة مأخوذة من السريانية بمعنى "الحرية"، وقد أطلقها ديونسيوس على العرب عندما تركوا زوجاتهم و ثرواتهم وحاربوا من أجل الحرية. (تاريخ ميخائيل السريانى الكبير ج٢ ص٣٤٧)

(١٣٣) مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهى فى لحف جبل عال. ويقولون: "إن سفينة نوح عليه السلام لما مرت به نطحته، فقال نوح: هذا سن جبل جار علينا. فسميت سنجار". (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٣ ص٢٦٢)

ونظرا لأنهم كانوا كثيرى العدد والمتمردون فئة قليلة فقد استهانوا بهم، بالإضافة إلى أن الظمأ اشتد عليهم وذلك لندرة المياه فى الصحراء، فضلا عن قرب انبلاج الصباح. إن عتيقًا هذا الذى كانوا ينظرون إليه دائما بازدراء كان رجلا يمتاز بالدهاء والجرأة هو وأعوانه، فقد عرض على خصومه ذلك الاقتراح من قبيل المكر والخديعة، إذ ما لبث أن حل ظلام الليل، وخلد أعداؤه إلى النوم بعد أن أكلوا وشربوا، فانقض عليهم عتيق ورفاقه واستولوا على عدتهم وعتادهم وأغمدوا فيهم سيوفهم. لقد رد الرب سيوفهم إلى نحورهم، فأصابهم الاضطراب وأخذوا يقتلون بعضهم بعضا. وقد كان أعوان عتيق يمرون بينهم مثل نحاتى الحجر ومثل الذين يقودون المحراث، ولم ينجُ من الموت إلا عدد قليل؛ كانوا قد أسرعوا فامتطوا صهوات جيادهم وولّوا الأدبار. لقد هلك الجميع بحدِّ السيف، وكان قاليو وزهير قائدا الجند من بين القتلى.

عام ١٠٥٢ يونانية (٧٤٠-٧٤١م) مات لاوون إمبراطور الرومان، بعد أن حكم مدة خمسة وعشرين عاما،[١٣٤] فخلفه ابنه قسطنطين الذى حكم لمدة خمسة وثلاثين عاما. فى تلك الفترة بنى الخليفة هشام جسرًا على الفرات أمام الرقة.[١٣٥]

عام ١٠٥٣ يونانية (٧٤١-٧٤٢م) حدثت فى يوم الأحد هزة أرضية عنيفة وشديدة، طوال ليلة الأحد كنا نسمع الصوت الصادر منها كما لو كان صوت خوار الثور، عندما جاء ميعاد القداس هرع الأهالى ودخلوا كنيسة مرق[١٣٦] التى تهدمت من شدة وقوة الزلزال الذى حدث على حين غفلة، ولقى كل الأهالى الذين تجمعوا

(١٣٤) هو لاوون الثالث، يقول بعض الكُتّاب إن لاوون قد توفى إثر استسقاء، بينما غيرهم يقولون على إثر دوسنتريا يوم ١٨ يونيو عام ٧٤١م، بعد أن حكم لمدة أربعة وعشرين عامًا وشهرين و٢٥ يومًا. ودفن فى كنيسة القديس المقدس. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P. 180.

(١٣٥) الرقة هى قالونيقس القديمة، وهى مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام. معدودة فى بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقى، ويقال لها الرقة البيضاء. وكانت بالجانب الغربى مدينة أخرى تعرف "برقة واسط" كان بها قصران لهشام بن عبد الملك. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص٥١٦)

(١٣٦) مرق بلدة واقعة بين الموصل ونصيبين. (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٥ ص١٠٩)

فيها مصرعهم، ولم يخرج أحد منها حيًا فيما عدا القس الذى كان فى نفس الوقت يقدم القربان. إن الهضبة التى كانت تعلوها كنيسة مرق ظلت تسمع زمجرة وجلبة استمرت لمدة ثلاثين يوما.

عام ١٠٥٤ يونانية (٧٤٢-٧٤٣م) تحطم جسر دجلة العظيم بجوار آمد. كان الشتاء قارسًا، وسقط من السماء ثلج كثيف، وتراكم فوق الأرض لعدة أيام، حتى شارف كل إنسان على نهايته، ولاسيما الحيوانات والطيور التى كانت قد فنيت بالفعل. ثم هب هواء بارد وقارس، وهاجت رياح شديدة، وهطلت أمطار غزيرة لفترة طويلة، وذابت الثلوج فأصبحت الأرض مغمورة بالمياه نتيجة لسقوط الأمطار الغزيرة فضلا عن ذوبان الثلوج، كانت هناك فيضانات فى كل الأنهار وخاصة فى دجلة.

لقد حدثت فى هذا النهر تصدعات وفيضانات عظيمة، أبادت أعدادا غفيرة من البشر، وخربت أماكن لاتحصى. لقد كان هذا الفيضان قويًا وشديدًا جدًا، فنقل كثيرًا من الأخشاب من أماكنها، حتى إن أشجارًا كثيرةً اعترضت مجرى النهر بجانب آمد عند الجسر الكبير، وتكدست بداخله الأخشاب الواحدة فوق الأخرى حتى وصل امتدادها إلى خمسة أميال أو ستة. ونتيجة لقوة قطع الأخشاب وصلابتها وشدة هذا الفيضان تحطم ذلك الجسر، وانقلب بسبب تدفق المياه. ومنذ ذلك الحين لم يُعَد بناؤه، لأنه لم يكد هشام يجمع العمال والفنيين ويعِدُّ كل ما يلزم لإعادة بنائه بهمة وحماس حتى وافته المنية، فرحل عن الدنيا وترك العمل دون أن يتمه.

فى نفس الوقت غرقت أيضا الرها، فقد حدث فيضان كبير وعظيم فى النهر الذى يمر بالمدينة ويسمى **ديصان**،[١٣٧] وأحدث بها أضرارًا بالغة، ودخلت مياه

---

(١٣٧) لقد تسبب هذا النهر فى خرائب كثيرة بسبب فيضاناته، وقد قام جستنيان بأعمال كثيرة من أجل منع تلك الفيضانات، ولكن كانت كلها دون جدوى. يمر هذا النهر من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، ثم يسير عموديا تقريبا فى اتجاه الجنوب حتى "جلاب"، ويمر "بحران" ويصب فى "البالبخ". معنى كلمة "ديصان" بالسريانية "القافز"، وهى من أصل يونانى، ويرجع اسمه إلى أصل أعماله. إن تاريخ الرها يحسب حوالى أربعة فيضانات فى عهد "جستنيان" أعوام ٢٠١ و٣٠٣ و٤١٣ و٥٢٥م. ولكن كما ذكرنا قام جستنيان بمحاولات عديدة للحد من تلك الفيضانات. ثم نجد أن ديونسيوس يذكر فى تأريخه تاريخا جديدًا لفيضان جديد لنهر ديصان فى عام ٧٤٣م.

غزيرة حيث تهدمت مصارف المياه الموجودة بجانب السور الشرقي، وتدفقت المياه بشدة وارتفعت وفاضت على أسواق المدينة، وهدمت كل الحانات، كما أغرقت منازل كثيرة. ولكن لأن ذلك قد حدث فى وضح النهار لم يهلك أحد فى الفيضان؛ فقد غادر الأهالى مساكنهم ولاذوا بالفرار. إن كسر القناة قد أحدث خسائر عظيمة فى كل سهل الرها وحران.

عام ١٠٥٥ يونانية (٧٤٣-٧٤٤م) توفى **هشام**[١٣٨] خليفة العرب، وجاء بعده **الوليد**[١٣٩] لمدة ثمانية أشهر. ولقد قام الطاغية يزيد والشقيقان عباس وإبراهيم وشقيقهما عبد العزيز أبناء **الحجاج**،[١٤٠] فثاروا عليه وقتلوه بحد السيف عند مدينة **قورى**.[١٤١]

حكم **يزيد**[١٤٢] بعده لمدة ستة أشهر، ولكن المنطقة لم تدن له بالطاعة، ومات يزيد دون أن يعيّن ولاة على الجزيرة، فخلفه شقيقه **إبراهيم**.[١٤٣]

DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P. 7/ 9/ 11.

(١٣٨) توفى هشام بن عبد الملك فى ربيع الأول عام ١٢٥ هـ الموافق يوم الأربعاء ٦ فبراير عام ٧٤٣م، بعد أن حكم لمدة ١٩ عامًا و٧ أشهر. (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٦)

(١٣٩) هو الوليد الثانى، أو الوليد بن يزيد. تولى الحكم بعد هشام فأساء معاملة عشيرته، ونهب بيوتهم، وعين عباس بن الوليد حاكما، وهو الذى حاول اغتصاب الملك لما شاهده من ثراء الدولة، فاتهم الوليد بالعديد من المعايب بقصد جذب الزعماء إليه. أما الملك فقد كان واثقا منه وثوقه من نفسه. وفيما كان الوليد خارجا حاول عباس أن يتسلم السلطة فلم يرض المسلمون لأنه كان ابن جارية، فى حين كانوا يكرهون الوليد لمعاقرته الخمر وارتكابه مختلف المنكرات، لذا بايعوا أخاه فى البرية، وباغتوه وقبضوا عليه وقطعوا رأسه ووضعوه على رأس رمح وأدخلوه إلى دمشق وقد وضع إلى جانبه إبريق خمر. وكان ذلك يوم الخميس ١٦ أبريل عام ٧٤٤م. حكم لمدة عام واحد، والبعض يقول لمدة ١٥ شهرا. (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٦)

(١٤٠) المقصود هو عبد العزيز بن الحجاج

(١٤١) هذه الجملة تبدو محرفة. إن الوليد الثانى توفى - وذلك وفقا للمصادر العربية - فى مكان يسمى "قصر نعمان بن بشر. ASSEMANI: BIBL.OR., III,I,P.178

(١٤٢) المقصود هو يزيد الثالث. بعد خمسة أشهر فى الحكم أصابه ورم حاد فى رأسه، وتوفى وخلفه شقيقه"إبراهيم". (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٦)

(١٤٣) هو إبراهيم بن الوليد. لما مات يزيد بن الوليد قام بالأمر أخوه "إبراهيم" بعده. غير أنه لم يتم له الأمر، حيث مكث فى الحكم سبعين يوما ثم سار إليه "مروان بن محمد" فخلعه. (تاريخ ميخائيل الكبير ٣٩٨)

في نفس هذا العام ازداد الخلاف في كل المنطقة بسبب طغيان عباس وشقيقه ضد الوليد الذي قتلاه بحد السيف، ولما قاما بالحكم على الرغم من أن الحكم لم يكن من حقهما لم يخضع لهما العرب، وخاصة أهل الجزيرة. وقد قام كل واحد بالسهر على أمنه، لأن اللصوصية والفتنة سادت كل المنطقة بحيث لم يتمكن أحد من الخروج من منزله.

عن الجفاف والمجاعة الشديدة التي حلت بالبلاد في ذلك الوقت

في ذلك الوقت أنزل بنا الرب أشد الكوارث وأقساها، وهي السيف والأسر والمجاعة والطاعون، وذلك بسبب خطايانا وشرورنا التي اقترفتها أيدينا **(ثم قال الرب لي: وإن وقف موسى وصموئيل أمامي لاتكون نفسي نحو هذا الشعب، اطرحهم من أمامي فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك: إلى أين نخرج؟ أنك تقول لهم هكذا قال الرب: الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبي فإلى السبي. وأوكل عليهم أربعة أنواع يقول الرب: السيف للقتل والكلاب للسحب وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك. وأدفعهم للقلق في كل ممالك الأرض من أجل مَنَسَّى بن حَزقِيَّا ملك يهوذا من أجل ما صنع في أورشليم)**،[١٤٤] هذا هو الذي تركه لنا إرميا من تعليمه للرؤيا. لقد قال هو نفسه **(ناحت يهوذا وأبوابها ذبلت، حزنت إلى الأرض وصعد عويل أورشليم. وأشرافهم أرسلوا أصاغرهم للماء، أتوا إلى الأجباب فلم يجدوا ماء، رجعوا بآنيتهم فارغة، خزوا وخجلوا وغطوا رءوسهم. من أجل أن الأرض قد تشققت لأنه لم يكن مطر على الأرض خزي الفلاحون، غطوا رءوسهم. حتى أن الإيلة أيضا في الحقل ولدت وتركت لأنه لم يكن كلأ. الفرا وقفت على الهضاب**

---

(١٤٤) العهد القديم: إرميا ١٥: ١/٢/٣/٤.

تستنشق الريح مثل بنات آوى، كلت عيونها لأنه ليس عشب).[١٤٥] فى الواقع إن كل ما قاله النبى قد تحقق فى الوقت الحاضر.

ها هى المذبحة التى قامت بها القوات العربية فيما بينها. لقد ارتوت الأرض بدمائهم وشبعت الطيور والوحوش وحتى الكلاب من لحـــومهم، وكـــان الرجـــال يتبادلون الاختلاس فيما بينهم. لقد تفشى الطاعون فيما بينهم، حتى إنـــه إذا حـــدث وخرج أحد كان السيف فى انتظاره، وإذا بقى فى داره فإن الطـــاعون والمجاعـــة سيقضيان عليه، فلم نكن نسمع سوى العويل والنحيب من كل جانب.

المطر الذى اعتاد السقوط على الأرض فى فصل الشتاء تخلى عن عادتـــه ولم يسقط، ولذلك جفت جميع المحاصيل ولم تعد تنبت. لقد عم المنطقة كلها جفاف شديد، وحدثت مجاعة عظيمة لدرجة أن القمح ارتفـــع ســـعره، حتـــى أصـــبحت الأقفزة[١٤٦] الثمانية أو السبعة بدينار، وعلى الرغم من هذا لم يتيسر العثور عليـــه. لقد كلف بعض الحكام مجموعة من الرجال بمصادرة القمح والاستيلاء عليه أينمـــا وجدوه، سواء فى المنازل أو فى الحقول. تعرض الجميع للجوع لدرجـــة المـــوت، حتى أصحاب القمح الذين كان المفروض ألا يكونـــوا خاضـــعين للمجاعـــة، فقـــد استولت السلطة على محصولهم من القمح فوقعوا فريسة للجوع.

منذ ذلك الوقت بدأ الأغنياء يشعرون بالمجاعة شأنهم فى ذلك شأن الفقـــراء، فقد انتشرت فى كل مكان من المنطقة بحيث لم ينج مكان واحد من هذه المخـــاطر. عم الضيق والأسى كل بقعة فى المنطقة، لقد نفقـــت أيضـــا حيوانـــات الصـــحراء المتوحشة، مثلها مثل الحيوانات البرية التى تعيش على الكلأ، لأنه لم يكـــن هنـــاك ثمة نبات على وجه الأرض. لقد تملك الناس حزن عميق وكذلك سائر المخلوقات، بسبب تلك المجاعة التى لم يسبق لها مثيل فى زماننا ولا فى زمن آبائنا، كمـــا أن العيون والينابيع نضبت والأنهار جفت.

---

(١٤٥) العهد القديم: إرميا ١٤: ٢/٣/٤/٥/٦.

(١٤٦) الأقفزة جمع قفيز، مكيال رومانى قديم. من الصعب تحديد قيمة المسافات والأوزان والأحجام التـــى اختلفت كثيرا وفقا للأماكن والأزمنة، وقد حدد ابن العبرى هذا المقياس بقيمة حمولة حمار.

لقد تراكمت كل المصائب والمساوئ على الأرض، كل المساوئ ولا سيما الطاعون والمجاعة التى قد ألمت بنا بسبب كثرة خطايانا وسيئاتنا، وقد حدث ذلك عندما توفى هشام.

عن الطاعون العظيم الذى حدث فى ذلك الوقت[١٤٧]

لقد عاوننا النبى إرميا الذى هو أعلم بحالنا فى أن ينوح على المصائب التى أحاطت بنا من كل جانب، كما أخذ يبكى من أجل العذاب الذى يحيط بنا من كل ناحية: **(يا ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكى نهارا وليلا قتلى بنت شعبى).**[١٤٨] كما قال أيضا: **(على الجبال أرفع بكاء ومرثاة وعلى مراعى البرية ندبا لأنها احترقت فلا إنسان عابر ولا يسمع صوت الماشية، من طير السموات إلى البهائم هربت مضت. ويسرعن ويرفعن علينا مرثاة فتذرف أعيننا دموعا وتفيض أجفاننا ماء. بل اسمعن أيتها النساء كلمة الرب ولتقبل آذانكن كلمة فمه وعلمن بناتكن الرثاية والمرأة صاحبتها الندب!. لأن الموت طلع إلى كوانا دخل قصورنا ليقطع الأطفال من خارج والشبان من الساحات. تكلم، هكذا يقول الرب: وتسقط جثة الإنسان كدمنة على وجه الحقل وكقبضة وراء الحاصد وليس من يجمع!).**[١٤٩]

---

(١٤٧) بدأ هذا الطاعون فى اليونان فى جزر بحر "إيجة"، ثم انتشر فى باقى المدن. ظهر هذا الوباء على هيئة بقع زيت تظهر على الملابس وعلى أبواب الأبنية والكنائس وأسوارها. هذه العلامة كانت تصحبها أعراض غريبة، فهى تؤدى بالشخص إلى نوع من التخيلات بوجود أرواح شريرة تعيش فى المنزل وتقوم بالقتل والخنق والإضرار بكل من تتمكن منه. وفى حقيقة الأمر فإن هذا الخيال الذى يودى بحياة الناس لم يكن سوى هذا الطاعون الملعون الذى يفتك بالبشر. فى ربيع عام ٧٤٨م تضاعف هذا الوباء، وخاصة فى موسم الحصاد، لدرجة أن معظم منازل القسطنطينية لم تكن سوى مقابر للأهالى، وكانت الجثث تتكدس بعضها فوق بعض لعدم وجود المقابر الكافية، ولم يتوقف هذا الطاعون إلا بعد ثلاث سنوات. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ٢٤٢)

(١٤٨) العهد القديم: إرميا ٩: ١.

(١٤٩) العهد القديم: إرميا ٩: ١٠/١٨/٢٠/٢١/٢٢.

وليعد الآن النبى وليبك ليس على شعب بعينه أو على مدينة أورشليم فقط، بل على سائر الشعوب، وأيضا على المدن العديدة التى أحالتها الكارثة إلى معصرة تفرى ساكنيها بالأرجل دونما رحمة أو شفقة كأنهم العنب اللذيذ، وليبك أيضا على سائر المعمورة لأن الوضع أشبه بالحاصد الذى وقف وسط حقل من القمح قد أشرف على النضج، فهدد واستأصل كل العيدان دون تمييز لأحدها عن الآخر، وليبك أيضا على الجثث المتعفنة المتناثرة فى شوارع البلاد قاطبة. إن الصديد كان يسيل منها أشبه بالماء فى الساحات، ولم تجد من يوارى أكفانها، وليبك أيضا على المنازل والديار الرائعة الجميلة الكبيرة منها والصغيرة التى ما لبثت أن أصبحت قبورا لساكنيها، حيث لقى بها الجميع حتفهم على حين غفلة عبيدًا وأسيادًا دون أن ينجو أحد، ولم يتمكن أحد من إخراج الجثث من تحت الأنقاض، وليبك أيضا على الشوارع المهجورة، وليبك أيضا على القرى الكثيرة التى هلك سكانها جميعهم، وليبك أيضا على القصور التى تصدعت الواحد تلو الآخر، وليبك أيضا على معاقل الزوجية التى أعدت للأزواج فظهروا فيها فجأة أمواتا، وليبك أيضا على الكواعب الأبكار المعتصمات وراء الأبواب انتظارا للانتقال إلى عش الزوجية وإذا بهن ينتقلن فجأة إلى القبر، وليبك أيضا على أشياء كثيرة من هذا القبيل تفوق خطب الخطباء وأحاديث المحدثين. على كل هذه الأشياء أقول إن النبى كان له الحق فى أن يبكى ويقول: الويل لى ليس **(من أجل سحق بنت شعبى انسحقتُ، حزنت، أخذتنى دهشة)**،[150] ولكن من أجل الدمار الذى حل بكل أرجاء المعمورة وكل الشعب الذى أباده الطاعون بسبب أخطائه. كان يفضل أن يستخدم الأقوال النبوية لأتباعه وليحضر ويقول لباقى الأحياء: **(تنطَّقوا ونوحوا أيها الكهنة، ولولوا يا خدام المذبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خدام إلهى لأنه قد امتنع عن بيت إلهكم التقدمة والسكيب)**.[151] ولكن من أجل البشر الذين أبيدوا على سطح الأرض **(هكذا قال رب الجنود: تأملوا وادعوا النادبات فيأتين وأرسلوا إلى الحكيمات**

---

(١٥٠) العهد القديم: إرميا ٨: ٢١.

(١٥١) العهد القديم: يوئيل ١: ١٣.

فيقبلن)،[١٥٢] **(أليس من أجل هذا ترتعد الأرض وينوح كل ساكن فيها وتطمو كلها كنهر وتفيض وتنضب كنيل مصر)**،[١٥٣] ليس على جثة واحدة فقط، ولكن على شعوب، بل على أمم بأكملها. **(انسحقت الأرض انسحاقا، تشققت الأرض تشققا، تزعزعت الأرض تزعزعا. ترنحت الأرض ترنحا كالسكران، وتدلدلت كالعرزال، وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم)**.[١٥٤] كل هذه الأشياء تحققت في هذا الوقت.

إن الكوارث الكبيرة والهزات الأرضية العنيفة والجيوش والحروب وعداوات العرب فيما بينهم بسبب المجاعة التى تفشت بشدة بين البشر، حتى إن الأهالى فى المنطقة الجنوبية والشرقية قاموا وانقضوا على المناطق الشمالية والغربية، واستخدموا الفتنة مع أشد أنواع العذاب.

وقال النبى إرميا: **(وأرسل عليهم السيف والجوع والوبأ حتى يفنوا عن وجه الأرض التى أعطيتهم وآباءهم إياها)**.[١٥٥] كل تلك الأشياء حدثت فى أيامنا بغير استثناء، ها هو سيف العرب يدور فيما بينهم، ها هو السلب ينتشر حتى بات من غير الممكن أن يبرح الرجل داره دون أن تنهب أو تسلب، ها هى المجاعة تتفشى فى الداخل والخارج. فإذا دخل الرجل إلى داره واجه المجاعة والطاعون، وإذا خرج إلى الصحراء وقع فريسة السيف والأسر. من كل جانب حصار مرير وحزن أليم ورغبة ملحة **(توانوا وابهتوا، تلذذوا واعموا، قد سكروا وليس من الخمر، ترنحوا وليس من المسكر)**،[١٥٦] أخذ الناس يتجولون ويتنقلون من بلدة إلى أخرى ومن مكان إلى مكان، كانوا يترنحون كما لو كانوا سكارى، فقد قال النبى إنهم كانوا يطلبون الخبز فلا يجدونه.

---

(١٥٢) العهد القديم: إرميا ٩: ١٧.
(١٥٣) العهد القديم: عاموس ٨: ٨.
(١٥٤) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٩/ ٢٠.
(١٥٥) العهد القديم: إرميا ٢٤: ١٠.
(١٥٦) العهد القديم: إشعياء ٢٩: ٩.

في أول الأمر بدأت أعداد غفيرة من كبار العائلات تمرض وتموت نتيجة لتلوث الدم والثآليل، ولم يتمكن أحد من دفنهم. ظل الأمر على هذه الحال طوال فصل الشتاء، كان الناس يرقدون فى الساحات وفى الأروقة والأبراج والمعابد وفى كل الأبنية يعانون من شدة المرض وعنف المجاعة المميتة، حتى إن عدد الذين راحوا ضحية الجوع كان يفوق بكثير عدد الذين فتك بهم المرض، وكان الذين يملكون الخبز لدرجة الشبع هم أنفسهم الذين وقعوا فريسة للمرض. عندما بدأ الدفء يحل على الأرض بدأت الثآليل تظهر على المرضى الذين أخذوا يتساقطون فى الأسواق كالزبل على سطح الأرض، دون أن يجدوا من يقوم بدفنهم. بدأ هذا الطاعون يظهر على الفقراء الملقين فى الساحات، وكان الناس يكفنونهم باحترام بتلاوة التراتيل، وكانوا يدفنونهم مكرمين. استشرى الطاعون وأطبق على نبلاء القرى والمدن بقسوة، وحينما أراد الكهنة أن يقوموا بدفن أحد الموتى تجمع فى الصباح فى مكان واحد قرابة خمسين نعشًا أو ستين أو ثمانين أو مائة نعش. وقد وُضع بداخل كل نعش جثتان أو ثلاثة أو حتى أربعة أطفال. كان يُقضى اليوم فى دفن جثث البشر دون هدنة أو راحة.

لقد ملأ العرب الأرض بالحفائر وكذلك اليهود، وكانت مقابر المسيحيين مكتظة بالموتى حتى إنهم أصبحوا هم أنفسهم مضطرين إلى القيام بالحفر. فى يوم واحد خرج أكثر من خمسمائة نعش من باب واحد. كانت الأبواب لا تفتح طوال اليوم إلا لخروج حاملى الجثث وعودتهم. كانوا يخرجون لدفنها ثم يعودون لحمل غيرها، حتى إن بعض الموتى لم يكن يقام لهم القداس لقلة عدد الكهنة وكثرة عدد الموتى.

فى الصباح أصدر الكهنة تعليماتهم إلى أهالى الموتى بتجميع ذويهم فى أماكن مجاورة لمناطق سكنهم، فكان سكان كل منطقة أو حى يتجمعون فى المكان المحدد لهم، منذ الصباح كان الكهنة ينقسمون للذهاب فى كل اتجاه لتجهيز الموتى وحملهم إلى مدافنهم فى جماعات. حدث أن تجمع فى مكان واحد أكثر من مائة نعش، كان يوجد فى تلك النعوش أكثر من مائتين أو مائتين وخمسين جثة كانت

تتكدس بعضها بجانب بعض طوال اليوم دون انقطاع، فلم تكن هناك تفرقة بين الخادم والمخدوم ولا بين السيدة والأمة ولا بين الأجير والمستأجر، فكان الحال أشبه بمعصرة تمتزج فيها النهاية بالعقاب الإلهى للبشر، وكان العبيد والسادة يعذبون دون تفرقة.

إن الرجل سواء كان من عامة الشعب أو من سادة القوم كان يسقط ويعانى سكرات الموت، والكل فى ذلك سواء. فليتأمل كل شخص الأمر الإلهى ولتستبد به الدهشة والحيرة تجاه أحكام الرب التى تخفى على البشر ويتعذر عليهم تفهمها **(عدلك مثل جبال الله وأحكامك لجة عظيمة، الناس والبهائم تخلص يارب).**[١٥٧] إن الكارثة عمت وامتد أثرها حتى شمل أولئك الذين يتولون مقاليد السلطة فى البلاد، وكذلك الذين ينعمون برغد العيش، ومن ينغمسون فى الفواحش ويرتكبون الكبائر والآثام، لقد أصبحت ديار الكثيرين منهم تنعى أصحابها ولا تجد من يرثها. كان الرجال يتنازلون لأصدقائهم فجأة عن ممتلكاتهم وثرواتهم ومزارعهم، وأيضا عن قصورهم المنيفة.

كم من قصور مشيدة خربت، وكم من عائلات أبيدت لأنها لم تجد من يرثها. إن اللسان البشرى ليعجز عن وصف الكوارث الهائلة التى حلت بالبقعة التى تمتد من الفرات حتى الغرب، وشملت كل إقليم فلسطين، وعمت المنطقة الشمالية والوسطى حتى البحر الأحمر، كذلك باقى كيليكيا وآسيا الصغرى وبتينا ليديا وغلاطية وأيضا كبادوكية. إن عذاب هذا الانتقام الجائر قد قاسى منه العالم كله، فهو مثل المطر الذى يصيب كل مكان على الأرض، أو كأشعة الشمس التى تصل إلى كل مكان، هذا الوباء قد خيم أيضا على العالم كله. كان أثره أشد فى المناطق سالفة الذكر، ولقد تحولت فجأة تلك الساحات والمناطق إلى صحارى جرداء لا يمر فيها أو يسكنها أحد. كانت مليئة بالجثث المتعفنة الملقاة على الأرض كالزبل على سطح الطريق، لا تجد من يقوم بدفنها لأنه لم ينج أحد من الأهالى، لدرجة أنها كانت تبدو لمن يراها فى حالة انتفاخ وتحلل، أى فى حالة تعفن شديد. كانت

---

(١٥٧) العهد القديم: المزامير ٣٦: ٦.

المنازل مفتوحة كالمقابر، وكان أصحابها فى داخلها فى حالة تقيح. أثاثهم وذهبهم وأموالهم ومدخراتهم كلها كانت مبعثرة فى الطرقات، ولم يكن هناك أحد ليجمعها. كانوا لايحفلون بالذهب أو المال، كانت ثرواتهم ملقاة فى كل مكان دونما صاحب أو مالك. كان كهول ومسنات اشتعلت رءوسهم شيبا كانوا يرجون أن يغادروا الدنيا وسط مظاهر التكريم من أهاليهم، فكانوا يسيرون فى الشوارع فاغرين أفواههم من الدهشة والهول، وكانوا يتساقطون فى الشوارع وفى المنازل وفى الأماكن العامة وهم متهالكون أو فى حالة تعفن. عذارى جميلات على قسط وافر من الجمال، وكذلك فتيات كن ينتظرن أن ينتقلن إلى عش الزوجية وارتداء أفخر الثياب، كن ملقيات عاريات متعفنات بعضهن فوق بعض، وأصبحن مثار حسرة وألم لكل من تقع عينه عليهن. ما حدث فى المقابر كان بمشيئة الرب، ولكن كان بين جدران المنازل وفى الطرقات شباب قد أصبحوا مكروبين ومطرودين، كانوا ملقين فى الطرقات قد اختلط صديدهم بصديد ذويهم.

هذا هو أيضا ما حدث فى تلك المناطق. الذين بقوا وهم قليلو العدد ظلوا يحملون الموتى طيلة اليوم دون توقف، كانوا يحملونهم ويلقون بهم كما لو كانوا يلقون بحجارة على كومة ثم يعودون ليحملوا جثة أخرى ليلقونها كما ألقوا سابقتها. كثير من المحتاجين كانوا دون أهل وكنا نراهم ملقين فى الشوارع تقوم الكلاب بنهش لحومهم لأنهم لم يجدوا من يواريهم القبور. كل واحد كان لا يكفيه إلا منزله، كانوا يستأجرون عمالا كثيرين لنقل الجثث من المنازل أو الساحات بسبب عفونتهم، وهكذا أنجز هذا القول: **(أرسلت بينكم وبأعلى طريقة مصر، قتلت بالسيف فتيانكم مع سبى خيلكم وأصعدت نتن محالكم حتى إلى أنوفكم فلم ترجعوا إلىَّ يقول الرب)**،[١٥٨] **(ناحت ذبلت الأرض، حزنت ذبلت المسكونة، حزن مرتفعو شعب الأرض)**.[١٥٩]

---

(١٥٨) العهد القديم: عاموس ٤: ١٠.

(١٥٩) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٤.

عما قريب لن يكون هناك بكاء ولاحزن ولا ألم، لأن كل واحد سيطرق باب القبر. كان الذهب والفضة محتقرين كروث الماشية، حتى إنه لو كان على الموتى من الزوجات أو الفتيات ذهب أو فضة أوحليٌ ثمينة لا يدنس أحد يده ليأخذ شيئا، حتى الأهالى لاتمتد أيديهم لأخذ شيء منهم، حتى الآباء لا يأخذون من أبنائهم، لأنهم كانوا يعرفون أن صديدهم سيختلط بصديدهم وعما قريب سيلحقون بهم.

بأى دموع سأبكى الآن يا أحبائى؟ أى تأوهات ستكفينى؟ أى قلب محطم أى عزاء أى نواح أى حسرة أى آلام ستكون كافية عندما ترى كهولاً ورجالاً من مختلف الأحجام والأعمار خائرى القوة وملقين كالأرز؟

إن رحمة الرب الكبرى ظهرت حتى أيضا فى تلك الكارثة، لأنها قضت أولا على المساكين الذين كانوا ملقين فى طرقات المدن. وفى كل مكان كان البدء بهم، وفى النهاية عندما رحل هؤلاء بالكامل تحولت العصا تجاه الأغنياء وأسياد المدن.

إن هذين الأمرين قد نفذا بواسطة الرحمة الإلهية للرب، حيث حققت فائدة لكلا الطرفين. أولا لسكان المدن، لأنهم كانوا يظهرون حماسهم للعدالة، ويحققون لأنفسهم أعظم كسب عن طريق اهتمامهم بالفقراء، مما جعل الفقراء يعنون بهم، يكفنونهم ويهتمون بجنازاتهم، وكانوا يوارونهم القبور بأسى كبير وعناية. ثانيا للفقراء أنفسهم، لأنه لو كانت الكارثة قد حلت بهم وبسكان المدن فى آن واحد فكيف كان سيتم نقل عظامهم النخرة الناشرة من اللحم فى الشوارع؟ ولكان ذلك مما لايتسنى معه للقائمين على هذا الأمر إقناع الأغنياء به، إذ لم يكن الفقراء يترددون عليهم قبل وقوع الكارثة، حينما كان كل منهم سالمًا ومعافى. لذلك كانوا يقبلون على نقل الجثث من أجل دفن الذين لم يكن لهم أحد ليدفنهم، حتى إن الذين كانوا يعتمدون على وجود مقابر ومكفنين لهم أصبحوا دون قبور ولم يجدوا من يقيم لهم القداس. فى الحقيقة لقد تحولت الكارثة إلى العظماء بمجرد أن دفن الفقراء، وشملهم الموت جميعا دون تفرقة بين صغير وكبير، لم يبق منهم أحدا. أما الذين تصادف أن نجوا من تلك الكارثة ولم يلقوا حتفهم فقد أسرعوا بالفرار إلى خارج المدن.

فى النهاية حتى من كُتبت لهم الحياة أصابهم داءٌ عظيم، وهو انسداد الحالب. بعضهم أصيب من جانب واحد وبعضهم الآخر أصيب من الجانبين. إن الذى حل بالأموات حل مثله بالأحياء، حيث لم يلبثوا أن أصابهم ألم الحالب، وكان ذلك نذيرا بأن من سينجو من الموت سوف يتألم بأقسى مما فى الموت من آلام.

ستنتفخ الكاذة وتتورم وتنفجر، فتنتج عنها قروح كبيرة وعميقة، يسيل منها الدم والصديد والماء ليلاً ونهارًا كالنهر، مما يصيب الشخص بالذبول والهزال، وقد يستمر هذا المرض مع البعض لمدة شهر ومع آخرين لمدة شهرين أو خمسة أشهر أو ستة وحتى عام، ومنهم من يمكث معه لمدة عامين، وكثيرون منهم لازمهم طيلة حياتهم.

وهكذا أنجز قول النبى الذى يقول: **(كل الأيدى ترتخى وكل الركب تصير ماء)**،[١٦٠] **(لذلك ترتخى كل الأيادى ويذوب كل قلب إنسان)**،[١٦١] **(إلى البيت وديبون يصعدون إلى المرتفعات للبكاء، تولول موآب على نبو وعلى ميدبا، فى كل رأس منها قرعة كل لحية مجزوزة)**.[١٦٢]

وقد حدث هذا فى الوقت الحاضر، فإذا هرب أحد من بيته أو من عائلته أصابه هذا الداء. الذى يحدث أنه كان يسيل من ركبتيه ماء ودم وصديد، حتى يصبح رأسه أصلع. ولذا فإن من بقى حيا كانوا قليلى العدد، ولم نكن نعرفهم أو نميزهم حتى من ملابسهم. لا أحد كان يميز بين القسس والرهبان، فقد أصبح جميعهم صُلعًا. كان هذا المرض يصيب الرقبة من الخلف، وقد أصاب الكثيرين فى الفخذ. إن معظمهم قد تخلصوا منه سريعا، وبعضهم شفى بعد فترة من الوقت، والبعض الآخر لم يسترد صحته مطلقا.

---

(١٦٠) العهد القديم: حزقيال ٧: ١٧.
(١٦١) العهد القديم: إشعياء ١٣: ٧.
(١٦٢) العهد القديم: إشعياء ١٥: ٢.

كانت تلك الكارثة مثل آلام الولادة التى تستبد بالمرأة الحامل، فقد خيمت على المنطقة من كل جانب. لم يكفً العرب قط عن الشجار وتبادل الأذى، حينئذ خرج مروان من باب الأتراك فاضطربت الأرض كلها وثارت.

عام ١٠٥٧ يونانية (٧٤٥-٧٤٦م) خرج مروان من **باب الأتراك**.(١٦٣) حيث جاء فى سفر النبى إرميا هكذا: (**لذلك هكذا قال الرب: هأنذا جاعل لهذا الشعب معثرات فيعثر بها الآباء والأبناء معا، الجار وصاحبه يبيدان**).(١٦٤)

كل هذه الأشياء حدثت للعرب سواء كانوا إخوة أو أولاد إخوة، فقد سقطوا جميعا فى هاوية سحيقة بسبب طموحهم.

إن أنصار عباس وأنصار هشام وأبناء الوليد وأنصار مروان، الذين كانوا إخوة وأبناء إخوة وجيرانا وأصدقاءَ انقض الواحد منهم على الآخر فأهلكوا أنفسهم كما هلك معهم نفر كثير. وقد قال إرميا بخصوص خروج مروان: (**هكذا قال الرب: هو ذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من أقاصى الأرض. تمسك القوس والرمح، هى قاسية لاترحم، صوتها كالبحر يعج وعلى خيل تركب مصطفة كإنسان لمحاربتك يا ابنة صهيون. سمعنا خبرها، ارتخت أيدينا، أمسكنا ضيق ووجع كالماخض. لا تخرجوا إلى الحقل وفى الطريق لا تمشوا لأن سيف العدو خوف من كل جهة**).(١٦٥) وقال إشعياء أيضا فى الحديث عنهم: (**قد أنهضته من الشمال فأتى، من مشرق الشمس يدعو باسمى، يأتِ على الولاة كما على الملاط وكخزّاف يدوس الطين**).(١٦٦) وأيضا: (**فقال الرب لى: من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض**).(١٦٧)

---

(١٦٣) خرج من باب الأتراك، أى أنه خرج من أرمينيا حيث كان حاكما.
(١٦٤) العهد القديم: إرميا ٦: ٢١.
(١٦٥) العهد القديم: إرميا ٦: ٢٢/٢٣/٢٤/٢٥.
(١٦٦) العهد القديم: إشعياء ٤١: ٢٥.
(١٦٧) العهد القديم: إرميا ١: ١٤.

عندما غزا مروان الجزيرة وخضعت له عين حكاما في كل المدن وأيضـا في الموصل. ثم بعد ذلك جمع قوة عظيمة وأمرها بالزحف مـع عمـال وفنيـين. وعبر مروان إلى الغرب إلى أنصار عباس، أما يزيد الذى قتل الوليد فقد توفى بعد أن حكم لمدة ستة شهور وجاء خلفا له أخوه إبراهيم. وعندما علم أن مـروان قـد عبر الفرات ومعه قوة عظيمة وأن الجزيرة قد دانت له أصابه الفزع وهرب مـن أمامه. **(يتمايلون ويترنحون مثل السكران وكل حكمتهم ابتلعـت)**،[١٦٨] وأرسل إلى مروان **نعمان بن ثابت**[١٦٩] مع قوة عظيـمة. لقد قيل عن هذا الرجل إنه كان لديه سبعون ولدًا.

والتقى الجمعان وتلاحما فى معركة شرسة، فانهزمت قـوات ثابـت أمـام مروان وأبيدت عن آخرها. وعندما رأى أنصار إبراهيم أنهم قد انتصروا فى أول معركة تحركوا، وحشدوا قوات كثيرة دون عدد وجمعـوا الأهـالى مـن القـرى وحاربوهم بالحجارة فى القلاع.

لقد تقدم الجيشان كل تجاه خصمه حتى التقيا فعسكرا فى **عـين الـدار**.[١٧٠] وبعد إن دارت بينهما معارك حامية، وبعد أن راح ضحيتها عدد كبير من الفريقين أحرز مروان في النهاية النصر، فهرب إبراهيم وإخوانه وكذلك سليمان بن هشـام. ولم تر الأبصار أو تسمع الآذان بمثل تلك المعركة من قبل، ولم يحـدث أن أريـق مثل هذا القدر من الدماء إلا فى هذه الموقعة، حتى إنه قد قتل فيها من أهالى القرى ما يزيد على خمسة آلاف رجل.

وبعد أن تحقق النصر لمروان ضرب حصارا حول مدينة حمص واسـتولى عليها وهدم أسوارها، كما أخرج أيضا جثمان يزيد من قبره، وصلبه على شـجرة جاعلاً رأسه إلى أسفل، كما اغتصب أربعمائة ألف قطعة ذهب من أحد اليهود.

---

(١٦٨) العهد القديم: المزامير ١٠٧: ٢٧.

(١٦٩) ربما كان المقصود هنا هو "ثابت بن نعمان".

(١٧٠) عين الدار تقع فى لبنان على طريق دمشق بعلبك.

WELL: GESCH. DER CHALIPHEN I P. 682No.1

عن قساوسة الكنيسة الذين برزوا فى ذلك الوقت

بعد القديس أثناسيوس بطريرك أنطاكية جاء البطريرك يوحنا فـــى الرهـــا، وبرز الأسقف قسطنطين فى حران، والراهب مار شمعون من الدير المقـــدس فـــى قرتمين، وفى سميساط[١٧١] قسطنطين آخر، وفى ميافرقاط الراهب مار أثناسيوس المسمى صندليا، والذى أصبح فيما بعد بطريركا، وفى آمد الراهب مار قزما[١٧٢] الذى جاء خلفا له مار سبا من دير زوقنين المقدس، والواقع فى دائرة تلك المدينـــة، حيث أمضى عشرين عاما ومات وجاء خلفا له ساويرس من نفس الدير الذى توفى به بعد نحو عام، بسبب وباء أصابه أثناء زيارته لأسقفيته، وعين مكانه ســـاويرس آخر من نفس الدير.

فى نفس تلك الفترة وقع اضطراب بسيط فى الكنيسة بشأن الراهـــب يوحنـــا الذى لم يقبل الجميع الخضوع له.

عن نقل كنز الملوك من الغرب إلى الجزيرة

كان مروان على علم تام بما يكنه الغربيون له من غدر وخيانة، ولـــذا فقـــد عزم على نقل كنز الملوك إلى الجزيرة. قام الغربيون ضده وأعلنوا العصيان عليه، ولأنه كان يعلم أنهم لن يمكنوه من نقله بسلام فقد لجأ إلى خداعهم حيث قال: "إنمـــا أريد نقله إلى دمشق وليس إلى الجزيرة، لأن هناك مقر عرش الملوك".

فلما قال ذلك سمحوا له بنقله إلى دمشق، وقاموا هم أنفسهم معه وأوصـــلوه إلى المدينة، وبعد عدة أيام رجعوا إلى منازلهم. ولم يكد يمر شهران أو ثلاثة حتى

(١٧١) بلدة واقعة شمالى الرها، إلى الغرب من الفرات. وهى بالسريانية "شميشاط". (التاريخ الكنسى ١٦)
(١٧٢) من أصل أورشليمى. تيتم باكرا فتبناه "سرجون"، فشارك "يوحنا" حياته العائليـــة. (الســـريان نقلـــة حضارات ٩٩)

سرقه على حين غفلة من الغربيين ونقله إلى حران حيث ذهب هو بنفسه وأقام هناك. ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف رحى الحرب طيلة فترة حكمه.

عام ١٠٥٨ يونانية (٧٤٦-٧٤٧م) انضم الضحاك إلى طائفة الحاروريت، وتمكن من غزو الجزيرة. فمنذ أن جاء مروان إلى الجزيرة لم يبارحه العذاب، فقد انبثق له من أرض الجزيرة شوكة قوية.

في تلك الفترة قام الضحاك الطاغية من **جبل أزال**،[١٧٣] ومعه يعقوب وخيبر وسقساقي، بشن معارك عديدة ضد مروان، فأبادوا عددا كبيرا من قواته. وبعد كثيرمن المعارك في كل مكان نشبت معركة قوية وحامية في تل مشريتا، حيث لقى فيها الضحاك مصرعه وكثير من قواته، أما الذين نجوا فولوا الأدبار.

عام ١٠٥٩ يونانية (٧٤٧-٧٤٨م) وقع زلزال عنيف ومدمر في المنطقة الغربية. **(انسحقت الأرض انسحاقا، تشققت الأرض تشققا، تزعزعت الأرض تزعزعا)**.[١٧٤] تلك الأحداث وغيرها، بل أسوأ منها أيضا وقعت بسبب الظلم والأخطاء والمساوئ التي نقترفها كل يوم. أين نستطيع أن نجد سببا لذلك الذي نزل بنا إن لم يكن بسبب أخطاء البشر؟ هل الأرض تتصدع؟ هل هي عندما تهتز وتضطرب تتضرع إلى صانعها كي يأتي ويثبتها؟ لا أعتقد ذلك، ولكنها عندما تهتز فإنها تحتج على المساوئ التي تقترف على سطحها، ولقد ظهر ذلك واضحا من الحدث التالي:

وقعت هزة أثناء الليل، وكذلك سمع خوار الثور من بعيد. عندما جاء الصباح أمر الأسقف مع جماعة أخرى أن يجتمع الجميع ويخرجوا للصلاة، لأن هذا - كما قال - يحدث نتيجة مساوئ البشر، فخرجوا جميعا للصلاة، وذهبوا في

---

(١٧٣) جبل أزال يفصل حدود آمد عن الجزيرة، وكان يسمى قديما "ماسيس"، وهو عبارة عن سلسلة جبال خصبة جدًا، وخاصة بالكروم والفواكه.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TX. P. 229-234.

(١٧٤) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٩

موكب إلى خارج المدينة، إلى الكنيسة التى تدعى أم الرب، والتى تقع خارج المدينة فى مبوج فى المنطقة الغربية. كان هؤلاء من **خلقدونيا**،[١٧٥] وكان أسقفهم يسير بنفسه فى مقدمتهم، وما كادوا يصلون إلى الكنيسة ويدخلونها جميعا كالماعز فى الحظيرة ويقومون بتأدية الصلاة حتى وقعت هزة أرضية أشد وأقوى، فتهدم البناء عليهم وأبادهم جميعا مع أسقفهم، وهلكوا جميعا ولم يبق أحد منهم حيًّا، وأصبحوا فجأة كلهم فريسة للهلاك والعذاب. لقد هلك الحق مع الباطل.

عام ١٠٦٠ يونانية (٧٤٨-٧٤٩م) صعد شعب **فارس**[١٧٦] إلى أرض سوريا، حيث هاجموا العرب واغتصبوا الحكم منهم. لقد تنبأ إشعياء قديما بهذه الأحداث حيث قال: (**ويل لأشور قضيب غضبى والعصا فى يدهم هى سخطى. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطى أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة**).[١٧٧] كما قال أيضا: (**ويكون فى ذلك اليوم أن الرب يصفر للذباب الذى فى أقصى ترع مصر وللنحل الذى فى أرض أشور. فتأتى وتحل جميعها فى الأودية الخربة وفى شقوق الصخور وفى كل غاب الشوك وفى كل المراعى**).[١٧٨]

وفى الحقيقة كان هؤلاء عصا الجنوب، وهى العصا التى يحملونها فى أيديهم كما قال النبى، لأنهم كانوا يحملون فى أيديهم عصيًّا، فى طرف كل واحدة منها ثبت مسمار حديدى، كما لو كانوا يتقدمون لقتل الكلاب. وكانوا يطلقون عليهم اسم "ذباب ونحل"، وذلك لأن الذباب يطن ويسقط على أى مكان توجد به ديدان، وتنبعث منه رائحة عفنة، وبالمثل من كانوا سحرة أو لصوصا أو مراهقين أو

---

(١٧٥) يقصد أنصار مجمع خلقدونيا الذين كانوا يحتقرون الميتافيزيقيين، وهم بالتالى ملحدون فى نظر ديونسيوس.

(١٧٦) يقصد بشعب فارس "العباسيين" وكذلك "الخراسانيين" وأيضا المتشحين بالسواد. لأن العباسيين فعلا كانت أولى محاولاتهم للثورة ضد الأمويين فى خراسان وفى فارس الشرقية.

THEOPHANES: CHRONOGR. AD. ANN. N6240.

(١٧٧) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٥/٦.

(١٧٨) العهد القديم: إشعياء ٧: ١٨/١٩.

قتلى، إذ حيثما ذهب أحدهم كان يقــترف الإثم والعار. كانوا يثيرون الاضطراب، كما كانوا يغادرون مكانهم ويخرجون بأعــداد كبيرة تشبه سرب النحل محتقــرين فى نظرهم. ولم يرجعوا مطلقا، هكذا تجمعوا وصعدوا إلى الأرض.

ولقد خرجت قوة العرب لصدهم وعسكرت بالقرب من **الكوفة**،(١٧٩) ولكنهــا لم تستطع أن تقاومهم فقضوا عليهم، ومن نجا منهم ولى الأدبــار **وتشــتتوا**.(١٨٠) واستولى الغزاة على أسلحتهم وجيادهم وثرواتهم الكبيرة، لأنه من قبل كــان كلــه يذهب هباء ولم يكونوا يملكون شيئا سوى العصى التى يحملونها فى أيديهم.

لقد تحدث يوئيل عنهم قائلا: **(يوم ظلام وقتام يوم غيم وضباب مثل الفجــر ممتدا على الجبال، شعب كثير وقوى لم يكن نظيره منذ الأزل ولايكون أيضا بعده إلى سنى دور فدور. قدامه نار تأكل وخلفه لهيب يحرق، الأرض قدامــه كجنــة عدن وخلفه قفر خرب ولاتكون منه نجاة. كمنظر الخيل منظره ومثــل الأفــراس يركضون)**.(١٨١)

إن النبى كان له الحق فى تسميتهم "هيئة الجياد"، لأنهم مثل الجياد لهم عرف على الرأس وعلى الرقبة، هكذا كان لهم شعر طويل شبيه بذيل الحصــان. وقــال أيضا: **(كصريف المركبات على رءوس الجبال يثبون، كزفير لهيب نار تأكل قشا، كقوم أقوياء مصطفين للقتال. منه ترتعد الشعوب، كل الوجــوه تجمــع حمــرة. يجرون كأبطال، يصعدون السور كرجال الحرب ويمشون كل واحد فــى طريقــه ولايغيرون سبلهم)**.(١٨٢) وأيضا: **(يتراكضون فى المدينة، يجرون علــى الســور، يصعدون إلى البيوت، يدخلون من الكوى كاللص. قدامه ترتعد الأرض وترتجــف**

---

(١٧٩) الكوفة هى عاقولا القديمة، على الضفة الغربية من الفرات، على بعد خمسة أيام من بغداد.
BAR- HEBRAEUS: CHR.ECCL. II. 111 No. 1

(١٨٠) فى ٣٠ تشرين الأول(أكتوبر) عام ٧٤٩م بويع لأبى العباس بالخلافة فى مســجد الكوفــة الكبيــر، وأخذت الراية البيضاء تتقهقرفى وجه الراية السوداء. (تاريخ الطبرى: ج٣ ص٣٢٧)

(١٨١) العهد القديم: يوئيل ٢: ٢/٣/٤.

(١٨٢) العهد القديم: يوئيل ٢: ٥/٦/٧.

السماء، الشمس والقمر يظلمان والنجوم تحجز لمعانها).[١٨٣] وقال ناحوم أيضا: **(تهيج المركبات فى الأزقة، تتراكض فى الساحات، منظرها كمصابيح، تجرى كالبروق. يذكر عظماءه، يتعثرون فى مشيهم، يسرعون إلى سورها وقد أقيمت المترسة).**[١٨٤] وأيضا: **(فراغ وخلاء وخراب وقلب ذائب وارتخاء ركب ووجع فى كل حقو، وأوجه جميعهم تجمع حمرة).**[١٨٥]

لم يقتصر السواد على وجوههم فحسب، وإنما امتد إلى ملابسهم السوداء، ولذا كانوا يسمونهم بالعربى "مُسَوِّدة" التى ترجمتها باللغة السريانية أسود. عندما استولوا على المنطقة السفلى حاول **مروان**[١٨٦] التصدى لهم مرة أخرى، فكلف "ابن هبيرة" بمهاجمتهم فقابلهم فى نصيبين، ولكنه لم يصمد أمامهم وهُزم.

عندئذ أيضا نزل **عبد الله بن مروان**[١٨٧] بنفسه وهُزم هو الآخر، فتصدى لهم مروان وشنوا معارك كثيرة، وقُتل من الجانبين عدد كبير، وأخيرا شنوا معركة فاصلة وعنيفة فى **بيت الزاب**،[١٨٨] حيث ارتوت الأرض بدمائهم التى سفكت بغزارة.

هُزم مروان وولى الأدبار فتفرقت قواته، أما هو فقد عبر الفرات. وأغلقت كل المدن أبوابها فى وجهه، وأراد الغربيون محاربته. منذ ذلك الوقت اختفى ولم يُعثر له على أثر، لا هو ولا أحد من أتباعه، أما قواته فبعضهم قتل والبعض الآخر

---

(١٨٣) العهد القديم: يوئيل ٢: ٩/١٠.
(١٨٤) العهد القديم: ناحوم ٢: ٤/٥.
(١٨٥) العهد القديم:ناحوم ٢: ١٠.
(١٨٦) كان مروان جنديا باسلا، أكسبه صبره وصموده فى الحروب لقب"الحمار". ولم يكن هذا اللقب آنئذ عارًا أو معيبًا، وإلى مروان يرجع الفضل فى تعديل خطط القتال، إذ تخلى عن نظام القتال فى صفوف، هذا النظام الذى جرى عليه النبى (صلى الله عليه وسلم) أولا، فترك عليه مسحة من التقديس، واتخذ بديلا عنه نظام " الكراديس"، وهى وحدات صغيرة أشد تماسكا وأسرع انتقالا. (فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص١٥٣)
(١٨٧) المقصود هنا هو "عبد الله بن على"، أحد أعمام الخليفة الجديد. (فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص١٥٤)
(١٨٨) سار مروان على رأس اثنى عشر ألف مقاتل من حران شرقا حتى بلغ الزاب الأعلى فى كانون الثانى (يناير) عام ٧٥٠م، وهو أحد فروع دجلة. (الطبرى ج٣ ص٤٧)

وضع فى الأسر. وما إن هزم الفرس مروان حتى انتشروا فى الأرض كذئاب الليل أو النسور الجائعة.

لقد تنبأ حبقوق بهم حيث قال: (**فهأنذا مقيم الكلدانيين الأمة المرة القاحمة السالكة فى رحاب الأرض لتملك مساكن ليست لها. هى هائلة ومخوفة، من قبل نفسها يخرج حكمها وجلالها**).[١٨٩] فى الحقيقة انتشروا فى كل البقاع (**وخيلها أسرع من النمور وأحدُّ من ذئاب المساء، وفرسانها ينتشرون وفرسانها يأتون من بعيد ويطيرون كالنسر المسرع إلى الأكل. يأتون كلهم للظلم، منظر وجوههم إلى قدام ويجمعون سبيا كالرمل**).[١٩٠]

هذا النبى يشبههم تماما بذئاب المساء، لأن الذئاب لاتظهر ولايراها البشر أو الكلاب أثناء النهار. وفى أثناء الليل يظهرون لشعورهم بالجوع، لأنهم لم يأكلوا طوال النهار (**تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض. الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء**)،[١٩١] وهكذا فإنهم يعوون فى حالة جوعهم وهذا دأبهم. كانوا يصرخون كالنسر الذى يزمجر عندما يجوع، وكانوا مثل الذئاب حيثما يوجدون يسلبون الخير من البشر، يأتون كلهم للظلم، هكذا قيل (**وهى تسخر من الملوك والرؤساء ضحكة لها، وتضحك على كل حصن وتكوم التراب وتأخذه**).[١٩٢]

إن النبوءة لم تكن صحيحة فى قولها: "تضحك على الحصون"، وذلك لأن كل أسوار المدن قد هدمت بأيديهم، كما هدموا كل ما كان الملوك الحكماء قد حرصوا على إقامته وإحكامه، وأنفقوا فيه أموالا طائلة ليحتموا به من الأعداء.

---

(١٨٩) العهد القديم: حبقوق ١: ٦/٧.
(١٩٠) العهد القديم: حبقوق ١: ٨/٩.
(١٩١) العهد القديم: المزامير ١٠٤: ٢٢/٢٣.
(١٩٢) العهد القديم: حبقوق ١: ١٠.

كان أول حاكم على الجزيرة هو "عكى" الذى أصدر أمرا بالزام كل المسلمين بارتداء **السواد**.[١٩٣]

عام ١٠٥٤ يونانية (٧٤٢-٧٤٣م) يوم الجمعة أول أيام شهر كانون الثانى (يناير) سقطت النجوم من السماء، وكنا نراها كجمرات من النار تنحدر فى كل مكان، كانت تنبئ بالمصائب التى حلت بعد ذلك على الأرض، وهى الخراب والطاعون وغزو الفرس.

عام ١٠٦١ يونانية(٧٤٩م-٧٥٠م) اتخذوا **الأبيض**.[١٩٤] عندما قاسى العرب العذاب الذى سببه لهم الفرس، الذين لم يكفوا عن قتلهم دون رحمة كالماعز، ونهبوا خيراتهم فلم يستطيعوا أن يتحملوهم، بل أكثر من ذلك ثاروا عليهم وارتدوا الملابس البيضاء. لقد قيل: **(وأجعل صبيانا رؤساء لهم وأطفالا تتسلط عليهم. ويظلم الشعب بعضهم بعضا والرجل صاحبه، يتمرد الصبى على الشيخ والدنىء على الشريف)**،[١٩٥] فقد ثار العرب وارتدوا الملابس البيضاء وقتلوا عددا كبيرا من الفرس، وطردوهم ورجعوا إلى بلادهم. لقد ظل العرش شاغرًا لمدة سنة كاملة، ظهرت خلالها الفتنة، وانضم "بريكة" إلى قطاع "الحاروريت".

عام ١٠٦٢ يونانية (٧٤٩-٧٥٠م) انتشر عرب ميافرقاط فى المنطقة، وبدأوا يلحقون الكثير من الأذى بسكان الجبل وكل المنطقة، ذهب "قورى بن ثابت" إلى إقليم "كليب"، واحتجزوا أكابر البلدة، وقتل سبعة منهم. عندما علم وسمع إخوانهم سكان إقليم "فيس" بذلك سيطروا على أنفسهم، حتى لاتساء معاملتهم مثل إخوانهم. لقد قام رجل جرىء مخلص تقى يدعى "يوحنا بن داداى" من بلدة فيس،

---

(١٩٣) كان اللون الأسود للملابس اللون الطبيعى لملابس العباسيين، وفى حالة الحداد يلبسون الملابس البيضاء.

(١٩٤) المقصود هنا أنهم ثاروا على الفرس، ووهبوا أنفسهم للموت؛ فقد كان اللون الأبيض علامة العزاء والحزن، وفى نفس الوقت رمز للثورة على الأسود اللون الرسمى للعباسيين. اتخاذ اللون الأبيض أو التبييض هو إعلان للثورة علنا.

DUVAL: HISTOIRE D'EDESSE P. 259.

(١٩٥) العهد القديم: إشعياء ٣: ٤/٥.

فجمع كل سكان مقاطعة فيس، وتحدث معهم قائلا لهم: "اليوم كما تعلمون ليس لنـا ملك ينتقم لنا من هؤلاء، فإذا تركناهم فسينقضون علينا ويأخذوننا أسرى نحن وكل ما نملك". فاستجابوا له فورا، وذهبوا خلفه ونصبوه قائدا لهـم، فـأدخلهم الكنيسـة المقدسة، وجعلهم يقسمون بالرب على أنهم سوف ينفذون كل ما يأمرهم به، وبأنهم لن يخالفوا أبدا أمره، ولن يتخلوا عنه على أى وجه من الوجوه.

لأنه تصدى للأمر بسرعة، ولأنه اتخذ الرب نصب عينيه، فقد قام بتجهيـز أتباعه، وعين رؤساء للجند وضباطًا يقودون كتائب، أو فرقًا تتكون من ألف مقاتل وسرايا من مائة وفصائل من خمسين وجماعات من عشرة، كما ثبت حراسًا علـى الأبواب و مداخل كل الممرات المؤدية إلى الجبال.

وخرج رجل يدعى "سودة"، فعاهد كل عرب ميافرقـاط علـى أن يـأتيهم برءوس كل عظماء الجبل، وأن يلقى بالآخرين فى السجن. بعد أن قطع معهم هـذا العهد خرج فى قوة عظيمة، وتقدم أهل الجبل كما لو كانوا يطلبون السـلم. عنـدما علم هؤلاء بحيلته الخادعة انقضوا عليه فجأة وقتلوا عددًا كبيرًا ممـن معـه، أمـا الباقون فقد ولوا الأدبار، وهربوا بفضل جيادهم ودخلوا المدينة. منذ ذلـك الوقـت حدث لهم شقاء كبير.

اتفق العرب والمسيحيون وقرروا عزل الحاكم الذى كان يقيم منذ عامين فى قلعة كليب، وقد رفضوا الخضوع له وثاروا ضده، وطلبوا منه أن ينزل من القلعـة وأن يستسلم وإلا فتكوا به. لقد قرر العرب أن ينزلوه من هناك خوفا من أن يلجـأ إلى أهل الجبل، كما طالبه السوريون بمغادرة المنطقة خوفا من خيانته لهم، ولكنـه رفض مطلب الفريقين، فقام بقيادة مجموعة من الرجال الأشرار، ونزل على رأس تلك القوات ودمر القرى وحملهم إلى القلعة، كما ارتكب كل أنواع الفظائع الوحشية هو وقواته، وقام بأسر كل السكان واستولى على كل ما يملكون.

بينما كان هؤلاء الرجال ينزلون بأهالى المدينة أقسى ألوان العـذاب أرسـل هؤلاء إلى يوحنا سرًا: "أسرع لنجدتنا وإلا أخذونا أسرى". عندما علم يوحنـا بمـا يقاسيه إخوانه عجّل بإنفاذ قواته. وفى الليل حاصر يوحنا القرية التى كـانوا بهـا، وأرسل إليهم ينذرهم بالخروج من القرية وأن يرحلوا بسلام، ولكـن القـائد رفض وخرج على رأس قواته مسلحين للقضاء على يوحنا وقواته، فانقض عليهم يوحنـا وأبادهم جميعا. لقد جلب عليه الرب الشر الذى كان قد اقترفه، وقذف به أمام يوحنا وقضى عليه.

كان يوجد أيضا فى الجبل أحد البارزين ويدعى "أسطفان بن بولس" من أبناء الجبل، وهو رجل مجرم ومخادع. لقد نقض العهد الذى أبرمه مع يوحنـا، فكـان يحيك له المؤامرات. كان ينوى أن يسلمه إلى العرب، فأرسل إلى القوات العربيـة، فجاء إليه "عوف" مع قوة كبيرة من القرية المسماة حـزرو،(١٩٦) واتفق معهم سـرًا على حضور يوحنا لتسليمه. لقد تصرف فعلا هكذا، ولكن الرب لم يـدع المجـرم ينفذ خطته. إن المؤامرة التى دبروها ضد الرجل البرىء حلت علـى رءوسـهم، فملأوا الخندق بجثث الذين حفروه، وأدخلوا "عوفًا" مع اثنين من زملائه فى منزلـه وخبأهم فى حجرة، واتفق معهم على أنه عند حضور يوحنا سيقوم بإدخالـه إلـى المنزل، وعندئذ يخرجون من مخبئهم ويقتلونه، كما وضع أيضا القوات فى كمـين عند قرية حزرو وأرسل بذلك فورا، ليقول ليوحنا: "تعالَ سريعا ولا تتأخر، لتـرى ما يجب أن نفعله، لأن القوات تحاصرنا من كل جانب". فـذهب يوحنـا الأمـين مسرعا كالحمل الوديع لا يرتاب فى شىء، ولما كان على وشك دخـول المنـزل، حيث نصب له الفخ، وجد هناك وفقا للإرادة الإلهية رجلاً مؤمنًا يخشى الله، كان قد علم بالخطة فأخبره بالخيانة، فعاد أدراجه سريعا. وبينما كـان هـؤلاء ينتظـرون وصوله لتنفيذ خطتهم أرسل قوة وحاصرتهم من كل جانب، لم ينج منهم أحد، بـل

(١٩٦) أضيف هذا الاسم فى هامش المخطوطة. وحزرو بلدة تقع فى الغرب، على بعد ٢٠كم من ميافرقاط، فى طريق آمد.

وقعوا جميعا فريسة للحراب. لم يعلم "أسطفان" بهذا الأمر ولا حتى عـوف قائـد القوات، ولكن عندما علما بما حدث لزملائهم امتطيا جواديهما اللذين كانـا معهمـا وعزما على الهروب، ولكن محاولتهما باءت بالفشل، لأن بعض الفرسان المهـرة اقتفوا أثر عوف، فأدركوه هو ورجاله وقتلوهم بحد السيف. أما عن أسطفان فعندما رأى أن خديعته وأن خديعة الشيطان والده قد انكشفت أصـابه الخـوف والرهـب وولى الأدبار، فقد كتبت له النجاة، فلجأ إلى المدينة ولم يذهب أبدا إلى الجبل.

ومنذ ذلك الوقت تضاعف العذاب. وقد اشتبك سكان الجبـال مـع العـرب واستمروا فى القتال يوميًا دون توقف، وقد استولى أهل الجبل على المضايق، ولـم يُشاهد عربىٌ واحد فى الجبل، ولكن ثمة عقبة أخرى واجهتهم من الداخل.

كان هناك شخص من أُرتيا[١٩٧] يدعى جريجوريوس، خرج علـيهم بقـوة كبيرة وهاجم سكان شاطئ حران وقتل منهم عددا كبيرا، وعمد إلى تشويه من بقى حيًّا، حيث قطع أيدى فئة وجدع أنوف وآذان فئة أخرى وفئة ثالثة كحلهم بالنار. أما سكان جبل **صهيا**[١٩٨] فقد سيطروا على أنفسهم وتبعوا يوحنا.

وفى البلاد الشرقية التحق بريكة بجناح الحاروريت، وفى منطقة الرها ثـار أيضا عبد الله بن البخترى، وألحق الأذى بعدد كبير من البشر وخاصة بيت معدى، حيث قبض على عظمائهم وشواهم كالأسماك على النار. وفى سبيل الحصول على الذهب قتل وأسر وأهلك كثيرا من الناس، لقد هدم كل معابد منطقة الرها وحـران وتلا، واستولى على كل ثرواتها، وأهـلك كل أشرافهم شيًّا بالنار. وإليك الأديـرة التى أبادها مع عدد كبير من الـقرى: دير **قوبا**،[١٩٩] ودير رشـمات فى طبشـة،

---

(١٩٧) بلدة تقع فى مقاطعة "هنزيط" فى جنوب أرمينيا. WRIGHT: JOSUE LE STYLITE P. 28.

(١٩٨) جبل صهيا، أى جبل " أريد". اسم علم لمنطقة على نهر دجلة. هذا الاسم يشمل أيضا بوجـه عـام= =المنطقة الجنوبية من طوروس التى تقع علـى حـدود "أرزون" و"ميافرقـاط و"آمـد" و"هنـزيط" و"سميساط". ASSEMANI: BIBL. OR. . I, 249

(١٩٩) دير قوبا أو دير القيب، فى لحف جبل الرها جنوبى بيعة مار قزما. أنشئ أوائل القـرن الخـامس، ودمره ابن البخترى عام ٧٥١م، وأعيد بناؤه فخرَّج ثلاثة أساقفة حتى عام ٨٧٣م. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص٥١٣)

ودير **القطرة**،[٢٠٠] ودير حسمى العظيم، ودير مار لعازر فى بيت معدى، ودير **مار هابيل**،[٢٠١] ودير مار ميلس، ودير **سنين**،[٢٠٢] وقرى كثيرة.

لقد صب هذا الكافر جام غضبه على الأديرة، وكان الشيطان قد وجه حقده تجاه الكنائس، كما كان دائم التهديد لأديرة الشرق والشمال، لكى يرضى حقد الأب الشيطان ويحقق انتقامه.

عن فصول الشتاء الثلاثة المتتالية قارسة البرودة، وعن الثلج الكثيف الذى سقط فى تلك الفترة، وعن إبادة المواشى والحيوانات والطيور التى نفقت بسبب الصقيع الشديد

فى نفس هذا العام الذى كانت به الفتنة سقط ثلج غزير وكثيف تراكم على الأرض، حتى وصل سمكه إلى **خمسة أشبار**،[٢٠٣] وظل على السطح لمدة تسعين يومًا، أما فى السهول فقد استمر لمدة سبعين يومًا، حتى إن البشر جميعا كانوا على شفا حفرة من الهلاك. إن كثيرين من أصحاب الدواب وأصحاب القمح، بعد أن استنفدوا الخزين المعد لتغذية الحيوانات، لجأوا إلى أخذ القمح المعد لغذائهم وأعطوه للحيوانات لإنقاذها من الموت جوعا. ولكن القمح لم يكف لإنقاذ المواشى، فنفقت كالجراد، حتى لحومها لم يستطع أحد من البشر أن يأكلها. حدث برد وجليد وثلج وصقيع شديد، وخيم الظلام على الأرض لعدة أيام، وكان حالكًا دامسًا، حتى إن الفرد كان يرى بصعوبة شديدة موطئ قدمه. وقد تركز الظلام على الأشجار

---

(٢٠٠) دير القطرة أو الناطف دير صغير قديم بالقرب من أمد، منقور فى الصخر، هيكله فى صدر جبل مطل على دير الزعفران. حوى رهطا من النساك، وتواترت عندنا أخباره منذ القرن الرابع عشر، ورئيسه أسقف أحيانا. ينسب إليه أربعة أساقفة. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ ص٥١٧)

(٢٠١) مار هابيل قرية فى كورة "سعرت" ليست عامرة. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ ص٥١٦)

(٢٠٢) دير سنين أو سنون يقع بالقرب من الرها، وذكر عامى ٥١٢ و٥٦٥م. خربه "عبد الله بن البختري" عام ٧٥١م. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ ص ٥١٦).

(٢٠٣) الشبر مقياس رومانى قديم بمسافة راحة اليد.

والكروم وأشجار الزيتون والحدائق مثل الثلج حتى أفسدها، ولم يكن هنـــاك أدنـــى شيء مهما صغر لم يصب من شدة الجليد والصقيع، وتجمدت مياه الأنهار حتى إن الجياد كانت تستطيع عبورها دون أن يتشقق الثلج تحتها، وتجمد أيضا نهر دجلـــة، وقد تمكنت قافلة كبيرة من الجمال من عبوره دون أن يذوب الثلج تحت حوافرهـــا. كل حيوانات الحقول وطيور السماء هلكت. وهكذا كان الثلج والبرد والصقيع مـــع الكمائن والفتنة والمرض والطاعون، واستمر كل ذلك لمدة ثلاث سنوات متتاليـــة، حتى أشرفت كل المنطقة الشمالية على الهلاك.

عن المجاعة التى حدثت فى تلك السنوات، وعن غزو شعب أرمينيا والأويغور لسوريا

لقد تراكم الثلج على كل الأرض لعدة أيام، وبمرور الوقت لم يظهر ســـطح الأرض. كل ما كان مزروعًا تعفن وفسد تحت الثلج وتيبس مـــن شـــدة الصـــقيع، وعندما اختفى الثلج لم ينبت شيء فيما عدا الحشائش الفاسدة والأشـــواك، وهكـــذا طُبق علينا هذا القول النبوى: **(وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتـــك وأكلـــت مـــن الشجرة التى أوصيتك قائلا لاتأكل منها ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منهـــا كل أيام حياتك. وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل)**،[٢٠٤] وأيضا: **(زرعوا حنطة وحصدوا شوكا، أعيوا ولم ينتفعوا بل خزوا من غلاتكم من حمـــو غضـــب الرب)**.[٢٠٥]

إن الأرض أنبتت لنا شوكا عليقا وحشائش فاسدة، وبدلا من القمح نبت لنـــا الشيلم، وبدلا من الشعير حشائش فاسدة، وبدلا من الفول نبت لنا عـــدس وحمـــص وأشواك. وإذا حدث أن نبت أى شيء أو حتى كبر فإن الرطوبة والهواء الســـاخن

---

(٢٠٤) العهد القديم: التكوين ٣: ١٧/١٨.
(٢٠٥) العهد القديم: إرميا ١٢: ١٣.

يهبطان عليه ويهدمانه. ما كان ينجو من البرد والصقيع والهواء الساخن كانت تقضى عليه الأرقة[٢٠٦] وسوس القمح، حتى إنك إذا أخذت عشر سنابل وسحقتها بين يديك لاتجد بها ولا حبة قمح واحدة. وأيضا بسبب الهواء الساخن، كثير من الحقول تُركت دون أن تُحصد، حتى ولو كان الحقل لونه ذهبيٌّ وفى هيئة تسر الناظرين، وذلك لأن السم الذى سقط عليه كان أحمر، وقد استقر على الأشجار كالصقيع فى أيام الشتاء، فلذلك تغير لون القمح إلى اللون الأحمر.

بخصوص تلك الأشياء نادى علينا النبى عاموس بقوله: **(ضربتكم باللفح واليرقان، كثيرا ما أكل القمص جناتكم وكرومكم وتينكم وزيتونكم فلم ترجعوا إلىَّ، يقول الرب. أرسلت بينكم وبأ على طريقة مصر، قتلت بالسيف فتيانكم مع سبى خيلكم وأصعدت نتن محالكم حتى إلى أنوفكم فلم ترجعوا إلىَّ، يقول الرب).**[٢٠٧] فى ذلك العام كان القمح يباع بدينار، ووصل إلى سبعة أقفزة بدينار.

عن سوس القمح والأرق التى ازدحمت بها الأرض فى تلك السنوات

عندما اقتربت أيام الحصاد وكان الجميع ينتظرون المحصول ظهر عدد كبير من الحشرات، وانقض على القمح وعلى كل الشعير وعلى كل الأعشاب. لم يظهر المكان الذى أبيد ولكن كل السنابل التى وقفت عليها الحشرات هلكت، ولما كان القمح على وشك النضج لم يلبث أن ييس ولم يبق فيه شيء سوى القشرة. لقد وصفه الخبراء بأن تلك الحشرة كانت تمتص المادة الحيوية من السنابل مما يفقدها قوتها، ولم تلبث أن تغير لونها.

---

(٢٠٦) الأرق: جنس حشرات عسلية.

(٢٠٧) العهد القديم: عاموس ٤: ٩/١٠

كان يطلق على هذه الحشرات اسم سوس القمح وأرقه، لأنهما لم تكونا تنتميان إلى جنس واحد ولا نوع واحد. الذى كان يسمى سوس القمح كان مستديرا ومتعدد الألوان، أما الأرقة فكانت مستديرة أيضا ولكن صغيرة، لها مبسم طويل مثل متك الذبابة ومتك **النعرة**[٢٠٨] وبها بقع بعدة ألوان.

وفقا لرأى الحكماء فإنها هى نفسها الكارثة التى أرسلها موسى قديما إلى المصريين وهى **الجندب**[٢٠٩] والجراد وجحافل الحشرات. إن هذه الآفة لاتصيب شيئًا إلا القمح. كانت تلك الحشرات تتسلق سيقان القمح والشعير، وتلتهم كل ما يصادفها من الأوراق بدءًا من الجذر حتى القمة.

عن الجندب

كان هناك أيضا عدد كبير من الجنادب التى أتلفت الكروم والأشجار وكل الثمار، لم نجد مكانا للسير عليه وذلك لكثرتها. كانت تلك الحشرة منتشرة فى كل مكان، وذلك لأن الأرض نفسها هى التى لفظتها وأخرجتها فأفسدت الكروم والأشجار والثمار والزرع وكل ما يحقق فائدة للبشر.

عن الجراد

إنه مكتوب فى الأنبياء: **(أسلم للجردم غلتهم وتعبهم للجراد)**،[٢١٠] التى هى جرادة مزودة بأرجل وليس لها أجنحة للطيران أو التنقل، وكان ضررها أكثر إيذاء وأفظع وقعا من مقارع الغضب. لقد قيل عن الأرق: "لو سقط على هرى قمح

---

(٢٠٨) النعرة ذبابة كبيرة تلسع أنثاها الإنسان والحيوان وتمتص دمه.

(٢٠٩) الجندب حشرة صغيرة من جنس الجراد، وقد ورد ذكرها فى الكتاب المقدس ضمن ما يؤكل. (قاموس الكتاب المقدس، عن مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى ص ٢٧٥)

(٢١٠) العهد القديم: المزامير ٧٨: ٤٦.

سيقضى عليه". لقد ثبت هذا فعلا، لأنه عندما كانت تهبط على حقل ملىء وعلى وشك الحصاد، فى هذه الحالة يعتبر القمح ضائعا. كانت السنابل تشاهد فى الظاهر مليئة وجميلة ومنتفخة، ولكن عند دهسها نجد جوفها خاويًا وقد تحول ما بداخله إلى دقيق، فإذا حاولنا زرع هذا القمح فإنه لاينبت أبدا لأنه فاسد.

إن المنطقة السفلى لم تستثن من تلك الكارثة. الأرض كلها أنتجت الجراد الذى انتشر وأفسد الزرع والكروم والحدائق والأشجار وكل عشب أخضر. إن النبوءة التى تفوه بها النبى يوئيل قد تحققت فينا: (**اسمعوا هذا أيها الشيوخ وأصغوا يا جميع سكان الأرض، هل حدث هذا فى أيامكم أو فى أيام آبائكم؟. أخبروا بنيكم عنه وبنوكم بنيهم وبنوهم دورًا آخر. فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار**).[٢١١] لقد حدث لنا أسوأ مما جاء فى النبوءة نفسها. إن الثلج والصقيع أهلكا كل الأشجار وكل الذى نجا من الهلاك أتى به القيظ والجراد والجندب والأبرة وجحافل الحشرات حتى إن المجاعة اشتدت على البشر بأقصى درجة. بدأ القمح يتناقص فى الأجران حتى وصل سعر الجريب الواحد إلى دينار وأحيانا سبعة أقفزة بدينار ولا يوجد.

عن شعب أرمينيا والأويغور الذين غزوا سوريا بسبب المجاعة، وعن العدوى والبثور والطاعون ومختلف الأمراض التى انتشرت فى البلاد عند وصولهم

لقد أنزل الرب أضرارًا فادحة على القمح وعلى الشعير وعلى الكروم وعلى ما من شأنه أن يقيم حياة الإنسان، وذلك بسبب المساوئ والآثام التى تقترفها فى الدنيا كل يوم. لقد اشتدت المجاعة فى كل البلاد وخاصة فى أرمينيا وبلد الأويغور، وذلك لأن كل محاصيلهم قد هلكت ولم يبق لديهم شىء يتعيشون منه، أى عندما

---

(٢١١) العهد القديم: يوئيل ١: ٢/٣/٤.

يريد الرب فإنه يجففه بالبرودة وعندما يريد مرة أخرى يجففه بالحر، إذن فهنا قد جف بالبرد.

كل أهالى أرمينيا هاجروا هروبا من المجاعة التى حلت بهم، وخرجوا وغزوا سوريا خشية الموت جوعا هم وأولادهم، ولكن لم ينج أحد من هذه الكارثة: **(لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم. وأبددهم فى أمم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم السيف حتى أفنيهم).**[٢١٢] إن الروح القدس قالت هذه الأشياء، وقد تحققت جميعها فيما بينهم. لقد خرجوا وملأوا البلاد كلها المدن والأديرة والقرى والحقول، لقد باعوا كل ما يمتلكون ليشتروا خبزًا فكان ذلك سببا فى انتشار المجاعة فى المنطقة كلها.

لقد تفشى فيهم أولا مرض القروح ثم الدوسنتريا ثم الطفح الجلدى، وكثيرا ما كنا نجدهم يتسكعون عند البوابات والأبنية والكنائس والأبراج وفى كل مكان. وقد تمكن منهم أيضا الطاعون، فراح ضحيته عدد كبير حتى إنه لم يتبق هناك بشر لدفنهم. كانت يد العرب تتابعهم حيثما ذهبوا لتنزل بهم الغضب. إن كارثة المجاعة والقروح والطفح الجلدى انتقلت أيضا إلى السوريين وقضت على الكثيرين منهم، ولكن عدد ضحايا الجوع كان أكثر من ضحايا الأمراض. لقد مات فى ذلك العام فى ديرنا بمنطقة زوقنين بسبب الطفح الجلدى اثنان وأربعون رجلا من البلدة فضلا عن الأجانب. هذا المرض والطاعون اشتدّ فى كل مكان.

عام ١٠٦٣ يونانية (٧٥٢-٧٥٣م) عاد **الفرس**[٢١٣] إلى البلاد بقوات غفيرة، لقد قضوا على كل من أراد التصدى لهم، وأوقعوا كثيرا من الأذى بعرب الموصل والرقة، وكذلك قتلوا الشيب والشبان.

---

(٢١٢) العهد القديم: إرميا ٩: ١٥/١٦.

(٢١٣) يقصد بالفرس العباسيين الذين بدأ حكمهم عام ٧٥٠م. لقد أطلق عليهم تيوفان اسم "خراسانيين" و"أصحاب الرداء الأسود". هذه الأسماء كانت بدايتها فى خراسان، أى فارس الشرقية، حيث ثار العباسيون ضد الأمويين، وقد ارتدوا الملابس السوداء، لكى يكونوا مميزين عن بقية الأهالى ولكى يتعرفوا على أتباعهم وأنصارهم.

قام **عبد الله بن محمد**(٢١٤) شقيق ملك الفرس بمهاجمة بريكـــة بجـــوار دارا وهزمه، ففر بريكة هاربا، ولما سمع عبد الله بكل الأضرار التـــى ألحقهـــا عـــرب ميافرقاط بالسوريين فى بلادهم، وأيضا ما قام به السوريون، أرســـل رســـلاً إلـــى يوحنا، وعلى الفور اتجه يوحنا إلى حران حيث استقبله عبد الله بســـرور وبحفـــاوة بالغة، وأكرمه ووهبه هبات كثيرة، وعينه رئيسا لبلدته وأرسله إلى هناك.

ذهب **صالح بن صابح**(٢١٥) إلى أرمينيا حيث لمع نجمه هناك، فأخذ رهـــائن من كل الجبل وتحفظ عليهم فى ميافرقاط للقاء عبد الله قبل عودة يوحنا إلى حران، فجاء يوحنا ومعه رسالة تقضى بتسليمه الرهائن. وعند وصوله قام صالح بـــإطلاق سراح كل النساء من بين المتحفظ عليهم، ولكن لأن عرب ميافرقاط قد أغدقوا على صالح الهدايا لكى ينتقم لهم من يوحنا ومن أعوانه كان يؤجل ذلك قائلا: "اليـــوم أو غدًا سأرسل بالباقين". لقد ظلوا هكذا فترة طويلة، حتـــى تمكنـــت مـــنهم مختلـــف الأمراض، وكثير منهم ماتوا فى السجون. استمر يؤجل إطـــلاق ســـراحهم لفتـــرة طويلة، لأنه كان يتحين الفرصة لكى يقتلهم ويقتل يوحنا وبذلك يدخل السرور على قلوب عرب ميافرقاط. قام يوحنا بإرسال رسل إلى عبد الله الذى كان واليـــا علـــى الجزيرة، مستنجدا به. وفى صباح نفس اليوم الذى عزم فيه صالح علـــى صـــلب يوحنا وصل رسول من عبد الله وأخرجه من السجن، وذهـــب إلـــى حـــران مـــع **أسطفان بن بولس.**(٢١٦) لقد أنزل الرب على رأس أسطفان كل ما كان قد اقترفـــه من أذى، فضربه وقضى عليه هناك، وعندئذ أرسل يوحنا رسالةً أفرج فيها فـــورًا عن كل من كان محبوسا رهينةً لدى صالح.

---

(٢١٤) هو عبد الله بن محمد الإمام بن على بن عبد الله بن العباس، المعروف بالخليفة المنصور. بويع لـــه بالخلافة سنة سبع وثلاثين ومائة. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص١٢٥)

(٢١٥) يبدو أن هذا الشخص هو "صالح بن على"، من سلالة العباس، وعم السفاح والمنصور. عينـــه ابـــن أخيه حاكما على سوريا عام ١٣٧هـــ (٧٥٤- ٧٥٥م). أقام صالح فى حلب وتوفى عام ١٥٢ هـــ (٧٦٩م). LEBEAU: HISTIOIRE DU BAS EMPIRE TXII. P.252 No2

(٢١٦) أسطفان بن بولس الذى خلفه زكريا، توفى يوم ٢٤ مايو عام ٧٥٢م.
LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII. P.208.

عام ١٠٦١ يونانية (٧٤٩-٧٥٠م)[٢١٧] جاء **قسطنطين**[٢١٨] إمبراطور الرومان فى قوات غفيرة، وقام بتدمير ملطية وخربها وطرد أهلها، ولكنه لم يقتل أحدا ولم يستول على شيء، بل اكتفى بإخراجهم وطردهم منها. فساروا إلى الجزيرة فهدم سورها وحرق منازلها، وعاد بقواته من حيث أتوا.

عام ١٠٦٤ يونانية (٧٥٢-٧٥٣م)[٢١٩] قام الفرس بهدم البلاد، ولكنهم عادوا مرة ثانية فاحتلوا المدينة ومواقعها الحصينة، وفرضوا سيطرتهم وحكمهم عليها. لقد أمر ملكهم بهدم كل أسوار المدن السورية، فجمعوا عمالا وفنيين بأعداد كبيرة، فحطموا الأسوار وأحرقوا كل الأبواب، واستولوا على كل النحاس والحديد الموجود. دمروا وسحقوا كل ما خلفه الملوك والحكماء وأنفقوا عليه أموالا طائلة لاستخدامه فى صد الأعداء، وقد تحقق فيهم قول إرميا: **(هكذا قال رب الجنود: إن أسوار بابل العريضة تدمر تدميرا وأبوابها الشامخة تحرق بالنار فتتعب الشعوب للباطل والقبائل للنار حتى تعيا)**،[٢٢٠] وقال أيضا: **(قصد الرب أن يهلك سور بنت صهيون، مد المطمار، لم يرْدُد يده عن الإهلاك وجعل المترسة والسور ينوحان، قد حزنا معا)**.[٢٢١] فليحضر الآن النبى إرميا وليبكِ، ليس فقط على مدينة صهيون فحسب التى هدمت أسوارها، ولكن أيضا على كل مدن الجزيرة والشرق. وقد تحدث عزرا الناسخ أيضا عن هدم الأسوار وعن هذا الثعبان السام الأرقط الذى دمرها، فسوف يدمر الأسوار التى لم تشفق عليه.

عام ١٠٦٥ يونانية (٧٥٣-٧٥٤م) نهب **كوشان**[٢٢٢] كل المنطقة الشمالية. كان هذا الرجل أرمنى الأصل ينتسب إلى أرمينيا الرابعة. بعد هزيمة مروان

---

(٢١٧) هنا رجوع بالتاريخ والأحداث.

(٢١٨) هو قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥م). فى عام ٧٥١م هاجم بحملة على حدود العرب فى أرمينية، فاستولى على أرضروم وملاطية. (أسد رستم: الروم ج١ ص٢٩٤)

(٢١٩) الرجوع بالأحداث والتواريخ إلى التسلسل.

(٢٢٠) العهد القديم: إرميا ٥١: ٥٨.

(٢٢١) العهد القديم: مراثى إرميا ٢: ٨.

(٢٢٢) فى عام ٧٥٢م هاجم كوشان أمير الجزيرة، الذى كان يحكم أيضا أرمينيا. جمع قوات أرمينية وأيبيرية وانقض على المنطقة الشمالية، وكانت القوات الرومانية مرابطة على الحدود، فتلقت الأمر بالانضمام إليه فهاجم واستولى على ملطية.

LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T XII P. 209.

وفراره استولى على ممتلكاته وأسر عائلته ودخل بلاد الرومان، ونظرًا لما أبداه من شجاعة وجرأة فقد نصبه قسطنطين قائدًا، فخرج فى هذا العام على رأس قوة كبيرة ونزل عند جبل صهيا. لقد أسر وسلب ونهب فلاحى تلك المنطقة، إذ استولى على ثرواتهم وكل ما يملكون، ولم يدع لهم شيئًا سوى حياتهم. وبعد أن حمل معه كل ما وقعت عليه يده عاد إلى بلاد الرومان.

عام ١٠٦٦ يونانية (٧٥٤-٧٥٦م) عاد كوشان الأرمنى لغزو هنزيط بقوات غفيرة من الرومان وأهل أور. عندما علم عكى أمير الجزيرة فى ذلك الوقت جمع قوة كبيرة من الفرس والعرب، ونصب ابنه قائدا عليها وسيره لملاقاة كوشان، فتقدم بكل ما فى الشباب من حيوية وإقدام، والتقى الفريقان. ولكن نظرا لأنه استهان بعدوه، ولما يقتضيه عليه الشباب من تهور واندفاع، ولعدم درايته الكافية بإدارة المعارك، ولأنه لم يكن يأبه بالمشورة، فقد جاءت نتيجة المعركة وبالا عليه.

كان قدامى المحاربين الذين عركتهم الحروب وأكسبتهم المعارك خبرة وحنكة، كانوا يصرفونه عما اعتزم الإقدام عليه، وينصحونه بالتريث وعدم العجلة فى مقاتلة كوشان. كانوا يقولون إن كوشان رجل متمرس على فنون الحرب صعب المراس، لايسلم لعدوه بسهولة، فضلا عن أنه على دراية تامة بالبلاد وتضاريسها، لأنه ولد و نشأ وترعرع على أرضها. ولكنه لم يعبأ بما قدمه له قدامى المحاربين من نصح. وكان "رحبعام" الجديد شابًا أحمقَ متهورًا، يعمد إلى تلبية رغبات ملك العرب والشبان المحيطين به والذين فى مثل سنه. وبسبب هذا التعجل فى الأمور لتحقيق شهرة واسعة، إذا به يجلب على نفسه العار والاحتقار فى أعين كثير من الأجيال الجديدة.

كان يتقدم بخطوات سريعة، لأنه كان يريد أن ينقض فجأة على كوشان، وأن يمحو أثره من الوجود هو ومن معه، وأن يأسر الباقين وينهب ويخرب، ثم يعود متوجا بإكليل النصر. عندما رأى كوشان تهوره ورعونته وثب عليه وسخر منه هازئا ووضع يده على رأسه قائلا: (**هذا هو اليوم الذى صنعه الرب، نبتهج ونفرح فيه**).[٢٢٣]

---

(٢٢٣) العهد القديم: المزامير ١١٨: ٢٤.

عندما نشبت الحرب وبدأ القتلى يتساقطون من الجانبين بذل كوشان مجهودا عظيما فى محاربة الفرس الذين فروا من أمامه. لقد سقط عدد كبير منهم بحد السيف، وأسر كوشان الكثيرين، ثم سلب ونهب ممتلكات القتلى وثرواتهم. وقد هرب "ابن عكى" ممتطيا صهوة جواده، وأسلم ساقيه للريح تاركا قواته وعتاده غنيمة للرومان، فيما عدا فئة قليلة من الفرسان الذين تمكنوا من الفرار بأنفسهم، مخلفين وراءهم كل عدتهم وعتادهم، ولم ينج من القتل غير هؤلاء.

بينما كان هذا الشاب فى عجلة من أمره لتحقيق الشهرة والنصر جلب على نفسه وعلى أسرته العار والخجل والازدراء، وحينما كان يمنى نفسه بأن ينهب ويخرب ويأسر العديد نُهبت قواته وتم أسرها، كما تم الإلقاء بها فى غياهب السجون.

فى تلك الفترة برز من بين القساوسة الأرثوذكس المشهورين فى الكنيسة القديس مار يوحنا بطريرك أنطاكية، والقديس مار ميخائيل بطريرك الإسكندرية الكبرى، والقديس مار تيموتاوس أسقف الرها، وقسطنطين أسقف سميساط، وديونسيوس أسقف حران، وسرجون أسقف ماردين، وداود أسقف دارا الذى أصبح فيما بعد بطريركا. كما اشتهر فى ميافرقاط أثناسيوس المسمى صندلايا، والذى قام ببناء دير عظيم فوق **تل بشم (تل بسما)**[٢٢٤] أطلق عليه اسم دير مار أثناسيوس، وهوالذى أصبح أيضا فيما بعد بطريركا، وفى آمد لمع اسم القديس مار أبا من دير مار حبيب من أرزنين، كما برز القديس مار ساويرس الذى سبق الحديث عنه آنفا من دير زوقنين، والذى خُلع فى حياته من حكم تلك المدينة، لأنه كان ضعيف البصر ولا يرى جيدا، وقد نُصب مار أبا خلف له.

فى تلك الفترة كان من المشهورين أيضا يوحنا أسقف الرقة الذى أحدث اضطرابات فى الكنيسة سوف نتناولها فيما بعد. وقد جاء خلفا للقديس مار يوحنا

---

(٢٢٤) تل بشم أو تل بسما بلد من نواحى ديار ربيعة من ناحية سجستان شمال غربى ماردين. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٥)

بطريرك أنطاكية راهب يدعى إسحاق من **دير قرتمين**.[٢٢٥] وقد أقام في الرها، وحيث إنه كان عاكفا على علم الكيمياء لاستخلاص الذهب والفضة فقد حصل على صداقة عبد الله أمير الجزيرة الذى آل إليه ملك العراق فيما بعد. ولما كان الأمير يريد أن يظهر له اعتزازه بصداقته فقد اختاره بطريركًا لأنطاكية بعد القديس مار يوحنا.

ولكن المناصب المكتسبة بلا شرعية تكون دائما وبالا على صاحبها، فقد رفع الأمير صديقه عاليًا ثم لم يلبث أن شنقه مثل يهوذا. إن إسحاق لم يستقبل بحفاوة كبيرة من الشعب، ولم يستمر حكمه طويلا، لأنه لم يأت عن الطريق المشروع، فقد رفعه صديقه ثم هوى به وقتله ولم ندر ماذا حدث لجثته. لم يكن حتى جديرا بأن يقوم أحد بإيداع جثته مثواها الأخير. تلك هى عادة الشيطان فى مكافأة الذين يقتفون أثره فى هذا العالم.

إن مار **أثناسيوس السندلى**[٢٢٦] أسقف ميافرقاط المحترم جاء خلفا لإسحاق، ولكنه أيضا لم تطل أيامه لأنه هلك فجأة ووافاه الأجل. لقد ادعى البعض معرفة طريقة موته، وادعى آخرون معرفتهم طريقة أخرى، أما نحن فلا نعطى أنفسنا الحق فى أن نتناول أمورًا خفية، وإنما نترك الأمر للرب الذى يعلم حقيقة الأمور وأسرارها، وقد أخذناه وحملناه من حران إلى ديره حيث دفن فيه. وجاء خلفا له القديس مار جورجيوس من **دير قنسرين المقدس**.[٢٢٧]

---

(٢٢٥) دير قرتمين من أشهر ديارات "طور عبدين" شرقى "مديات" وغرب ماردين، شيد عام ٣٩٧م. (ذخيرة الأذهان فى تواريخ المغاربة والمشارقة السريان، الموصل ١٩٠٥ ج١ ص٣٧٠)

(٢٢٦) أسقف الرقة. وقد أفاض ميخائيل الكبير فى الكلام عن تعيين إسحاق بطيركا وعن السندلى والبطريرك يوانيس. (تاريخ ميخائيل السريانى الكبير ٢٥٠)

(٢٢٧) من أشهر الأديرة عند اليعاقبة. كان يقع بجوار بلدة بهذا الاسم على مسافة يوم جنوب حلب، وكان هذا الدير معروفا أيضا باسم "دير توما الرسول"، وقد أنشئ حوالى عام ٥٣٠م، وفاضت شهرته حتى القرن التاسع، وحوى أيام عمارته ثلاثمائة وسبعين راهبا. أحرقه بعض الخوارج فرمسه "ديونسيوس التلمحرى" وأعاده سيرته الأولى عام ٨٢٢م، وظل عامرًا حتى صدر المائة الثالثة عشرة. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص٥١٣)

عن اجتماع السينودوس لانتخاب جورجيوس بطريركا لأنطاكية في مبوج - مدينة على نهر الفرات - في كنيسة مار توما الرسول المقامة خارج البلدة

إن المشاكل العديدة التى ترتبت على انتخاب البطريرك إسحاق وأيضا البطريرك أثناسيوس صندلاى أقلقت المؤمنين، وأغضبت الكثيرين من أبناء الكنيسة، وخاصة أن هذين البطريركين كانا مفروضين عليهم من قبل الأمير الطاغية، وأيضا لأسباب أخرى لانرى داعيًا لعرضها فى هذا الكتاب.

بعد وفاة أثناسيوس المحترم أراد كل رهبان الكنيسة المقدسة أن يختاروا من بينهم رئيسا، قبل أن يبث الشيطان بينهم بذور حب السيادة، ويقعوا فى أيدى الطاغية القوية، خشية من أن تكون النهاية أسوأ من البداية ولأن الانقسام والفتنة والاضطراب فى أيامهم قد دبت فى الكنيسة المقدسة آنذاك، غير أنه حدث كما قال الحق: **(لأنى ارتعابا ارتعبت فأتانى والذى فزعت منه جاء علىّ).**[٢٢٨]

لم يسد السلام ولا الهدوء، ولكن الاضطراب الذى كانوا يخشونه لم يلبث أن وقع بينهم. إن جميع رهبان الموصل والجزيرة والشرق لم يكن لديهم سوى رغبة واحدة، لقد أجمعوا على فكرة واحدة وبإجماع منهم واتفاق تام. فقد اجتمع كل الرهبان مع نبلاء ومؤمنى مدينة مبوج فى **كنيسة مار توما.**[٢٢٩] واستمر الاجتماع يوما أو يومين، وتشاوروا فيما بينهم حول عدد من الشخصيات، ودار بينهم نقاش حاد وطويل بين مؤيد ومعارض.

---

(٢٢٨) العهد القديم: أيوب ٣: ٢٥.

(٢٢٩) أقام النصارى كنيسة أو بيعة مار توما، وهى من البيع العظيمة. وقد حاول قوم من السوقة نهبها عام ٣٩٢هـ (١٠٠٢م). ولما أضرموا النار فيها سقطت على رءوسهم وهلك تحت أنقاضها جمع من الرجال والنساء والأطفال. وقبر فى هذه الكنيسة "يحيى بن عدى التكريتى" المتوفى عام ٩٧٥م. (ابن العبرى: التاريخ الكنسى ج٣ ص٢٦٧)

كان هناك رجل من **بعلتان**[٢٣٠] من دير قنسرين المقدس، كان يعيش بينهم في سلام، وكان مشهورا بينهم بأعماله التى تقوم على تقوى الله. كان رجلا معروفا بارزا متحليا بكل الفضائل، وكان يدعى جورجيوس. لقد تلقى أمرا فى أبرشيته اتفقت الآراء عليه، وبنفس الرغبة والإرادة وقع اختيارهم على انتخاب هذا الرجل، ولكنه كان قد أُبعد فاختاروا من بينهم على الفور عددًا من الرجال الأفاضل، وأرسلوهم لاستقدامه إليهم. وعندما وصل تقدم الجميع إليه وعبروا له عن رغبتهم، فكتبوا وثيقة برغبتهم وقدموها إليه بعد أن وقع عليها عظماؤهم: يوحنا من الرقة، وتيموتاوس من الرها، وداود من دارا، وأبا من آمد، وسرجون من ماردين، وأسطفان من **حابوراء**،[٢٣١] وقسطنطين من سميساط، وقرياقوس من طور عبدين، وديونسيوس من حران، وإليا من سنجار. ومن الموصل بولس من تكريت، وزكا من **كرمية**،[٢٣٢] ويونان من بيت **نهادرا**[٢٣٣] مع كثيرين غيرهم، وبين الشرقيين كان يوجد...[٢٣٤] كتبوا الوثيقة وأقروها ووقعوا على القرار، وكانوا على وشك أن يضعوا أيديهم للتبرك، وذلك وفقا لقوانين الكنيسة، إذ بالشيطان عندما رأى أن السلام يوشك أن يسود الكنيسة لا يتوانى ولا يهدأ ولا يقر له قرار، فعلى الفور استدعى قسًّا كان يقيم فى المنطقة، لأنه لم يستطع أن يتكلم أمام المجتمعين خوفا من أن تتكشف خديعته ويتضح أمره بينهم. وهذا شبيه بما فعله مع أبوينا فى الجنة إذ اختار لهما ثعبانًا تقمصه واختبأ فيه، وعن طريقه نفذ كل خططه. هنا اختار له راهبًا تابعًا له، وعن طريقه نفذ كل رغباته. هذا الراهب كان يدعى يوحنا، وكان يقيم فى عزلة تامة بناحية **تل أبشوم**.[٢٣٥] لقد عاش فترة طويلة فى

---

(٢٣٠) بعلتان قرية مندثرة، كانت جنوبى حمص. (أغناطيوس أفرام الأول:اللؤلؤ المنثور ص٥٠٥)

(٢٣١) حابوراء ولاية واسعة وبلدان كثيرة على نهر الخابور، بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة، غلب عليها اسم نهرها فنسبت إليه. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص٥٠٧)

(٢٣٢) كرمية قرية من أعمال الموصل من المروج، تقع على نهر دجلة وليست بعيدة عن تكريت. (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٤ ص ٤٥٦)

(٢٣٣) نهادرا أسقفية تقع شمال الموصل على نهر الزاب فى ضواحى مرجا
AINWORTH: JOURN. GEOG. SOC. II. P. 58

(٢٣٤) هنا سطر أبيض فى المخطوطة.

(٢٣٥) يوجد تل بهذا الاسم بجوار آمد (ديار بكر). BAR- HEBAEUS: CHRON. SYR. P. 306.

عزله، ولما كان على معرفة بجورجيوس فقد جاء والتقى بأساقفة الجزيرة، وخاصة أساقفة قرتمين، وقال لهم: كيف تريدون أن تنصبوا بطريركًا عليكم رجلا قد هدد بهدم ديركم قائلا: "إذا كانت لي الهيمنة في الكنيسة لكنت قد محوت من على وجه الأرض اسم قرتمين وكذلك اسم دير أثناسيوس".

ولقد أثارهم هذا الراهب كما أثار غضبهم بأعمال كثيرة مشابهة. هؤلاء الذين لم يعرفوا جورجيوس المحترم حق المعرفه افتتنوا بأحاديث الراهب ووثقوا بها، دون أن يعلموا أن مصدر قوته هو الشيطان. فقد خلعوا ملابسهم وأسرعوا يمتطون جيادهم راجعين إلى بلادهم، والذين بقوا عندما رأوا أن أصدقاءهم قد رحلوا ازداد قلقهم وخوفهم، فقد خافوا أن يثيروا الانقسام والاضطراب داخل الكنيسة إذا تم تنصيب بطريرك أثناء غياب مريديه، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لأنهم أتوا بهذا الرجل الذي كان على وشك أن يقع عليه الظلم وأن يلطخ اسمه وسمعته في العالم، لأن الأمر لم يخل تماما من الحاقدين، ولاسيما من كانوا يدبرون المؤامرة من وراء الستار. هؤلاء الذين بقوا عندما رأوا أن الصالحين والحاقدين بصفة خاصة قد ثابوا إلى رشدهم أخذت ضمائرهم تؤنبهم على ما اقترفوه تجاه هذا الرجل، فأحضروه فورا ونصبوه. وكان من بين أهل الجزيرة تيموتاوس من الرها، وأبا من آمد، وقسطنطين من سميساط، ويوحنا من الرقة، مع باقي الموصليين والشرقيين.

أما الذين قد تعجلوا في الرحيل فقد وقعوا فريسة الإثارة والفتنة؛ عندما رحل كل منهم وعاد إلى بلده لم يكف الشيطان عن ملاحقته بإثارة الفتنة بينهم. لقد أثارهم حتى إن كثيرين من بين أهل الجزيرة اجتمعوا واختاروا يوحنا أسقف الرقة من **دير قرقفتا**[٢٣٦] المقدس، الذي تنصل من اتفاقه ووعوده وسخر من توقيعه على القرار، فوقع فريسة لطموحه وأصبح بطريركًا.

---

(٢٣٦) يقع هذا الدير في منطقة الخابوراء، ليس بعيدا عن رأس العين. بناه مار شمعون، واشتهر أمره في القرن الثامن، وقد اندثرت معالمه منذ عهد بعيد. (أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور ص٥١٢)

منذ ذلك الوقت سقط الذين كانوا يرتدون الزى الثمين المقدس فى السخرية والازدراء واللعنات. كثيرون لعنوا هذا الاتفاق، وهكذا انتشرت الفتنة فى الكنيسة فى تلك الفترة. ومنذ ذلك الوقت أى إهانات وأى خزى وأى وشاية وأى مكر لم يحدث بينهم، حتى وضعت الأغلال فى أيديهم وألقى بهم فى السجون بقوة الطاغية. تلك هى الأضرار التى حلت بالكنيسة والرهبان، وذلك بواسطة هذا القس الشرير الذى لعب دور الثعبان الأملس السام الذى أدخل الفتنة فى الكنيسة عن طريق أحاديثه ونصائحه.

عام ١٠٦٥ يونانية (٧٥٣-٧٥٤م) مات عبد الله بن محمد ملك الفرس، وفى ذلك الوقت انقض على كرسى السلطة شقيقه وابن عمه عبد الله بن على، ومنذ ذلك الوقت لم تشهد البلاد سوى سفك الدماء، ووقع بينهم كثير من الضحايا.

إن جميع الشرقيين وعرب الجزيرة كانوا يناصرون ابن على، وكانوا يأتمرون بأمره، ويعملون على تنصيبه ملكا؛ فأخذوا الأبيض وخرجوا خلفه. ولكن الفرس وأهل خراسان كانوا على الطرف الآخر يؤيدون عبد الله بن محمد. وبعد أن التحموا فى معارك كثيرة فى أماكن شتى، وسفكت دماء غزيرة من كلا الجانبين غطت مساحات شاسعة من وجه الأرض، انتهت بموقعة فاصلة عند نهر ماش[٢٣٧] قرب نصيبين، إذ استمرت المعارك عدة أيام، ومات من الجانبين أعداد غفيرة. وأخيرا هُزم عبد الله بن على على يد أبى مسلم الفارسى وتشتت قواته فولى الأدبار، وتوفى فى السادس والعشرين من تشرين الثانى(نوفمبر) يوم الثلاثاء فى أول صلاة الستار[٢٣٨] ليوم الأربعاء.

وعندما هزم ابن على تولى عبد الله بن محمد الحكم لمدة...[٢٣٩] سنوات. وفى نفس ليلة هزيمة ابن على أجرى الرب معجزة كبرى، فإن شهابا عظيما

---

(٢٣٧) نهر ماش أو ماسيوس.
(٢٣٨) صلاة الستار هى صلاة العصر عند المسيحيين.
(٢٣٩) كلمة ناقصة هنا فى المخطوطة.

ومفزعا شق السماء وهوى فى الجو إلى أن سقط عند الغروب وسط قوات ابن على على هيئة لهب من النار. عندما رأى العرب ذلك تملكهم اليأس وتبدد كل أمل لديهم، حيث أظلمت عيونهم وخارت قواهم، لأنهم عرفوا على الفور أن هذا إنما حلّ عليهم من قبل الرب، ولم يطيقوا أكثر من ذلك.

عام ١٠٦٦ يونانية (٧٥٤-٧٥٥م) فى شهرى تشرين(أكتوبر ونوفمبر) أثمرت الأشجار كمثرى وخوخا وشتى أنواع الفاكهة، كما لو كان ذلك فى نيسان أو أيار (أبريل أو مايو)، وأخرجت كل الأراضى محصولا وفيرا فى ذلك العام.

عام ١٠٦٧ يونانية (٧٥٥-٧٥٦م) فى ليلة يوم الثلاثاء الثالث من شهر آذار(مارس) وقعت هزة أرضية عنيفة فى منطقة الجزيرة، دمرت ثلاث قرى بناحية حابوراء، وسحقت الكثيرين من أهلها كالعنب فى المعصرة، وقضى عليهم، وتهدمت بلاد أخرى كثيرة على أثر الهزة الأرضية هذه، وذلك بسبب ما اقترفته أيدينا من ذنوب، **(ترنحت الأرض ترنحا كالسكران وتدلدلت كالعرزال وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم).**[٢٤٠] إن سيئاتنا كفيلة بأن تجلب علينا هذا، وأن تزعزع الأرض تحت أقدامنا.

منذ عام ١٠٧٠ يونانية (٧٥٨-٧٥٩م) وقعت اضطرابات بين المسيحيين الشرقيين بسبب الصوم الكبير. لقد بدأ بعضهم الصوم فى الثامن عشر من شباط(فبراير) وأتموه فى السادس من نيسان(أبريل)، والبعض خالفوهم فبدأوه فى الخامس والعشرين من شباط(فبراير) وأتموه فى الثالث عشر من نيسان(أبريل)، وبذلك وقع الاضطراب بين المسيحيين كلهم؛ ففى مكان احتفل بالقيامة وفى مكان آخر احتفل بالسعف، أى أن البعض كان يمجد آلام المسيح والبعض الآخر يحتفل **بعيد الفصح.**[٢٤١] حدث أيضا فى المدن مثل ما حدث فى الكنيسة، كنا نحتفل بعيد

---

(٢٤٠) العهد القديم: إشعياء٢٤: ٢٠.

(٢٤١) عيد الفصح من أعياد المسيحيين الرئيسية، يعيدون فيه ذكرى العشاء الأخير، ويقع فى الاعتدال الربيعى. (تواريخ سريانية ١٩)

الفصح بينما كان غيرنا يحتفل بالسعف. كثيرون ممن لم يستطيعوا كبح جماح شهوة الطعام لم يصوموا إلا ستة أسابيع فقط، حيث بدأوا الصوم مع الأخيرين وأنهوه مع الأولين، وكثيرون غيرهم كانوا يريدون أن يتوسطوا فى الأمر، فجلبوا على أنفسهم الضرر من جراء ذلك بسبب الاضطراب الذى حل بالكنيسة، حيث بدأوا الصوم مع الأولين وانتهوا مع الأخيرين.

عام ١٠٧١ يونانية (٧٥٩-٧٦٠م) فى شهر آذار(مارس) ظهرت علامة بيضاء فى السماء، ناحية الشمال الشرقى فى البرج الشمالى المسمى الحمل، إذ رأينا ثلاثة نجوم أكثر لمعانا من مجموعة النجوم كلها، تشكل فيما بينها ما يشبه "المكنسة"، وكان ذلك فى الثانى والعشرين من الشهر قبل طلوع الفجر، حيث كان برج الحمل على ارتفاع درجة من الرأس، وعلى بعد درجتين من كوكبى زحل والمريخ، ويميل قليلا نحو الجنوب، وظل على هذا الحال لمدة خمس عشرة ليلة حتى ليلة عيد الخمسين.[٢٤٢] كانت إحدى جوانبه الأكثر ضيقا مائلة ناحية الشمال، وكانت تبدو أكثر لمعانا بسبب نجم كنا نراه، والجانب الآخر الأكثر اتساعا وإظلاما كان متجها ناحية الجنوب. هذه العلامة كانت تتحرك شيئا فشيئا نحو الشمال الشرقى.

وحدث فى مساء الثلاثاء، أى ليلة عيد الخمسين، أن ظهرت هذه العلامة مرة أخرى فى الشمال الغربى، وظلت لمدة خمس وعشرين ليلة. كانت تتجه شيئا فشيئا نحو الجنوب، ثم اختفت لتظهر مرة أخرى فى الجنوب الغربى، حيث استمرت لفترة طويلة.

فى تلك الفترة حدثت فتن كثيرة فى الكنيسة بسبب منصب البطريرك، فقد انتخبت الأديرة الشرقية يوحنا بطريركا، بينما رفضته المدن وأديرة الجزيرة جميعا؛ إذ كان الشرقيون وأهل الموصل يؤيدون جورجيوس. لهذ السبب كانت الكنيسة كلها تغلى فى أتون من القلق.

---

(٢٤٢) عيد الخمسين pentacost وهى كلمة لاتينية، المقصود بها هذا العيد الذى يوافق عيد الحصاد عند اليهود.

عام ١٠٧٢ يونانية (٧٦٠-٧٦١م) مات القديس مــار تيموتــاوس أســقف الرها، وجاء خلفًا له الراهب "الحبيس" سمعان، الذى كان يقيم فــى قريــة بــنفس المنطقة تسمى بيت قدونا. (٢٤٣) لقد أجمع كل المخلصــين فى الرها واتفقــوا فيمــا بينهم على أن ينصبوه راعيًا لكنيستهم، وذلك بسبب نقائه وكمالــه واتصــافه بكــل الفضائل الحميدة، وخاصة عطفه على الأغراب والفقراء. لذلك قاموا بفتح صومعته بالقوة وأخرجوه منها، وقدموه إلى البطريرك جورجيوس لكى ينصبه رئيسا لهــم. ولكن لأن "سمعان" الورع، الذى كان يفضل أن يعيش حياة الزهد والعزلة والهدوء بسبب الحياة الرهبانية على أن يصبح أسقفًا أو أن ينصب رئيسا للشعب، رفض أن يأخذ على عاتقه مسئولية الأسقفية. وعلى الرغم من أن جورجيوس المحترم كــان يضغط عليه وأهل الرها يبكون بين يديه فقد كان متمسكا بموقفــه، ممــا جعلهــم يلجأون إلى أخذه بالقوة وتنصيبه رغما عنه، فضلا عن أن جورجيــوس المحتــرم حمله على أن يقسم بالسماء والأرض وبالرب وملائكته على ألا يغــادر بلــده ولا أسقفيته إلى أى مكان آخر. وهكذا أرغموه تحت ضغط القسم على ألا يغادرهم وأن يبقى معهم وألا يهرب، فأخذوه إلى الرها حيث خرج إليه الأهالى عن بكرة أبــيهم واستقبلوه بحفاوة بالغة.

وبعد أن قضى فى المدينة يوما أو يومين دون أن يأكــل أو يشــرب حتــى أشرف على الموت استرحمهم أن يسمحوا له بالخروج ليقيم فى أحد أديــرة الرهــا الجبلية، قائلا لهم: "إن جو هذه المدينة ثقيل على نفسى". ولما لم يجدوا مناصا مــن تلبية مطلبه ذهب وأقام فى أحد الأديرة فى جنوب المدينة يدعى دير "أم الرب".

كان رجال الدين وعظماء الرها يصعدون إلى الدير كل يوم، يتوسلون إليــه أن يعود ويتولى حكم مدينته، إلا أنه كان يرفض بإصرار أن يستجيب لهــم قــائلا: "لو تعرضت للموت أو للصلب فلن أتولى هذا العمل أبدا. من أجل الرب اتركــونى واتخذوا لكم أسقفًا آخر ممن ترضونهم". ولكن أهل الرها لشدة حبهم له لم يثنهم هذا الكلام عن عزمهم.

---

(٢٤٣) بيت قدونا بلدة تقع فى ضواحى الرها. ASSEMANI: BIBL. OR. :I 396 No. I.

مر الشتاء على هذا النحو دون أن يقرر العودة إلى المدينة أو القيام برسامة كاهن أو الاحتفال لهم بعيد من أعيادهم، وأيضا دون أن يوافقوا على رحيله عنهم، لأن قلوبهم كانت معلقة به، حتى عرب المدينة وملحديها كانوا يحبونه.

وأخيرا عندما رأوا آمالهم فى إقناعه قد ذهبت كلها أدراج الرياح تضرعوا إليه قائلين: "ابحث لنا عن رجل ورع يقوم مقامك فى تصريف أمور الأسقفية على شرط أن تظل قريبا منا". ولكنه لم يقبل طلبهم وقال: "أنتم شعب صعب المراس، اختاروا أنتم بأنفسكم أسقفًا لكم ولا تعهدوا إلىّ بأى عمل". ولكنهم عارضوا جميعا فكرة ابتعاده عنهم، فتركوا له فرصة لاتخاذ قراره بشأن تلك المهمة، وحتى هذه أيضا لم يقبلها. ولكنه عندما رأى أنه لن يتم له تحقيق رغبته وأنه لن يستطيع الإفلات من أيديهم قال لهم: "أقسموا لى أنكم ستقبلون من أختاره لكم وحينئذ لن أبتعد عنكم أبدا"، فجاءوا جميعا له لتلاوة القسم. كان فى ذلك الوقت فى دير زوقنين المقدس فى منطقة آمد رجل متواضع لطيف هادئ، يتحلى بكل الفضائل الإلهية، ويدعى" أثناسيوس الإثيوبى"، فاختاره سمعان ورحب به الجميع ليتولى منصبه، وأخذ على عاتقه كل المسئولية، اعترافا منه بأنه تُرك وشأنه. "لايوجد مثله اليوم بين الجُرَداء".(٢٤٤) تلك هى الشهادة التى منحها سمعان لهذا القديس المؤمن، على الرغم من أنه لم يره قط وجهًا لوجه.

جلس يكتب له رسائل، وكذلك إلى أتقياء وعظماء كنيسته، طالبا منه رؤيته والتحدث معه، كما أرسل إليه أناسا مكرمين. فتسلم أثناسيوس تلك الرسائل، وفهم أنها تنطوى على المكر والخداع، فرفض أن يذهب، وكذلك لم يسمح له أبناء ديره. ترددت الرسل عليه عدة مرات ولكن دون جدوى، وأخيرا نصحه الكهنة أن يقبل، وذلك لأن الرسائل والتوسلات لم تنقطع، ولم يكونوا يريدون أن يخذلوا القديس سمعان.

---

(٢٤٤) الجرداء جمع أجرد، أى دون لحية، والمقصود هنا هم الرهبان.

عندئذ قدم مع تلميذه إلى الرها، وصعد إلى سمعان فى الجبل حيث كان يقيم، فخرج إليه سمعان واستقبله بحفاوة عظيمة، وأرسل على الفور إلى رجال الدين وعظماء المدينة سرًا، ودون أن يعلم أثناسيوس التَّقىُّ، بشىء يبشرهم قائلا: "إن الرجل الذى وعدتكم به قد جاء". وعلى الفور خرج الجميع كبيرًا وصغيرًا، لم يتخلف منهم أحد، واتجهوا إليه. وعندما رأوا أثناسيوس انتابتهم الفرحة والغبطة والسرور. فى البداية اتفقوا على أن يقيدوه بالأسقفية، خشية أن يهرب إلى أى مكان آخر قبل أن يقنعوه بالموافقة. وعندما علم أثناسيوس التَّقىُّ بحقيقة الأمر خجل وانتابه اضطراب شديد، وتغير لون وجهه وتحول إلى لون باهت يشبه لون الموتى. كان يلقى باللوم بصوت مرتفع على كهنة أسقفيته، لأن نصائحهم هى التى أوقعته فى هذا المأزق الحرج، واختص باللوم سمعان المحترم نفسه. ولكن بعد أن أخذ الناس يُلِحُّون عليه لفترة طويلة دون أن يظفروا منه بالموافقة قرر أهل الرها أن يحملوه بالقوة، وأن ينقلوه إلى البطريرك ليصدر له الأمر بالاستجابة لرغبتهم. ولكن أثناسيوس اكتشف المؤامرة فأخذ تلميذه وفر عائدًا إلى ديره ليلا. عندما رأى القديس سمعان أن أثناسيوس الطاهر قد هرب نفض يده من الأمر، وقال لأهل الرها: "لقد فعلت كل ما طلبتموه منى ولكن محاولاتى باءت بالفشل، أما الآن فاتركونى". وغادرهم عائدا إلى جبل بيت سميساط، حيث قضى ما بقى من أيام حياته يستقبل الأغراب والتعساء الذين كانوا يحضرون للقائه، لأنه كان ملجأ المكروبين. وقد جاء خلفا له "زكريا" من دير...[٢٤٥] الذى أنزلوه من فوق عموده.

عام ١٠٧٥ يونانية (٧٦٣-٧٦٤م) حل وباء عظيم فى المنطقة، قضى على الخيول كلها شيئًا فشيئًا. وقد شمل ذلك الوباء كل بقعة فى المنطقة، بدءًا من الأجزاء المحيطة بها، وأخذ ينتشر فى سرعة مذهلة حتى انتشر فى البلدة كلها. لقد نفقت تلك الحيوانات فى لمح البصر بصورة جماعية، ووصلت شدة الوباء إلى درجة أنه عندما كان يصيب قافلة من الجياد، تقدر بحوالى ثلاثمائة جواد، وهى فى

---

(٢٤٥) كلمة ناقصة هنا فى المخطوطة.

طريقها إلى مورد الماء كان نحو عشرين أو ثلاثين منها تنفق قبل أن تغادره، حتى إن الأودية والجبال والسهول والطرقات أصبحت مكتظة وملوثة بجثث الجياد النافقة.

ذلك الوباء اتخذ شكل الطاعون الذى يحل بالبشر. كان يصيب حلوقهم، ولم يكن أى جواد يطيق أن يتحمل ذلك الألم حتى ولو لساعة واحدة، ولو تصادف أن أحدها تحمل الألم لمدة ساعتين أو لنصف يوم كان معنى ذلك نجاته من الموت. ولكن لم يكن لينجو من الموت أكثر من واحد فى المائة من تلك التى هاجمها المرض. إن الخيل والبغال والحمير كانت غالبيتها قد نفقت، وقد انتشر هذا الوباء فى كل المناطق وكل ممالك الأرض، حتى إن البشر أصبحوا بلا جياد. إن ظاهرة الريح المكنسة التى كانت قد ظهرت من قبل قد تحققت بالفعل؛ فقد كنس هذا الوباء العالم كما تكنس المكنسة المنزل.

كان من رأى الحكماء والرجال الورعين الأتقياء أن هذه الصاعقة الوحشية كان يجب أن ترسل على البشر وتصيبهم، ولكن الرب بفضل رحمته وشفقته العظيمة وحبه للبشرية حولها من البشر إلى الحيوانات. حقيقة نحن نعترف "بأن الحيوانات لم تقترف ذنبا ولم تأتِ أعمالاً من شأنها أن تغضب الرب"، وقد قال عاموس: (**أرسلت بينكم وبأً على طريقة مصر، قتلت بالسيف فتيانكم مع سبى خيلكم وأصعدت نتن محالكم حتى إلى أنوفكم فلم ترجعوا إلىَّ، يقول الرب**).[٢٤٦] ويقول ميخا: (**ويكون فى ذلك اليوم، يقول الرب، أنى أقطع خيلك من وسطك وأبيد مركباتك**).[٢٤٧] الحقيقة أن الخيول والمركبات قد اختفت من على سطح الأرض كما قال الأنبياء: "إن ذنوبنا جعلت المخلوقات الأعجمية تهلك بدلا منا".

عام ١٠٧٢ يونانية[٢٤٨] (٧٦٠-٧٦١م) أرسل عبد الله بن محمد ملك الفرس "ابن وهاب" على رأس قوة عظيمة، وزوده بالعمال من كل بلاد الجزيرة، لإعادة

---

(٢٤٦) العهد القديم: عاموس ٤: ١٠.
(٢٤٧) العهد القديم: ميخا ٥: ١٠.
(٢٤٨) هنا حدث رجوع بالتاريخ.

بناء مليتين فى كبادوقيا التى ظلت مهدمة منذ ثمان سنوات. لقد نقــل إليهــا أناسًــا وقواتٍ للإقامة بها، وتعهدها بالرعاية حتى أصبحت أكثر عمرانا من ذى قبل.

عام ١٠٧٦ يونانية[٢٤٩] (٧٦٤-٧٦٥م) يوم الجمعة الرابع من شهر كــانون الثانى(يناير) سقطت نجوم السماء، إذ فى الوقت الذى خيم فيه الظلام وبدأت النجوم فى الظهور خرج نجمان من كبد السماء، ودارت بينهما معركة كمــا لــو كانــت معركة دائرة بين رجلين يتحابان ثم يتشاجران. فى غمرة الصــراع كانــا يقــذفان بالسهام النارية وينحدران ناحية الشرق. عندما هوى النجمان تمامًا فقد كل منهمــا بريقه ولمعانه، وبدأت كل نجوم السماء تهوى على هيئة شظايا من نار فــى كــل الاتجاهات. لقد ظلت النجوم تسقط طوال الليل، ولقد تحقق قول منقــذنا: (**وللوقــت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوءه والنجــوم تســقط مــن السماء وقوات السموات تتزعزع**)،[٢٥٠] (**وأما فى تلك الأيام بعــد ذلــك الضــيق فالشمس تظلم والقمر لا يعطى ضوءه، ونجوم السماء تتساقط والقوات التى فــى السمــوات تتزعزع**)،[٢٥١] (**وتكون علامات فى الشــمس والقمر والنجوم، وعلى الأرض كرب أمم بحَيْرة، البحر والأمواج تضج**)،[٢٥٢] (**تتحول الشمس إلى ظلمــة والقمر إلى دم قبل أن يجىء يوم الرب العظيم الشهير**)،[٢٥٣] (**وســوف تســمعون بحروب وأخبار حروب، انظروا لاترتاعوا، لأنه لابد أن تكون هذه كلهــا، ولكــن ليس المنتهى بعد**)،[٢٥٤] (**فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس، ليفهم القارئ**).[٢٥٥]

---

(٢٤٩) العودة إلى التسلسل التاريخى.
(٢٥٠) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢٩.
(٢٥١) العهد الجديد: إنجيل مرقس١٣: ٢٤/٢٥.
(٢٥٢) العهد الجديد: إنجيل لوقا٢١: ٢٥.
(٢٥٣) العهد الجديد: أعمال الرسل٢: ٢٠.
(٢٥٤) العهد الجديد: إنجيل متى٢٤: ٦.
(٢٥٥) العهد الجديد: إنجيل متى٢٤: ١٥.

ولنتأمل بعد ذلك ما حدث فى العالم، سواء تلك الاضطرابات والفتن التى وقعت فى الكنيسة بسبب انتخاب كل من البطريرك جورجيوس وداود، اللذين بسببهما تبدل حال جميع المسيحيين، أو من جراء الضغوط التى عاناها الناس من جانب السلطة الطاغية وهروب الناس من مدينة إلى مدينة أخرى، أو من مكان لمكان مجاور له، أو من قرية إلى قرية أخرى. لقد قال أيضا: **(لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون. وصلُّوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء ولا فى سبت. وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام).**[٢٥٦]

اقرأ أيها العاقل ثم تأمل المصائب التى حلت تباعا بالعالم، والتى نسردها فى وقتنا هذا، أىَّ غم، وأىَّ آلام، وأىَّ عذاب، وأىَّ قلق، وأىَّ صدمة، وأىَّ فرار، وأىَّ نهب، وأىَّ تبرم، وأىَّ جحود للأبناء والبنات، وأىَّ فراق للأزواج والزوجات، وأىَّ مجاعة، وأىَّ أمراض، وأىَّ طاعون. تأمل أيها الرجل التقى كل تلك الأحداث التى وقعت بعد سقوط النجوم، فضلا عن أن كل الشعوب وكل الأمم وكل الممالك قد ضعفت وانهارت أمام تلك القوة الطاغية التى لم يصمد أمامها أحد.

فى تلك الفترة...[٢٥٧] أصبحت طائفة **المانويين**[٢٥٨] فى حران – بلدة فيما بين النهرين – مجموعة محتقرة. كان لديهم دير يقع على مسافة ميل شرقى حران، كانوا يقيمون فيه مذبحة مرة كل عام، حيث يتم القتل بأعداد كبيرة وبوحشية. كانوا يقدمون الضحايا فى هذا الدير، حيث كان يقيم أسقف هذه الطائفة، وذلك حين

---

(٢٥٦) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢١/٢٠/١٩.

(٢٥٧) يوجد هنا فى هامش المخطوطة بعض الكلمات غير المقروءة، يبدو أنها عنوان كما هى عادته فى إعطاء عناوين للأحداث.

(٢٥٨) المانوية Manichaeism من أخطر العبادات الجديدة التى كانت تنتشر من الشرق، وقد أسسها "مانى" MANI حوالى عام ٢٤٦م، وقد مات مانى فى السجن بسبب معتقداته. أما ديانته التى جمعت عناصر مسيحية وبوذية وزرادشتية فى مجموعة واحدة فقد انتشرت فى العصر البيزنطى من فارس إلى إسبانيا، وقد أثارت أخطاؤها الآباء السوريين بشكل لم تفعله أية أخطاء أخرى من قبل. (ابن النديم: الفهرست ص ٣٢٨/٣٢٧)

الاحتفال بعيدهم الكبير، وكانوا أيضا يهبون أنفسهم إلى الكهانة. كان من عادتهم أنه كلما اقترب حلول عيدهم يعمدون إلى التخلص من أحد الرجال بوضعه في السجن إلى العام التالي، وفي يوم العيد يقدمونه ضحية، فيجتزون رأسه ويضعون قطعة من الفضة في فمه، ثم يضعون الرأس في كهف ويتوجهون إليها بالعبادة ثم يستخدمونها للتنجيم والتنبؤ.

وحل يوم عيدهم البغيض، وأرادوا إحضار الرجل المزمع حبسه ليكون ضحية العيد القادم الذي سيأتي في العام التالي، فكتب كبار المانويين مرسومًا، وخرجوا إلى مكان عام في حران. وعندما وجدوا ضالتهم متمثلة في شخص رجل طيب اقتربوا منه وقالوا: "خذ المكافأة التي تشاء واحمل هذه الرسالة إلى رئيس الدير في الصومعة الفلانية". لم يفطن الرجل المسكين إلى الخدعة الشيطانية التي كانت ستودي بحياته، فاستعد للذهاب كالحمل الوديع الذي يذهب إلى حتفه، فوصل إلى الدير على عجل، ولما اقترب من الباب وطلب من الكهنة مقابلة رئيسهم استعطفهم أن يخبروه بموعد قدومه أسرعوا ليبلغوه الخبر. ولم يكد رئيسهم يسمع هذا الخبر حتى خرج مسرعا واستقبل الرجل بحفاوة بالغة وسعادة غامرة، وقال له: "تعال ادخل واسترح قليلا، تناول شيئا من الطعام وسوف تتسلم رد رسالتك وتذهب في سلام". ثم جعلوه يمر من غرفة إلى غرفة، الأولى ثم الثانية ثم الثالثة حتى وصل إلى الغرفة السادسة أو السابعة، أي وصل بالقرب من الرجل المحبوس منذ العام الماضي حتى يكون ضحيتهم في العيد القادم، فقالوا له: "اجلس هنا بجوار هذا الرجل". وعندما جلس قال له الرجل: "ياللنحس، ياسوء المصير الذي ينتظرك". "ولكن لماذا؟" هكذا قال له الآخر. فقال له الرجل: "لقد فعلوا معك كما فعلوا بي عندما جئت إلى هنا. وجدت رجلا آخر يعيش هنا، وفي يوم عيدهم قطعوا رأسه، وها هي رأسه في ذلك الكهف وأمامه مصباح مضاء، إنهم يعبدونه ويستخدمونه في التنجيم. إنهم يتأهبون الآن لذبحي في هذا العيد، وستجلس مكاني هنا حتى العيد القادم، ثم تصبح حينئذ ضحيتهم. ولكن إذا أردت الهرب من هنا

فاستمع إليَّ وسوف تنجو، ترقب اللحظة التى يقررون فيها قتلى وقِف بجوارى، وعندما تسقط رأسى على الأرض بادر بأخذها واسكب دمائى وانثرها على الباب، فإذا استدعوك أو ألحُّوا عليك وإن قدموا هدايا كثيرة لا تقبلها، وإذا قاموا بالقبض عليك فاقذف بالدم أمامهم فسوف يبتعدون عنك". فقام الرجل بتنفيذ الخطة بدقة ومهارة فائقة وفقًا لما رسمه له الرجل، فأخذ الرأس وأسرع نحو الباب، فاسترحمه هؤلاء وتوسلوا إليه أن يضعها، ولكنه لم يأبه بوعودهم ولم يصغ لنصائحهم ولم يضعف أمام تهديداتهم، لأنهم لم يتمكنوا من الاقتراب منه. ثم حمل الرأس وأسرع لمقابلة عباس الذى كان وقتذاك أميرًا للجزيرة. عندما علم عباس بحقيقة الأمر قام بالقبض على المانويين جميعهم، وساقهم إلى الأسر رجالاً ونساءً وأطفالاً، وصادر ممتلكاتهم وأنزل بهم أقسى أنواع العذاب، وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف شخص أو خمسة آلاف.

عام ١٠٧٦ يونانية (٧٦٤-٧٦٥م) فى يوم الجمعة الرابع عشر من شهر آذار (مارس) رحل القديس ساويرس أسقف آمد إلى العالم الأخر ودفن فى ديره.

فى نفس العام اجتمع سينودوس (مجمع) من أساقفة الجزيرة والموصل والشرق فى سروج فى بلدة...[٢٥٩] وأعلنوا السلام والوحدة مع جورجيوس، الذى نصب بطريركًا بعد موت يوحنا أسقف الرقة، والذى كان أهل الجزيرة قد نصبوه بطريركًا. فى هذا السينودوس خلع كل الأساقفة الذين عينهم البطريرك يوحنا، ليس بسبب ضعف إيمانهم ولكن لأنهم لم يكونوا قد تلقوا أمرًا وفقًا للنظام والقانون الإلهى. كما أن أهالى البلاد التى كانوا معينين عليها لم يكونوا يرضون عنهم، ونقول الحق فقد خلعوا لأنهم لم يكونوا أكفاء للأسقفية، وذلك لأن هؤلاء الرجال كانوا رهبانًا فاسقين وذئابًا مفترسة لا تترفع عن افتراس الغنم. وقد أشار الرسول بولس إلى ذلك من قبل بقوله: **(لأنى أعلم هذا أنه بعد ذهابى سيدخل بينكم ذئاب**

---

(٢٥٩) كلمة ناقصة هنا فى المخطوطة.

خاطفة لاتشفق على الرعية)،[٢٦٠] (هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية).[٢٦١] سنقص أعمالهم فى زمانهم.

إن أهل الجزيرة والموصل والشرق بالاتفاق مع الأديرة وسائر بلاد المنطقة قد أيدوا فى هذا السينودوس انتخاب جورجيوس. كان رؤساء هذا السينودوس هم جورجيوس بطريرك أنطاكية، وداود أسقف دارا، وأبا أسقف آمد، وسرجون أسقف ماردا، وقسطنطين أسقف سميساط.

عام ١٠٧٧ يونانية (٧٦٥-٧٦٦م) اجتمع عدد كبير وعظيم من **النساطرة**[٢٦٢] فى دير بيت كونة (كولا) على جبال كاردو، حيث كان يوجد **الصندوق**،[٢٦٣] وذلك للاحتفال بالعيد كما كانت عادتهم، وبينما كان حشد كبير مجتمعا بهذا المكان، على ضوء القمر فى ليلة من ليالى شهر تشرين الثانى (نوفمبر)، لمع برق فى السماء، وسقطت صاعقة من السماء أشعلت النار فى معبدهم، فقضت عليه مع القوم الذين كانوا بداخله، وحولت أحجاره إلى جير هش، حتى الذين كانوا خارج المعبد لم ينجوا من الحريق، حيث التهمتهم النيران جميعًا دون أن ينجو أحد. لقد هلك فى ذلك الحريق أكثر من سبعمائة شخص أو ثمانمائة، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الحيوانات. كانت رائحة الحريق النفاذة تمتد إلى مسافة ميلين، ولمدة عامين لم يتمكن الأهالى من الاقتراب من الأماكن المحيطة بمكان الحريق. إن هذا المكان الذى كان يعد ملجأ للناس من الفيضانات، وأيضًا للدواب والحيوانات والزواحف، أصبح مكانًا خرابًا بالنسبة لهؤلاء الرجال وحيواناتهم، بسبب الصاعقة التى نزلت من السماء. كما أن تابوت العهد لم يتمكن

(٢٦٠) العهد الجديد: أعمال الرسل ٢٠: ٢٩.
(٢٦١) العهد الجديد: إنجيل متى ٧: ١٧.
(٢٦٢) طائفة من النصارى قالت إن فى المسيح المتجسد "أقنومين" و"طبيعتين". (نصارى بغداد ١٤)
(٢٦٣) المقصود بالصندوق هنا هو تابوت العهد الذى صنعه موسى بأمره. كان فى التابوت الوعاء الذى يحتوى على المن، وعصا هارون التى أفرخت، ولوحا العهد، وكان عليهما وصايا الله العشر المكتوبة بأصبع الله، ثم وضع بجانبه التوراة، ومن ثم يسمى التابوت أحيانا تابوت الشهادة". (قاموس الكتاب المقدس، عن مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى ص٢٠٩)

من أن يحمى الأســاقفة: **حفنى**[٢٦٤] و**فينحاس**[٢٦٥] ابنى **عالى**،[٢٦٦] أو حتى يحمى نفسه، وكذلك سفينة نوح التى تعمل على حماية المعبد الذى أقيم تخليــدا لــذكراها، ولا الأساقفة، ولا المزاهر، ولا الأوانى المستعملة فى الطقوس المقدسة، ولا مــن كانوا داخل المعبد، ولا حتى من كانوا خارجه. لقد هلكوا جميعا فى أتــون هــلاك واحد كما لم ينج أحد من الذين كانوا مجتمعين فوق الجبل.

كنا نرى السحاب والهواء قد تحول إلى لهيب من النــار والكبريــت الــذى أسقطه الرب على سدوم، وانتشر فى السماء. **(فأمطر الرب على سدوم وعمــورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء)**[٢٦٧] كان الجبل يبدو على البعــد كــدخان أتون لدرجة أن أحدًا لم ينجُ حيًا ولا حتى نصف محروق. إن رائحة الكبريت كانت نفاذة حتى إن السحب كانت تمطر والأفق كان مشتعلا على بعد ميلــين أو ثلاثــة أميال، لقد أنزل الرب كل هذا بالشعب النسطورى فى أيامنا هذه.

عام ١٠٧٤ يونانية (٧٦٢-٧٦٣م) فى شهر آذار(مارس) حــدث فيضــان عظيم لنهر دجلة الذى خرب كل **إقليم الحدود**،[٢٦٨] وأتلف كل ما كان على شواطئه إتلافا تاما، كما خربت معه منازل وطواحين وقرى وأناس وحيوانات مــع أشــياء كثيرة أخرى. لقد أوقع أشد أنواع الخراب بمدينة الموصل، لأنه أدرك هذه المدينــة فى ليلته الأولى، وفى طريقه غمرت المياه ثلاث ضواح، حيث غرقــت المنــازل والدواب والبشر وكل شىء فيها حتى اليابس، وكنا نرى قوارب تطفو على ســطح

---

(٢٦٤) حفنى اسم مصرى معناه "أبو ذنيبة" أو" فرخ الضفدع". قام "حفنى" وأخوه "فينحاس" بوظيفة الكهنوت فى شيخوخة والدهما "عالى"، ولكنهما أظهرا أنهما غير جديرين بهــذه الوظيفــة المقدســة بســبب أخلاقهما الفاضحة، واعترض "عالى" على تصرفهما اعتراضا ليّنا ولم يوبخهما توبيخــا صــارما، ونتيجة لذلك صدر القضاء الإلهى ضده وضد بيته. (قاموس الكتاب المقدس ص ٣١٢)

(٢٦٥) فينحاس اسم مصرى معناه "النوبى"، وهو أصغر ابنى "عالى" الشريرين، وقتل كلاهما فــى حــرب الفلسطينيين، ولما سمعت امرأته عن موته ولدت وسمت المولود وماتت. (قاموس الكتــاب المقــدس ص٧٠٥)

(٢٦٦) عالى اسم عبرى معناه "مرتفع"، كان رئيس الكهنة.

(٢٦٧) العهد القديم: التكوين ١٩: ٢٤.

(٢٦٨) إقليم الحدود يسمى "بيت تخوم". كان تحت نفوذ الساسانيين فى ضواحى نصيبين، ودخله الذين كانوا يكوّنون حدود الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية.

الماء. إن حدائق النخيل الباسقة التى كانت منتشرة فى هذه المنطقة قد غمرتها المياه هى الأخرى، وكانت القوارب تسير فوقها، وقد عمت هذه الظاهرة كل الأماكن الواقعة فى تلك المنطقة.

عام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م) تحركت كل قوات الفرس والعرب وأسرعت نحو المنطقة الشمالية، فقام عباس شقيق الملك الذى كان وقتذاك أميرًا على الجزيرة واستولى على الرها و**عبدين**[٢٦٩] وتل دكوم. وقام القائد "حسن بن خطاب" على رأس قوة ثانية، وقائد آخر يدعى "ابن أسعد" كان يقود القوة الملكية، قامت هذه القوات بعبور نهر دجلة ونزلت فى آمد بأعداد غفيرة.

وبينما هم يحاصرون آمد - بلدة فيما بين النهرين - توفى"ابن أسعد" قائد القوات الملكية. تلك القوة كانت تتكون من أجناس مختلفة وعقائد متباينة تتمثل فيهم كل الديانات، فكان منهم من يعبد النار ومنم من يعبد الشمس. فى الصباح كانوا يسجدون ميممين نحوالشرق، وفى وسط النهار كانوا يتعبدون مولين وجوهم شطر الجنوب، وفى المساء يتوجهون نحو الغرب. كان بعضهم يعبد القمر، والبعض الآخر يعبد النجوم، وفئة كانت تعبد الخيل، وفئة أخرى كانوا يصنعون نماذج مكررة لكل أنواع الأصنام ويحملونها معهم ليعبدوها، حتى إن كلاً منهم كان يحمل صنما للإله المعبود فى بلده ووطنه. كانت تلك القوات مزيجا من كل الشعوب، ولذلك كان يطلق عليها اسم "الكمال الملكى"، كانوا فى الواقع يسمون بعدة أسماء مختلفة منها: **سنديين**،[٢٧٠] وعلائيين خيزر، ومعديين، وفرس، و**عاقوليين**،[٢٧١] وعرب، وخربت، وأتراك؛ لدرجة أنه كان يمكننا القول بأنها كانت **فرقًا**[٢٧٢] من الجراد بأنواعه المختلفة.

---

(٢٦٩) المقصود هنا طورعبدين.

(٢٧٠) سنديين هم سكان المنطقة الذين كان السوريون يطلقون عليهم اسم "سناد" واليوم "السند".
BAR-HEBRAEUS: CHRON. SYR. P. 41/ ASSEMANI: BIBL. OR. III. 12. 140.

(٢٧١) يريد العرب الكوفيين.

(٢٧٢) تقدر الفرقة بحوالى ثمانين ألف رجل. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE TXII. P. 265.

كانت تُقترف بينهم ذنوب لاحصر لها، ولا تقتصر على نوع بعينه. ولكننا كنا ندعها تمر بهدوء، ولا نتعرض لها بسبب جسامتها وكثرتها، ولكى لا تنتقل إلى ألسنة المتحدثين، ولا تؤذى آذان السامعين، لأن الفم كان يأبى أن يتلفظ بها.

إننى أعتقد أن الرب قد أثارهم وأخرجهم من بلادهم لأنهم تخلوا عن الرب خالقهم، وكانوا يقدمون العبادة التى لا تليق إلا بالرب وحده إلى تماثيل على هيئة بشر، بدلا من أن يؤمنوا بأن الرب هو خالقهم وأن يقتنعوا بأنه هو رب كل الشعوب، والذى تتركز فيه القوة من قبل أن توجد الشمس. إنه هو الذى أمر **(وقال الله ليكن نور فكان نور)**،[٢٧٣] وقال أيضا: **(وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين)**.[٢٧٤] هو نفسه الذى وهب النار للبشر لينتفعوا بها فى حياتهم، فاتخذوا منها آلهة وعبدوها **(أغاروه بالأجانب وأغاظوه بالأرجاس. ذبحوا لأوثان ليست الله، لآلهة لم يعرفوها أحداث قد جاءت من قريب لم يرهبها آباؤكم)**.[٢٧٥]

لقد قذف بهم الرب فى الجبال الشمالية لكى يتعرضوا لمختلف الأمراض مثل الطاعون، ويذوقوا المجاعة، ولكى يعطى لحمهم غذاء لدواب الحقول وهوام السماء.

حدث أن تقدموا نحو مملكة الرومان واستعدوا لغزوها، فوجدوا أن البلدة التى تقع على خط الحدود خصبة تنتج مختلف أنواع الفاكهة، ولما كان الوقت شهر آب(أغسطس) ونظرًا لأن البلدة لم تكن آهلة بالسكان، وكانت مثمرة بالأشجار والكروم، فقد أسرع الشعب الذى ليس له قانون ودخلها، وأقبل يلتهم بشراهة كل ما وقعت عليه يده، فسقطوا صرعى كثير من الأمراض وخاصة الدوسنتريا والتقلصات، لدرجة أننا كنا نرى فى أى مكان يعسكرون فيه جثث موتاهم المتعفنة،

---

(٢٧٣) العهد القديم: التكوين ١: ٣.
(٢٧٤) العهد القديم: التكوين١: ١٤.
(٢٧٥) العهد القديم: التثنية ٣٢: ١٧/١٦.

على قارعة الطرق وعلى التلال وفى الوديان، دون أن يواريها التــراب، وكانــت الحيوانات البرية قد غرزت فيها أنيابها. كما نفقت أيضا دوابهم وخاصة الإبل التى كان أحد رجالهم قد أحضرها معه. لقد نفق منها حوالى خمسين جملاً أو ستين، ولم ينج منها سوى خمسة جمالٍ أو ستة، ومن الدواب ما نفقت عن آخرها ولم ينجُ منها حيوان واحد.

عندما دخلت تلك القوات فى مملكة الرومان حاصرت قلعة تسمى **قماح**[٢٧٦] كانت تقع على الحدود. لقد جلبوا عمالا كثيرين من الجزيرة، واختار عباس منطقة لبناء القلعة المسماه "زايد" كما استولوا على منطقة أخرى. وأرسل عباس فى طلب عربات من أرمينيا ليحمل عليها كميات كبيرة من خشب الأرز، وأمر العمــال أن يصنعوا آلاتٍ قد نصبها فى المنطقة المواجهــة للقلعــة لإلقــاء القــذائف الناريــة (المنجنيق) فى داخلها.

أما الرومان الذين كانوا داخل القلعة فقد أقاموا هم أيضا آلاتٍ مضادةً، وكان هؤلاء الرومان المحاصرون يكوّنون جيشًا لا يُهزم، ويقيمون حول قلعتهم ســورا حصينا، لإيمانهم بأن الرب خالقهم. حينئذ قالوا: **(للرب الخــلاص، علــى شــعبك بركتك، سِلاه)**،[٢٧٧] **(أحمدك بين الشعوب يا رب، أرنم لك بين الأمم. لأن رحمتــك قد عظمت إلى السموات وإلى الغمام حقك)**.[٢٧٨]

إن القائد الذى كان بداخل القلعة كان يدعى "سرجيوس"، وكان رجلا هادئًــا مسالمًا تقيًا عطوفًا على الفقراء، وقد شهد بذلك كل المواطنين الذين دخلــوا القلعــة بحثا عن **الطعام**،[٢٧٩] فوقعوا بالصدفة فى أيدى الرومان الــذين احتجــزوهم فــى

---

(٢٧٦) قماح بلدة قوية وقديمة جدًا، من أعمال أرمينيا على نهر الفرات الغربى. كانت لها شــهرة عظيمــة ومقدسة، وكانت تحتفظ بصور آلهة أرمينيا ومقابر الملوك.
LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE. TXII P. 73.

(٢٧٧) العهد القديم: المزامير ٣: ٨.
(٢٧٨) العهد القديم: المزامير ٥٧: ٩/١٠.
(٢٧٩) قال "شابو" إن هذا الطعام هو "الفوة" وهو نبات زراعى صيفى. والنبات الذى كان يســتعمل أحيانــا غذاءً للحيوان كان يستعمل دون شك غذاءً للفقراء فى هذا الوقت وذلك لشدة المجاعة.

القلعة. ونظرا لوجود سرجيوس، ولما لمسه المحتجزون من رحمته وسماحته وطيبته، فقد اطمأنوا وذهب عنهم الخوف، وقد اعترفوا جميعا بفضل ذلك الرجل وحسن معاملته لهم.

فى تلك الفترة حل بشعب سوريا ضيق شديد، فقد انتشرت بينهم البطالة، لأن العرب كانوا قد صادروا محاصيلهم وأراضيهم، لعدم دفعهم الجزية التى كانت مفروضة عليهم من قبل العرب، وأصبحوا يعملون بالسخرة لدى العرب الفاتحين، لدرجة أن كل تجارة المزارعين السوريين قد كسدت وبارت، حتى إنهم كانوا يتجمعون فى أعداد غفيرة ويتوجهون إلى بلدة "هنزيط" طلبا للطعام. كانوا كلما اقتربوا من الحدود سواء كان ذلك بسبب إهمال الحاكم المكلف بحراستها أو عمدا بدافع الطمع، كان يطالبهم بدفع الإتاوات دونما رحمة أو شفقة. كان الرومان يقبضون عليهم ويقودونهم إلى بلدة قماح، فكان هذا الرجل"سرجيوس" كلما رآهم شملهم بعطفه ورحمته، وكان يقول لهم: "إن شئتم ابقوا معنا وإن شئتم ارجعوا إلى دياركم آمنين". فاذا اختاروا العودة كان يزودهم بما يحتاجونه من مؤن الطريق. فى الحقيقة يا إخوانى لقد كافأ الرب هذا الرجل إذ خلصه من الأشوريين هو وكل من كان معه فى داخل القلعة.

عندما رأى أن قوة غفيرة تحيط بهم من كل جانب بينما كانوا هم قليلى العدد، وأن الأعداء - كما كان يفعل ساقى سنحاريب الكبير قديما - كانوا يلعنون كل من كان يستند على الأسوار قائلين: "من من الشعوب استطاع أن يفلت من يد عبد الله بن محمد؟" ألم تشاهدوا ماذا فعل بمروان وما أحدثه ببيت هشام!؟ لقد أبادهم جميعا من على وجه الأرض. أين ملك المصريين وملك الأفارقة والنوبيين والموريين؟ أين ملوك أرمينيا وباشان ومادای وفارس؟ ألم تعلموا ماذا فعل بملوك السند والهند؟ من من ملوك الأرض استطاع أن يستخلص ملكه من بين يدى عبدالله حتى تأملوا فى الهرب من بين يديه والخلاص منه؟" ولكن هذا الرجل المخلص قد تحصن بقوة الإيمان وتحلى بالثقة بربه، ولجأ إلى الصلاة كمن لا يجد له ملجأ

سواها (لأن هيجانك علىَّ وعجرفتك قد صعدا إلى أذنىَّ أضع خزامتى فى أنفك وشكيمتى فى شفتيك وأردك فى الطريق الذى جئت فيه)،[٢٨٠] (فى الطريق الذى جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل، يقول الرب).[٢٨١]

لجأ الفرس إلى العديد من الطرق، ولكن أصبحت كل حيلهم لا تجدى شيئا. لقد أقاموا منازل متحركة من الخشب حتى يملأوا الخندق بالتراب والحجارة التى كانت بجوار الحائط، ولكن هذا أيضا لم يحقق أية فائدة، وذلك لأن الرومان كانوا يقذفون بالحجارة من الداخل ويلقون بها بمهارة فائقة، فتؤدى إلى مقتل جموع غفيرة ممن كانوا فى الخارج، حتى حطموا آلات الفرس.

ولما كان أحد جوانب القلعة يمكن عن طريقه اعتلاء الأسوار قام الرومان بمد أعمدة طويلة من الخشب إلى هذا المكان، وثبتوا فى أطرافها وعلى امتدادها أحجارًا كبيرةً مستديرة ووضعوها على الطرف، فكلما بادر الفرس إلى النهوض كان الرومان يلقون بالأعمدة الخشبية فتسقط وتبيدهم وتمزق أجسادهم إربًا.

وقد حدث ذات ليلة أن لاحظ الفرس أن أصوات الرومان لا تترامى إلى أسماعهم، فخيل إليهم أنهم راحوا فى ثبات عميق؛ فانقضوا عليهم فى حشد كبير لا حصر له. وبينما كانت طلائعهم يتسلقون الأسوار بسعادة غامرة متصورين أنهم قد اقتحموا القلعة كان الرومان المعينون للحراسة لهم بالمرصاد، حيث انقضوا عليهم فى جرأة عظيمة، وألقوا عليهم بالأعمدة الخشبية المحملة بالأحجار التى اكتسحت كل من كان فى طريقه ويحاول تسلق الأسوار، ونتج عنها تراكم الكثير من جثث القتلى.

لقد باءت كل محاولاتهم بالفشل، لأن الرب كان يساعد الرومان. وأخيرا عزم قائدان على التسلل إلى بلاد الرومان والتقدم فيها بقوة كبيرة تقدر بحوالى

---

(٢٨٠) العهد القديم: إشعياء ٣٧: ٢٩.

(٢٨١) العهد القديم: إشعياء ٣٧: ٣٤.

خمسين ألف رجل، حتى ينهبوا ويسلبوا ويخربوا كل الأراضى الرومانية فتمكنوا منها. ولكن نظرا لجهلهم بطبيعة البلاد، ولعدم وجود مرشد يدلهم على دروب المنطقة، آثروا عدم السير فى الشوارع المعرضة للهجوم، حتى لا يكتشف الرومان وجودهم فيتصدوا لهم ويبيدوهم عن آخرهم. ولكن ما قاله أيوب قد وقع بهم **(لأنى ارتعابا ارتعبت فأتانى والذى فزعت منه جاء عليَّ. لم أطمئن ولم أسكن ولم أسترح وقد جاء الرجز).**[٢٨٢] إن غضب الرب لم يتوقف ولم يهدأ قط قبل أن يدركهم **(وإن بقى فيها عشر بعد فيعود ويصير للخراب ولكن كالبطمة والبلوطة التى وإن قطعت فلها ساق يكون ساقه زرعا مقدسا).**[٢٨٣]

لقد جاءهم الهلاك أولا من الجو، ثم نفدت مؤن الطريق فجاءهم الهلاك من الجوع، ثم انتهوا إلى الجبال اليابسة فجاءهم الهلاك من شدة الظمأ. ولكن فى الوقت الذى كانوا مشرفين فيه على الهلاك من شدة الظمأ هم ودوابهم، دون أن يصوب إليهم الحسام أو يعمل فيهم السيف، انتهوا إلى حقل رطب حيث حفروا بسهامهم فوجدوا ماء قريبا من سطح الأرض فشربوا، ونجوا من ظمئهم كما أنقذوا من الموت حيواناتهم. ولم يتجهوا بعد دخولهم بلاد الرومان إلى المناطق المأهولة، ولكن اتجهوا إلى منطقة صحراوية جرداء بين مملكة الرومان ومملكة الأرمن. وبعد أن طافوا طويلا فى الجبال الصحراوية اتجهوا نحو قيصرية، حتى صادفوا منطقة خصبة، ولقوا فى المدن شعبا يتصرف ويتحرك بحرية ودون قيود. ولكن الجنود الرومان ما لبثوا أن انقضوا عليهم فجأة دون أن يتمكن أحد من مقاومتهم، إذ إنهم عندما نزلوا بقيصرية أشبعوا كل رغباتهم من هذا البلد، فقد كانوا يجمعون الغنائم وينهبون ويسلبون كل ما تصل إليه أيديهم، ويسوقون الأهالى إلى الأسر، ويستولون على كل الحيوانات والدواب. لقد استولوا على غنائم وسلائب كثيرة من الرجال والحيوانات، وغير ذلك من الأشياء الثمية كالأوانى والأدوات النادرة، إلى جانب كميات كبيرة من الذهب والفضة.

---

(٢٨٢) العهد القديم: أيوب ٣: ٢٥/ ٢٦.
(٢٨٣) العهد القديم: إشعياء ٦: ١٣.

ولكن القدر لم يمهلهم أكثر من ذلك، لقد وزن لهم بنفس المكيال الذى وزنوا للناس به، لقد ملأت جثثهم الخندق الذى حفروه بأيديهم، أى وقعوا فى الفخ الذى نصبوه بأنفسهم. لقد عاقبهم الرب جزاء ما اقترفوه، فلأنهم أسروا فقد أُسروا، ولأنهم نَهبوا فقد نُهبوا، ولأنهم أرادو أن يتملكوا عبيدًا وإماءً أصبحوا هم أنفسهم العبيد، ولأنهم أرادوا أن يحولوا الأرض خرابًا فقد خربوا أنفسهم وأصبحوا مأكلاً لحيوانات الحقول وطيور السماء، وارتوت الأرض بدمائهم. هذا ما حدث لهم.

ولما وصلوا إلى تلك المنطقة التى كانت ذات ثراء عظيم نهبوها وخربوها واستعبدوا سكانها دون رحمة أو شفقة. كانوا يريدون العودة إلى سوريا بغنيمة كبيرة وشهرة واسعة ونصر مؤزر، ووفقا لرغبتهم امتلكوا ثروات عظيمة من عبيد وإماء. لقد كان التعساء لايعرفون أنهم بعد فترة وجيزة سيصبحون هم أنفسهم أسرى، وذلك لأنهم كانوا يسيرون فى الظلمات. فى الحقيقة يجب أن نغنى ونقول: **(جميع عظامى تقول يا رب من مثلك المنقذُ المسكينَ ممن هو أقوى منه والفقير والبائس من سالبه)**،[٢٨٤] وأيضا: **(قال الرب من باشان أرجع، أرجع من أعماق البحر)**.[٢٨٥]

لقد اقتنع الفرس بأنهم قد وصلوا وأنهم قد دخلوا سوريا ولم يخشوا شيئًا. فوصلوا إلى حقل كبير حيث أرادوا أن يقيموا معسكرهم ويستريحوا. هذا الحقل لم يكن له غير منفذ واحد، وكانت تحيط به من كل جانب دجلة وتصب بداخله، فعسكروا واستراحوا قليلا وتركوا حيواناتهم ترعى. ولكن لأنهم لم يكونوا على علم تام بالمنافذ المختلفة فقد قرروا الإقامة هنا فى تلك المنطقة. ولكن الرب الذى لا يتخلى عمن يبتهل إليه هيأ لهم قائدًا رومانيا أتى ومعه ألفا فارس. تلك القوة كانت آتية من مكان آخر ومن حملة أخرى بعد أن أحرزوا نصرًا عظيمًا. ولما تعرفوا على مدخل الحقل الذى يعسكر فيه الفرس أرادوا هم أيضا نصب خيامهم

(٢٨٤) العهد القديم: المزامير٣٥: ١٠.
(٢٨٥) العهد القديم: المزامير ٦٨: ٢٢.

ليستريحوا دون أن يعلموا بالخطر الذى يهددهم من الداخل أو يعرفوا شيئا عما حدث فى مملكتهم وشعبهم، نظرا لأنهم كانوا قادمين من منطقة نائية. ولما استقروا فى معسكرهم صعد بعضهم إلى قمة التل ووقع نظرهم على القوة العظيمة للفرس التى كانت تعسكر فى الداخل مع الأسرى وسلائب أرضهم، فاضطربوا واستولى عليهم الخوف وأسرعوا بالعودة يعلنون النبأ إلى زملائهم. أما رئيسهم فقد اهتم بالموضوع اهتمامًا بالغًا، فأرسل قوة أخرى قوامها نحو ثلاثمائة فارس ليتأكدوا من حقيقة الأمر ومن أنه ليس مجرد خيالات لاحت أمام أنظار من شيعوهم. أما الذين أرسلوا فى المرة الثانية فقد استوثقوا من الأمر وأخبروا القائد بأن الأمر حقيقة، حيث صعد بدوره فى نحو أربعة آلاف فارس أو خمسة آلاف. ولم يكد الفرس يرونهم ويتأكدون من أنهم يحتلون المنفذ الوحيد الذى يمكنهم الخروج منه، وأنهم أصبحوا محاصرين مهددين بالفناء، حتى ارتجفت قلوبهم واهتزت أفئدتم وضعفت عزيمتم وانتابهم الفزع، وأخذوا يترنحون كالسكارى ووهنت كل قواهم. ومن جانبهم أرسلوا من يستطلع لهم مقدار قوة العدو حيث أعدوا أنفسهم للدخول فى معركة فاصلة مع عدوهم، نظرا لكثرة عددهم ولأنه لا مخرج لهم سوى هذا المنفذ الضيق. وما إن عاد الرسول وأخبرهم بكثرة عدد الرومان وعظمة عدتهم وعتادهم وعزمهم على القتال وأنهم مستعدون للمعركة حتى فترت عزيمتهم وخارت قواهم ولجأوا إلى سلك طريق السلام.

فى البداية عرضوا على الرومان إطلاق جميع الأسرى الذين احتجزوهم وترك كل الثروات والغنائم التى كانوا قد استولوا عليها، قائلين: "فليتركوا لنا الحياة فقط وسنخرج كما دخلنا دون أية غنائم". ولكن الرومان لم يستجيبوا لهم، حيث تملكوا زمام الموقف سريعا بأن جهزوا قوة عظيمة، انقسمت إلى أربع فرق، وانقضت عليهم من كل جانب. ولما كان الوقت ليلا والظلام يخيم على المكان فقد استخدموا لغة الإشارات بينهم. وقد اتفقوا على أنه عندما يصبحون على أهبة الاستعداد للمعركة سينفخ فى البوق، ويصيحون معا صيحة واحدة "رحمتك يا

رب". عندما سمع الفرس هذه الصيحة تملكهم الفزع وانتابهم الخوف، وأصبحوا كمن سلبت منهم الحياة لاحول لهم ولا قوة، حيث أظلمت الدنيا من حولهم، ولم يستطيعوا التمييز بين الأشياء، كما انهارت أعصابهم، وضاع كل أمل لهم في الحياة. لقد اعتبروا أنفسهم موتى قبل أن تصل إليهم سيوف العدو، فكانوا كلما أرادوا الفرار باءت محاولاتهم بالفشل، لأن الرومان كانوا يحاصرونهم كالدائرة، حيث زجرهم الرب من السماء، وقلب حالهم أمام الرومان أعدائهم. وهنا يجب أن نؤمن بأن الرب قد قام بإرساء السلام بنفسه، حيث سقطت الأغلال وأطلق سراح الأسرى، ووقع الفرس فى نفس الشرك الذى نصبوه بأيديهم. إن الذين كانوا من قبل سادة يتملكون العبيد أصبحوا هم أنفسهم عبيدا مكبلين بالأغلال **(من أجل أنه لم يذكر أن يصنع رحمة بل طرد إنسانا مسكينا وفقيرا والمنسحق القلب ليميته).**[٢٨٦]

دارت المعارك طوال اليوم، وانهزم الفرس أمام الرومان الذين ألحقوا بهم هزيمة منكرة وقاسية. إن الفرس أنفسهم - أى الذين كتبت لهم الحياة نتيجة هروبهم من تلك المعركة أو الذين جرحوا ولم يجهز عليهم - أثبتوا لنا بوثائق مؤكدة أنهم لم يروا فى حياتهم ولم يسمعوا عن كمية من الدماء أريقت فى مكان واحد مثل ما أريق فى هذا المكان، قالوا: "إنه فى هذا الحقل كانت الدماء والجثث ترتفع حتى صدور الجياد. ولما كان هناك كثير من الماء فى الحقل لم تتشرب الأرض الدماء".

فى الحقيقة إنه يجب القول مع الرسول: **(وهو ذا رُكّاب من الرجال، أزواج من الفرسان، فأجاب وقال سقطت سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كَسَّرها إلى الأرض)،**[٢٨٧] **(خوف وحفرة وفخ عليك يا ساكن موآب، يقول الرب. الذى يهرب من وجه الخوف يسقط فى الحفرة والذى يصعد من الحفرة يعلق فى الفخ لأنى أجلب عليها أى على موآب سنة عقابهم، يقول الرب).**[٢٨٨]

---

(٢٨٦) العهد القديم: المزامير ١٠٩: ١٦.
(٢٨٧) العهد القديم: إشعياء ٢١: ٩.
(٢٨٨) العهد القديم: إرميا ٤٨: ٤٣/ ٤٤.

وعندما اقترب الغروب لم نعد نرى إلا عددًا قليلاً منهم. البعض قبض عليهم دون مقاومة، أما الآخرون فقد أطاح بهم السيف. لقد هرب "رداد" قائد القوات على جواده، وتخلى عن الجميع تاركا كل أمتعته فى أيدى الرومان. لم ينجُ معه سوى ألف رجل تقريبا وبعض الجرحى، فهرب إلى ملطية، وكان قد فرض عليه فى الطريق معركة أخرى، تلقى فيها ثلاث طعنات بالسيف ولكنه لم يلق حتفه. أما القائد الآخر "مالك بن طوف" فقد هرب إلى الرقة مع خمسة آلاف رجل.

هكذا عادوا من حيث أتوا مكللين بالخزى والعار. لقد فقدوا كل عتادهم وعددهم، والذين هربوا لم ينجوا إلا وهم مجردون من كل شيء. فلنتأمل الآن ما حدث بالذين حاصروا القلعة، كيف أنهم نزعوا خيامهم بأيديهم، وكيف أنهم فروا مكللين بالخزى والعار أكثر من زملائهم.

أما المزارعون الذين كانوا يقومون بنقل القمح والدقيق من سوريا فقد رأوا أنهم يقترفون خطأً جسيمًا فى القيام بهذا العمل، حيث لا تجدى أى فائدة، لأنه كما سبق أن قلنا آنفا إن هذه الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر مقرونة بالخسائر، وخاصة أن كل الدواب قد هلكت، وتوقفوا عن نقل القمح والدقيق، فحلت بهم مجاعة عظيمة، وكانوا على وشك الهلاك جوعا. فقد ارتفع سعر القفيز من القمح إلى ثلاث زوزات ونصف مع ندرة وجوده.

لقد استمر الحال على ذلك مدة عشرين يوما، بعدها أرسل عباس إلى سوريا فأقام سوقًا كبيرًا. عندما علم المزارعون بذلك اتجه كل شعب الجزيرة والشرق وأرمينيا الداخلية إلى هذا المكان الذى أقيم فيه السوق، حمل كل واحد قدر طاقته من البقول حتى أصبحت هناك وفرة فى جميع أنواع الغذاء، فالتجار وأصحاب الحانات وتجار الحبوب وغيرهم اشتروا القمح والشعير والدقيق وغير ذلك مما يلزم لحياة الإنسان، وقد وضعوا كل ذلك فى أكوام كبيرة مثل الجبال، آملين فى أن يحققوا فى وقت قصير ثروة عظيمة. ولكن هؤلاء التعساء الذين كانت تمتلئ عيونهم ببريق الأمل ما لبثت أن أظلمت من شدة الطمع، ولم يكونوا يعلمون أنهم

لن يلبثوا أن يخسروا قريبا كل ما يملكون، وأن تلك الرحلة بأكملها ستكون مليئة بالخسائر ولن تحقق فائدة تذكر.

هاجم الفرس القلعة مرارًا ليلاً ونهارًا بكل الوسائل المتبعة في الحرب، ولكنهم في كل مرة كانوا لاينالون إلا الخسارة، في الوقت الذي كانت ترجح فيه كفة الرومان. ولكن عباسًا الذي كان عطوفا أشفق على هؤلاء الفقراء الذين عانوا من العمل، وعندما رأى أنهم يرزحون تحت أحجار المقاليع التي يقذف بها الرومان من الداخل جمع قادة القوات، وأصدر أمرًا بأن يتم تكليف مجموعة من المقاتلين المهرة بإعداد مقاليع مضادة للرد على مقاليع الرومان، بينما يكلَّف المزارعون بأعمال أخرى بعيدة عن خطر الموت.

كان الوقت يمر وعباس يقول: "إذا تحتم عليَّ أن أبقى هنا لمدة عشر سنوات فلن أخرج من هنا وسأحتل القلعة". تجمع الرجال من كل حدب وصوب في هذا المكان، وبعد أن حاربوا مستخدمين كل وسائل الحرب – ولكن دون إحراز تقدم – وصلت إليهم تهديدات تقول: "ربما سيسيطر عليهم الرعب وستنفتح لنا". ولكن كالنسر السريع الذي يطير في السماء بأجنحة رشيقة لايخشى شيئا على الأرض كان هؤلاء يتصرفون ولم يخشوا شيئا، وأخيرا لجأوا إلى أسلوب التملق والوعظ بعد إقناعهم بأن يتركوا القلعة وأن يرحلوا بسلام. ولكن هذا أيضا لم يجدِ نفعًا، حيث إن المحاصرين بدأوا في الاستهزاء بهم.

ولما كنا على أبواب فصل الشتاء، وبدأ البرد يشتد في تلك المنطقة، خاف الفرس أن يفاجأوا بالجليد يقطع عليهم الطرق ويموتوا جوعا وبردا. لقد خشوا أن تتجمع ضدهم القوات وتبيدهم عن آخرهم ويحل بهم أسوأ مما حل بزملائهم، ولذلك خرجوا في نحو خمسة آلاف أو ستة آلاف فقط، أما الذين دخلوا فوقعوا جرحى وكانوا نحو خمسين ألفًا. ولما تقطعت بهم الأسباب وأصبحوا غير قادرين على تحسين موقفهم ظهر بشير، وأصدر أمرا لجنوده بأن يمتطوا الجياد ويرحلوا من حيث أتوا. أما عن التجار وأصحاب الحانات والمشترين والبائعين فقد فقدوا في

لمح البصر كل بضائعهم، لأنهم كانوا قد اشتروا القمح والشعير والدقيق وكدسوه ولم يجدوا الدواب التى تحمله. ولما كانت طبيعة أرض المنطقة وعرة لاتصلح لمرور الدواب، فقد كان الأهالى يستخدمونها فى نقل بضائعهم حتى ممر نهر يسمى "سلقط"، ثم يطلقونها ولايستبقون سوى دابة واحدة أو اثنتين على الأكثر من كل مائة دابة كانت تمر إلى شمال الممر. كانوا كثيرا ما يستأجرون الدواب لنقل حاجياتهم حتى لايُجشموا دوابهم مشقة المرور فى الأراضى الوعرة. وهكذا كان هناك عجز فى الدواب، حتى عندما أمر نذير الحرب قواته أن تحمل البضاعة واجه أيضا هذا العجز. ولما رأى الفرس أن التجار قد خلفوا وراءهم كل بضائعهم عمدوا إلى إشعال النار فيها، حتى لاينتفع بها الرومان عند نزولهم. وعلى الرغم من ذلك فقد بقى الكثير منها.

تقدمت قوة أخرى إلى **قاليقلا**.[٢٨٩] عندما قابل الجنود أناسا يحملون جبنا وزيتا وعسلا وملابس ومؤنا أخرى للجيش كان الجنود يلقون بأمتعتهم ويطاردون الأهالى سالبين منهم كل شىء حتى الدواب، لدرجة أن هؤلاء السكان فقدوا فى لحظة واحدة كل ما كانوا يملكون. هكذا تكبد الجميع خسائر وحل الخراب بتلك القرية، حتى العمال لم ينجوا من هذا البلاء. بعد أن رحل عباس أمر الحكام المنصَّبين من قِبله بأن يأخذوا الراتب الشهرى الذى كانوا قد تسلموه عند دخولهم لهم ولدوابهم. هكذا رفع عباس مخيمه ورحل من حيث أتى محوطًا بالخزى والعار بعد أن لحقت به خسائر فادحة، واتجهت القوات الأخرى إلى آمد ودجلة، وذهبت إلى فارس. كان الجنود منهوكو القوة قد استبد بهم الضعف والوهن من شدة الجوع، ولم ينجُ منهم إلا ما يقرب من النصف ولا سيما الدواب، والعبيد الذين هربوا للاحتماء دخلوا مملكة الرومان. كان يحب رؤيتهم لأنهم كانوا يتمتعون بفخر وزهو عند دخولهم البلاد، على الرغم من أنهم كانوا أثناء المعارك متواضعين حزانى مطأطئى الرءوس مجردين من كل شىء.

---

(٢٨٩) قاليقلا أو قيليقيا أو كيليكيا، قامت الملكة "قالى" ملكة الروم ببنائها عندما ملكت بعد زوجها "أرمنياقوس"، وسمتها "قاليقالة"، ومعنى ذلك إحسان قالى. وصُورت على باب من أبوابها، فأعربت العرب فقالوا "قاليقلا". (البلاذرى: فتوح البلدان ج١ ص١٩٧)

إن مرور تلك القوات كان ذا فائدة لكل الشمال، لأنهم قد نشروا الزوازى وخاصة الجديدة، ومنذ ذلك الوقت فإن كل من أراد صنع الزوازى كان يقوم بهذه العملية دون خوف. وهكذا تضاعفت كمية الزوازى الجديدة وخاصة المزيفة، وقد تسبب هذا فى خسارة كبيرة للأهالى.

كل منطقة الجزيرة كانت مشهورة بكرومها وحقولها ودوابها الكثيرة، لم يوجد فقير أو مسكين فى أى بلدة إلا وهو يمتلك حقلاً وبغالاً وإبلاً. لم يكن هنا مكان صالح للزراعة إلا بُذر وزرع بالكروم، حتى فى الجبل أى مكان يسمح بمرور عربة زُرع كرومًا. لقد سيطر عليهم الجشع حتى إنهم اغتصبوا كل ما كان أسلافهم قد وهبوه للأديرة والأبرشيات. كان هناك قمح ونبيذ بكميات وفيرة، وبسبب وفرة المحصول نشبت المنازعات والمشاجرات والادعاءات إلى أقصى حدٍّ، لدرجة أنها قد وصلت إلى حد القتل. إن حكام المدن أنفسهم قد فقدوا سلطانهم بسبب القضايا التى كانت بينهم. أصبحت المنطقة تغَصُّ بالرعاة بسبب كثرة المراعى. إن الهدف الأساسى لما كتبناه هو إظهار حجم الكارثة التى حلت بالمنطقة **(فسمن يشورون ورفس، سمنتَ وغلظتَ واكتسيْتَ شحما، فرفض الإله الذى عمله وغبى عن صخرة خلاصه)**،[290] بتلك الثروة الهائلة فى الدواب وفى الحقول وفى العبيد وفى الإماء سقط المُلاَّك فى بؤس عجيب، لدرجة أننا كنا نرى رجالا كانوا يملكون آلافًا من الضأن والإبل والجياد والخدم والإماء ومساحات شاسعة من الحقول، كانوا يركبون الجياد العربية، بينما كان خدمهم يركبون البغال، وكانت الأبواق تنفخ أمامهم على طريقة الكفار الذين كنا نراهم هم وأشباههم يحملون أطفالهم على أكتافهم عراة جائعين، يستجدون الناس بما يمسك رمقهم، ويُطردون من مكان إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى. كنا نرى ربات البيوت معدماتٍ مهجوراتٍ، حاملاتٍ أطفالَهن معلقين فى أعناقهن، واهناتٍ يتسولن من قرية إلى قرية ومن بلد إلى بلد.

---

(٢٩٠) العهد القديم: التثنية ٣٢: ١٥.

فى هذا العام وبعد رحيل القوات كان القمح يباع خمسة وعشرين جريبًا بل ثلاثين بدينار واحد، والنبيذ أربعين قلتًا بل خمسة وأربعين بدينار واحد. كل شىء كان يباع بسعر زهيد، وذلك لأنه فى تلك الفترة كان الرخاء قد عم كل البلاد، كما اتجه الناس إلى إنشاء الأضرحة وترميم الكنائس.

عن المناقشات والمنازعات والاضطرابات التى حدثت فى الكنيسة المقدسة وبين أساقفتها فى ذلك العام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م) وخاصة بسبب جورجيوس بطريرك الكرسى الرسولى فى أنطاكية

كما سبق أن ذكرنا فإن أساقفة الجزيرة قد انفصلوا وابتعدوا عن جورجيوس وعن أبناء الغرب، ونصبوا يوحنا المبجل بطريركًا. ولما توفى أراد الأساقفة الأتقياء الذين يخشون الرب أن يطردوا من بينهم الذين يثيرون القلاقل ويصبحوا شعبًا واحدًا، يخضعون لرئيس واحد وفقا للقانون الذى سنه وأقره الآباء القديسون، كما كانوا يخشون وقوع الانقسامات والاضطرابات فى الإيمان المقدس. ولما كانت كل المدن قد أسلمت قيادها لجورجيوس، وأحبوه ودونوا اسمه فى قائمة الوعاظ، فقد اجتمع كل أبناء الجزيرة وأبناء الغرب فى بلدة سروج،[٢٩١] وكان جورجيوس الراهب المبجل معهم فى عام ١٠٧٦ للإسكندر.

لقد طرح الجانبان كل الأمور المتنازع عليها على بساط البحث والمناقشة. كان البطريرك جورجيوس المبجل يؤثر السلم على النزاع والانقسام، كما لم يكن يريد أن تتغير فى عهده القواعد والقوانين التى سنها الآباء المائة والخمسون المشهورون المجتمعون فى الروح القدس فى القسطنطينية، الذين وافقوا وأقروا البطاركة على منح "تقطار" القسطنطينية

(٢٩١) بلدة قريبة من حران من ديار مصر. (النجوم الزاهرة ج٦ ص١٨٠)

بعد بطريركية روما، ومنح "تيموتاوس" الإسكندرية ومصر وكل المناطق الغربية، وإلى ميلس[٢٩٢] بطريركية أنطاكية وكل الشرق. كان يخشى أن يمتد الانقسام فى أيامه إلى هذا الكرسى فى أنطاكية، فوافق على كل ما طلبه أساقفة الجزيرة فيما عدا موضوع الأساقفة المكلفين من قبل يوحنا من أبرشية قرقفتا، الذين نصبوه بطريركًا. لم يقبل هذا ولم يوافق عليه، وأراد استبعادهم من كل نظام كهنوتى؛ لهذا ثار أساقفة الجزيرة، لأن معظمهم كانوا قد عينوا فى كنائس معروفة، ولكن هذا لم يكن وسيلة ضغط على المبجل، وقال إن الكهنوت وحتى الأبرشية نفسها ستعطى إلى من كان من بينهم يريد الذهاب إلى المناطق السفلى من سجستان وحراب.[٢٩٣] وقد لقى هذا القرار إقبالاً من الرهبان. كما قال المبجل أيضا: "كيف يتسنى لى طرده من بلدته لأحل مكانه واحدًا من هؤلاء؟ أسقف أفضل منى ولم يعين من قبلى؟ ألم يتول إدارة الأسقفية التى عين عليها وفقًا لكل مبادئ الفضيلة؟ ألم يقض ثلاثين عاما فى الأبرشية؟ ليست هناك أية بلدة تطلب أحدًا من هؤلاء أو تقبله. أى شخص من بينهم يطلبه ويخشى الله فليذهب إلى المناطق السفلى". لقد أمر بأن كل من سيقبل سيقوم الجميع بمساعدته فى رحلته.

فى الحقيقة ياإخوانى، حتى إذا أراد جورجيوس المبجل نفسه أن يقبلهم فإنه لم يكن ليعثر على واحد من بينهم جدير بمنصب الأسقفية، لأنهم كانوا رجالاً متكبرين متعجرفين مغرورين مشاغبين ماكرين، قادرين على إثارة مجادلات عقيمة، لم يكن نصب أعينهم قط إقرار أحكام الرب الذى نفذ فيهم قول الرسول: (**لأنى أعلم هذا أنه بعد ذهابى سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لاتشفق على الرعية. ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمور ملتوية**

---

(٢٩٢) هو أسقف السوس أو مدينة شوشان. من أفاضل الدعاة إلى النصرانية فى السوس وعيلام، وخيرة أساقفة المشرق صلاحا. (اللؤلؤ المنثور ص١٩٤)

(٢٩٣) يبدو أن هذه البلدة هى " هراة" فى خراسان.

ليجتذبوا التلاميذ وراءهم).[٢٩٤] لقد تحدث أيضا إلهنا عنهم عندما كان ينذر مريديه: **(احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم، هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا؟. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة. كل شجرة لاتصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار. فإذا من ثمارهم تعرفونهم).**[٢٩٥]

فى الحقيقة كان هؤلاء أشجارًا رديئة، أطعمت الكنيسة وشعب الله ثمارًا مرة. والآن سأوضح إلى أى هاوية عميقة سقطت البلدة، ولكن لا لوم على جورجيوس المبجل ولا على الأساقفة، لأنهم قاموا بطردهم من الكنيسة.

بالنسبة لى يا إخوانى، فإنى لا أفهم كيف أن يوحنا الذى نشأ وعاش النقاء والطهر فى الحياة النسكية، والذى كان معروفا بزهده وتقواه، كما كان محط الثناء والتقدير من الناس جميعا، كان قد استجاب للتبرك لمثل هذا الكهنوت البسيط. إن بلدة آمد كان لديها اثنان من الأساقفة أو ثلاثة، بل ربما زادوا إلى ثلاثة أو أربعة .إن أساقفتها الأصليين كانوا أفضل من الذين عينهم يوحنا.

كان أحدهم مار ساويرس من دير زوقنين المقدس، وهو رجل مشهور بتقوى الله. ونظرا لضعف بصره فقد أبعد عن الأعمال المدنية، فذهب وأقام فى ديره إلى نهاية حياته، وقد خلفه مار أبا من أبرشية مار حبيب فى أرزون،[٢٩٦] رجل هادئ ومتواضع، يتحلى بكل الفضائل الإلهية. علاوة على أنه كان يوجد فى تل بَسَم رجل تقى يدعى سرجون من دير مار أثناسيوس.

---

(٢٩٤) العهد الجديد: أعمال الرسل ٢٠: ٢٩/ ٣٠.

(٢٩٥) العهد الجديد: إنجيل متى ٧: ١٥/١٦/١٧/١٨/١٩/٢٠.

(٢٩٦) مدينة كبيرة، كانت شمال غربى "سعرت"، أطلالها ماثلة. (اللؤلؤ المنثور ص٥٠٤)

كانوا جميعا قد تقدمت بهم السن، ولكن رغم وجود هؤلاء المبجلين بالبلدة فقد رُسم آخرون، كان أحدهم من دير **حرباز**.[297]

إنى أسجل تلك الأحداث يا إخوانى، لأنى أريد أن أكشف السيئات التى حلت علينا بعد ذلك، ولا يلوم أحد الكاتب قبل أن يكون قد رأى ثمار تلك الأشجار الرديئة (**إن هيئة الرجل تدل على أعماله وآثاره تشهد عليه**)[298] ها هم الرجال وأعمالهم أمامهم.

عندما انتهى السينودوس ذهب كل واحد إلى بلده، وكذلك عاد جورجيوس المبجل إلى أبرشيته. عاش هؤلاء الرجال المساكين فى عار شديد واضطراب كبير، ولكنهم لم يقبعوا فى أديرتهم محاولين إخفاء خجلهم وعارهم يتوارون عن أعين الناس، بل أخذوا يعملون على إثارة القلاقل وإشاعة الفتن وبث الإشاعات بين الناس، محاولين الانتقام من جورجيوس والذين معه. ولكن جورجيوس كان على حذر شديد فيما يدبرون له، وكان يخشى أن يتكرر ما حدث؛ حيث توجه إلى ديره واتخذ قرارًا بألا يدخل أى مدينة أو بلدة أو دير إلا إذا جاء عظماء المنطقة وكانوا فى استقباله.

وحدث فى هذا العام أن جاء سكان حران إلى جورجيوس ليبحثوا عنه، وذلك بسبب وقوع نزاع بينهم وبين أسقفهم. وما كاد ينتهى الأمر الذى حضروا من أجله حتى جاء سكان آمد بصحبة أسقفهم مار أبا، متوسلين إليه أن يتفضل بالحضور لزيارتهم. ونظرًا لمنصبه باعتباره راعيًا صالحًا فقد وافق على طلبهم ولبَّى رغبتهم، وكان كلما مر على القرى والمدن التى كانت فى طريقه إلى آمد استقبله أهلها بحفاوة بالغة، كما خرج سكان آمد عن بكرة

---

(٢٩٧) عرف "دير حرباز" باسم " مار كورليس"(جرجى) فى ولاية سميساط، ورد ذكره أول مرة فى أواخر القرن السابع، وآخر عهدنا به فى أواسط العاشر. تخرج فيه بطريرك وخمسة أساقفة. (اللؤلؤ المنثور ص٥١٠)

(٢٩٨) العهد القديم: الأسفار المنحولة، يشوع بن سيراخ ١٩: ٢٦.

أبيهم لاستقباله فى أبهة عظيمة لاتليق إلا بمثل هذا الرجل. ولم يكد يقيم بينهم حتى جاءه أهالى دير زوقنين، أى كل شيوخ هذا الدير،(٢٩٩) المبجلين فى هذا الدير مع رئيسهم مار أوتاليس، وكذلك ضيفهم ديونسيوس الذى أصبح فيما بعد أسقفا لحران واصطحبوه إلى أبرشيتهم. إن جورجيوس المبجل كان يريد منذ فترة أن يرى هذا الدير وأن يصلى فيه. بعد أن حقق رغبته وسعد بحب أبناء الدير مر على **حانى**،(٣٠٠) ووصل إلى تل دوكوم. وعندما أراد أن يتوجه إلى ديره قام الشيطان - الذى هو منذ البداية عدو للخير - بإثارة مريديه الذين هم أنصاره، فأكملوا الخراب، لأنه عندما رأى أنه استقبل بحفاوة من الجميع، فهم أنه سيسود السلام فى الكنيسة، وسيختفى الاضطراب والانقسام منها؛ فتوجه بعض عملائه - كما سبق أن قلنا - وجاءوا إلى الملك وبثوا الإشاعات المغرضة ضد جورجيوس المبجل، وضد كل الأساقفة. ومما أشاعوه قولهم: "إن جورجيوس يدعى أنه هو الملك وليس أنت". لذلك تكلم النبى عن هؤلاء بحق **(رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لايقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم)**.(٣٠١)

ها هو التعذيب الذى يمد جذوره وتتفتح أزهاره التى تنبت ثمارا سامة. تعالوا انظروا إلى الأشجار ومن ثمارها اعرفوها. لقد غضب الملك عندما سمع هذه الإشاعات، وتصاعد غضبه كالدخان وزأر كالأسد عندما يرى فريسته، وأرسل رسلاً قد اشتهروا بالسرعة والنشاط، للبحث عنه وعن أساقفة الجزيرة.

---

(٢٩٩) "دير" كلمة آرامية بمعنى "المسكن" أو" المنزل"، ثم أطلق على البيت الذى يتعبد فيه الرهبان. (نصارى بغداد ٤٣)

(٣٠٠) بلدة على مسافة ٥٠ كم تقريبا شمالى آمد. LEBEAU: HISTOIRE DU BAS EMPIRE T. XII, P. 265.

(٣٠١) العهد القديم: إشعياء ١: ٢٣.

كان جورجيوس لا يزال فى تل دوكوم، ثم قاموا بنقله منها مباشرة إلى حران، حيث لم يسمحوا له حتى بدخول الدير، وهناك اجتمع جميع الأساقفة فى تلك البلدة، ومنها اتجهوا إلى الملك فى بغداد، حيث كان يقيم فى ذلك الوقت.

كان هذا الملك لايسمح أن يحرك أحد من الرعية يده أو رجله إلا بإذنه على امتداد مملكته، ومن يقدم على شيء من ذلك دون علمه فإنه، أى الملك، لا ينعم بالراحة قبل أن ينهى حياته، سواء كان فارسيًّا أو عربيًّا أو سوريًّا. كما كان معروفا بتصديق كل ما يترامى إلى سمعه من أكاذيب وإشاعات، حتى كان يعتبر كلٍّ من يوشى له صديقًا حميمًا.

عندما وصل الأساقفة إلى بغداد قادوهم إلى الملك. وبمجرد أن وقع بصره عليهم ثارت ثائرته كالذئب الذى يريد أن يلتهم فريسته، وتوجه لهم بكلمات قاسية، وطردهم من حضرته، ثم أمر بسجن جورجيوس المبجل وأن يكبل بالأغلال. بعد أن أمضوا هناك بعض الوقت أصدر أمرا إلى الأساقفة قائلا "اختاروا من بينكم من ترونه قادرا واحتفظوا به فى ذاكرتكم ونصبوه قائدا لكم واذهبوا". وهكذا استعمل الرحمة معهم. لقد أراد الجميع اختيار "داود" من دارا. لقد قيل إن كل هذا حدث بسببه، فقد كان رجلا مسنا، وقال الجميع: "لو أنه اختير أحد غيره فلن يدينوا له. فهو لن يعيش طويلا وجورجيوس سيخلفه". لم يكن داود يجهل تلك النوايا، وسواء وافق أو رفض فإنه قد أصبح بطريركًا. لقد منحه الملك تفويضًا بسجن كل من يخرج على طاعته وبضربه وبتعذيبه أيًا كان جنسه، أما عن جورجيوس فقد ظل رهينا فى السجن. من هنا وقع الانقسام فى الكنيسة وفى شعب الله.

إن الخزى والاحتقار ازداد على الكهان والأساقفة، لدرجة أن أحدًا منهم لم يكن يجرؤ على المرور فى شوارع المدينة، كما أطلقوا عليهم اسم قتلة وسافكى دماء. لقد وصل الاحتقار إلى حد رفض الأهالى المساهمة فى

القربان الذى قدمه أحدهم، وكان يقال له: "لقد جعلت ذكرى لاسم داود عند تقديسها". ها هو الحصاد السيئ والشيلم السيئ الذى زرعه الشرير عن طريق مريديه. فذهب داود المبجل مع الأساقفة الذين صحبوه إلى الموصل ثم إلى تكريت. وبدلا من أن يقام له احتفال بطريركى فقد استقبلوه بالاعتراض والإنكار، بل كانوا يدعونه قاتلاً وسافك دماء. ولكنه لم يكن ليغضب من أحد ولا يشتكى، وإنما كان يهب كل شيء إلى الرب، واتخذه ملاذًا وملجأ يخفف عنه هذا البلاء. كان يقول: "نعم لقد اشتركت فى خيانة جورجيوس، وسألقى جزاء عملى". فى الواقع رغم كل ما قدم فى الكنائس من تبريرات مصحوبة بالأدلة والبراهين على براءته لم يصدقه أحد، لأننا كنا نقول إن الآخرين لم يُقدِموا على ما فعلوا إلا وفقًا لنصيحته. وهكذا لم يستقبل بترحاب أو حفاوة من أحد بسبب ظلمه لجورجيوس المبجل، ولكن نتيجة لهذه الإهانة لم ينتقم لنفسه لما لحقه من إهانات، ولم يجبر أحدًا على تسميته، ولكنه قال: "من يرغب فى تسميتى فليسمنى ومن لم يرغب فلا سلطان لى عليه". ومن هنا ظهر أنه كانت تحاك له المؤمرات سرًا، وذلك لوجود مرسوم قوى. ولكنه لم يلجأ إلى مؤاخذة أحد، حتى عندما كان يسمعهم يسبونه، وعندما كان يرسل أسقفًا من قبله إلى بلده ما كان الأهالى ينفَضُّون من حوله. ولو حدث أن قدم هذا الأسقف قربانا كانوا يرفضونه ولا يقبلونه منه، كما كانوا يحتقرونه هو وما يقدمه من قرابين. ولو حدث أن توجه لهم رجل تقى بالنصيحة قائلا: "إن عقاب الرب سيحل بكم نتيجة تصرفكم". كانوا يلاحقونه بمعاملة أسوأ من معاملة الأسقف، وكانوا يتنقلون بين الكنائس قائلين: "إننا لن نتلقى القربان من مثل هذا الأسقف لأنه يدعى داود".

إن الرداء الكنسى أو الأسقفى قد أصبح محتقرا فى نظرهم، ولو حدث أن رأوا أسقفًا لا يعرف داود ولا جورجيوس كانوا يلاحقونه بالسخرية والاستهزاء، حتى يقر أن الاثنين مجرمان وملعونان. وهكذا انتهى بعضهم إلى عدم تلقيب أىٍّ منهما.

استمر هذا الانقسام حتى انتهى إلى خراب الكنيسة وموت داود، ها هى الثمار الرديئة التى أنتجتها تلك الشجيرات السيئة. انتظر واستمع للكارثة التى حلت بنا، نتيجة لتلك السيئات. فليكن معلومًا يا إخوانى أنه ما من مرة اضطربت فيها الكنيسة إلا وحدثت هزة فى الحياة العامة. فكما حدث من قبل أن وقع اضطراب فى الكنيسة، تبعه اضطراب فى الحياة عامة، فشمل جميع الأهالى فى نواحى المنطقة بأسرها.

عام ١٠٧٩ يونانية (٧٦٧-٧٦٨م) تقرر بناء قلعة **أرشميشاط**[٣٠٢] بجوار نهر **أرسيناس**.[٣٠٣] وبمجرد أن بدأ البناءون والعمال فى البناء الذى بلغ ارتفاع قامة رجل إذا بقوة رومانية قد جاءت، وأقامت معسكرها على ضفة النهر المقابل للقلعة، وقد صادف ذلك يوم الأحد المقدس، ولذلك لم تكن قد تلقت الأمر بالقتال بعد. وبينما كان الرومان يعسكرون ويقدمون القرابين ويأكلون الخبز إذا بأهالى القلعة يهجرونها ويولون الأدبار، تاركين وراءهم كل شيء، فعبر الرومان إليها واستولوا على كل ما تقع عليه أيديهم، ثم أشعلوا النيران. لقد أحرقوا المبنى، وأخذوا كل شيء وجدوه وحملوه وعادوا إلى بلادهم. جمع العرب المهندسين والعمال من جديد، وأعادوا بناء القلعة. وأرسل عباس رسائل إلى كل بلاد ما بين النهرين، يأمر فيها العرب أن يتوجهوا جميعا عن بكرة أبيهم إلى حران كبارًا مع صغار، فامتثلوا للأمر تاركين محاصيلهم دون أن يحصدوها، لأنهم كانوا فى عجلة من أمرهم لكسب الزوازى.

---

(٣٠٢) أرشميشاط أو شمشاط، مدينة كانت ببلاد الروم على شاطئ الفرات، شرقها "بالو" وغربها "خربوت"، فى طرف أرمينية، وهذا الاسم يعنى بلدة "أرسام" Arsame لقد أنشئت وفقا للتقاليد فى القرن الثالث من الميلاد، بواسطة ملك من أرمينيا الغربية يدعى "أرسام". فى العصور الوسطى كان أهالى أرمينيا يدعونه "أشموشاط" واليونان "أسموساط". (اللؤلؤ المنثور ص٥٠٤)

(٣٠٣) أرسيناس هى الفرات الغربية. لقد أطلق القدماء اسم أرسيناس على نهر عظيم فى أرمينا.
LEBEAU: HIS. DU BAS EMPIRE.T.XII.P.266.N4.

تجمع العرب كلهم، ونزلوا جميعا على أمر عباس، ولكنهم لم يجنوا إلا الخسارة، لأنه من الصعب على الشرير أن يتحول إلى صالح. لقد انتظروا طويلا حتى إن محاصيلهم فسدت، وقد عين نحو ستمائة رجل في القلاع، وطرد الباقين فلم يحملوا إليهم إلا الخسارة.

في هذا العام مات ديونسيوس أسقف حران، وتبعه ديونسيوس آخر من دير زوقنين. وفي هذا العام أيضا مات أسطفان من حابوراء، الذي خلفه...[٣٠٤]

عام ١٠٨٠ يونانية (٧٦٨-٧٦٩م) توفي الأسقف "زكريا" في الرها، وتولى الأسقفية بدلا منه الأسقف يوحنا من تلا. في تلك الفترة كان "إليا" يقيم في الرها، في أبرشية قرتمين، وهو رجل متبلد الحس ينزع إلى الشر، لم يفكر في الرب قط. لقد عين أسقفا للرها، ليس لأنه جدير بالأسقفية، ولكن لأن أهل الرها كانوا في حاجة إليه. ومع كل لم يقبل ولم يوافقوا على انتخابه، ولكن الأمر يرجع لأسباب جوهرية ليس هذا مقام عرضها. وظلت الرها دون أسقف، وفي تلا جاء أسبينوس خلفا ليوحنا.

في تلك الفترة لمع اسم سرجون من ماردين، والبطريرك داود، ومار أبا من آمد، وقسطنطين من سميساط، وبولس من تكريت.

في هذا العام عم الرخاء والازدهار في كل شيء، فالقمح كان بثلاثين قفيزًا، والنبيذ أربعين سباذًا بزوزا، والزيت ثمانية لترات بزوزا واحدا. كانت المنطقة تفيض بالكروم والحقول المزروعة، وكانت الدواب كثيرة مثل رمال الصحراء. جاء زايد وعاقب المرابين، هؤلاء الذين أعطوه زوزا لكل دينار، فأخذ تلك الجزية وذهب دون أن يزعج أحدا.

---

(٣٠٤) هنا فراغ في المخطوطة.

فى هذا العام أيضا سقطت أحجار من السماء، أحجار سوداء شاهدها الكثيرون ولمسوها، وقد ظلت حتى يومنا هذا. وقد ظل الناس يتساءلون: كيف صعدت هذه الأحجار إلى السماء ؟ ومن أين أتت؟ ولا يعلم سر ذلك إلا الرب وحده . فى المنطقة التى سقطت فيها لم يوجد أى حجر أسود، ولكن تأكد أيها القارئ أن الرب يفعل كل ما يريد سواء فى السماء أو فى الأرض.

عام ١٠٨١ يونانية (٧٦٩-٧٧٠م) حكم الموصل رجل سيئ وشرس، يدعى "موسى بن صعب". إنه هو الذى تنبأ به النبى عندما قال: (**الذى جعل العالم كقفر وهدم مدنه الذى لم يطلق أسراه إلى بيوتهم**).[٣٠٥] هذا الرجل لم يكن له شبيه لا بين الملوك الوثنيين ولا بين المجوس ولا بين المانويين. لقد أدخل العالم فى حصار لانظير له، فمنذ أن خلق العالم وحتى يومنا هذا لم يحدث اضطراب مثل ذلك الذى حدث. إذا أراد أحد أن يطلق عليه اسم المسيح الدجال وعلى عملائه اسم "رسل أبناء الهلاك" فلن يكون هذا ظلما له، بل سيكون اسمه الحقيقى الذى يستحقه (**الحاكم المصغى إلى كلام كذب كل خدامه أشرار**).[٣٠٦]

وكما ذكرنا فيما سبق أن الزى الرهبانى المحترم قد أصبح محتقـرًا، كما استهزئ بالأساقفة والرهبان، وقد تجرأوا أيضا على القربان فسخروا منه، حتى كان الرهبان يخشون الخروج إلى الطرقات بسبب السباب واللعنات التى تنهال عليهم، وخاصة من شعب تكريت وأرسدونيا والموصل، ولذلك حلت الكارثة أولا على سكان تلك المدن؛ فقد أصابهم العقاب الإلهى وطاردهم وجعلهم ينزحون إلى أراضٍ بعيدة. لم يجد الملك رجلاً يروق له خارج هذه المنطقة، فإنه مكتوب (**فأرسل شاوُل إلىَّ يقول ليقف داود أمامى لأنه وجد**

(٣٠٥) العهد القديم: إشعياء ١٤: ١٧.

(٣٠٦) العهد القديم: الأمثال ٢٩: ١٢.

نعمة فى عينىَّ).[٣٠٧] لقد وجد عبد الله بن محمد فى موسى رجلاً يروق له، يرتكب الإثم أمامه كل يوم. عندما أصبح موسى حاكما للموصل زأر كالأسد عندما يهجم على فريسته قائلا: **(أتبع أعـدائى فـأدركهم ولا أرجـع حتـى أفنيهم)،**[٣٠٨] **(أسحقهم فلا يستطيعون القيام، يسقطون تحت رجلـىَّ)،**[٣٠٩] **(يصرخون ولا مخلِّص، إلى الرب فلا يسـتجيب لهـم)،**[٣١٠] **(فأسـحقهم كالغبار قدام الريح، مثل طين الأسواق أطرحهم).**[٣١١]

فى الواقع لقد أرهق سكان المنطقة، فأهلك الرجال الذين يعملون فـى الأرض فضربهم، ولم يتمكنوا من الصمود أمامه وسقطوا تحت أقدامه. لقـد داسهم كطمى الشوارع فى المدن وجعلهم كالغبار فى يوم عاصـف، فكـانوا يتركون مواطن سكناهم هائمين على وجوههم فى البلاد، يتوسلون إلى الرب لكى يخلصهم من أيدى هذا الرجل، ولكن الرب لم يستجب لهم. لقد امتثلـوا لأمر الرب فى انتظار الخلاص. لقد طلب موسى من الملك أن يسـمح لـه باستقدام كل من هرب من الموصل حتى يشيعوا الاضطراب فى البلاد. ثـم أذاع فى كل المنطقة أن الأمن مستتب وأنه ليس ثمة شاكٍ أو متمرد. وعـين على كل ثلاث مدن من بلاد الجزيرة رجلا من قبله، نظرا لكثرة عـدد مـن معه من الرجال، فكان على آمد وأرزون وميافرقاط رجل قاسى القلب، لايقل قسوة عمن أرسله، يدعى "آدم بن يزيد". كان رجلا جشعا لا يتقى الرب فيما يأتى من أعمال. فى تلك الفترة كان شعب الموصل الذى كـان يعـيش فـى أرض الجزيرة قد أصبح أكثر ثراء، بسبب عمل سكان المنطقة الـذى كـان يلتهمه بالبدل غير القانونى. وقد قال الرب: **(لاتقرض أخاك بربا ربا فضة أو**

---

(٣٠٧) العهد القديم: صموئيل الأول ١٦: ٢٢.
(٣٠٨) العهد القديم: المزامير ١٨: ٣٧.
(٣٠٩) العهد القديم: المزامير ١٨: ٣٨.
(٣١٠) العهد القديم: المزامير ١٨: ٤١.
(٣١١) العهد القديم: المزامير ١٨: ٤٢.

ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا)،[٣١٢] **(فضتك لا تعطيه بالربا وطعامك لاتعط بالمرابحة).**[٣١٣]

لقد كانوا يفعلون كل ما هو ممنوع، كانوا يقرضون بالربا يعطون أموالهم بالاسترجاع وبأسعار باهظة. لقد أصبحوا سادة يقتنون العبيد والإماء والخيرات والكروم والأراضى، وبالتدريج يملكون كل الأراضى ويتملكون الخيرات والكروم والضياع، حتى كادوا أن يضعوا أيديهم على البقاع التى تتكلم لغة أولاد آرام وكل بلاد الجزيرة التى كانت على وشك أن تصبح من ممتلكات أهل نرسيباد.[٣١٤] كانوا يجلسون فى الأماكن العامة مثل الحكام ورؤساء المدن، كانوا يعتبرون كرؤساء الكنائس، وكانوا هم أنفسهم يقومون بتقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذ لهم **(فى الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيّوْها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض).**[٣١٥]

فإذا كانوا قد دمروا بلدهم فكيف يتسنى لهم إثراء بلد جيرانهم؟ إن القول النبوى نفذ فيهم **(لا تغر من الأشرار ولا تحسد عمال الإثم. فإنهم مثل الحشيش سريعا يقطعون ومثل العشب الأخضر يذبلون).**[٣١٦] حقيقة لقد بلغوا قدرا من الغرور والغطرسة والتكبر فاق كل التصورات **(الرب يقلع بيت المتكبرين ويوطد تخم الأرملة).**[٣١٧]

---

(٣١٢) العهد القديم: التثنية ٢٣: ١٩.
(٣١٣) العهد القديم: اللاويين ٢٥: ٣٧.
(٣١٤) لعلها نرسيان أو هى النرسى أو غيرها. ناحية كانت بين الكوفة وواسط، وقد ورد اسم هذه البلدة ثلاث مرات فى التاريخ الكنسى لابن العبرى ج٢ ص١٧٧. (اللؤلؤ المنثور ص٥٢٠)
(٣١٥) العهد الجديد : رسالة إلى العبرانيين ١١: ١٣.
(٣١٦) العهد القديم: المزامير ٣٧: ١/ ٢.
(٣١٧) العهد القديم: الأمثال ١٥: ٢٥.

لقد انتُزعوا وذبلوا كزهرة تحت الشمس، عندما جاء الذى **تحدثنا عنه آنفا**،(٣١٨) وحاول دخول تلك البلاد وفرض سلطانه عليهـــا، ففـــروا جميعـــا هاربين. ولما كانوا جميعهم تجار حبوب وبقول كانوا لا يملكون عقارات ولا ضياعا، فجمعوا تجارتهم وأخفوها، وحملوا أولادهم علـــى أكتـــافهم وولـــوا الأدبار فى حالة يرثى لها. كانوا يتساقطون فـــى الجبـــال عـــراة جـــائعين، ويترنحون كقشة فى زوبعة. البعض دخل فى حجرة داخل حجرة كـــالأموات فى أماكن سرية ومظلمة، لاتقع أعينهم على شعاع من نور، حتى انتشـــرت على أجسامهم القروح وفقدوا المظهر الإنسانى، وأصبحوا يشبهون الأمـــوات الراقدين فى القبور، كان ذلك فى فصل الصيف، مما ضاعف من آلامهم. إن الذين هربوا ماتوا جوعا مع أولادهم فى الجبال والكهوف، بينما كانوا يتنقلون من جبل إلى آخر، أما الذين كانوا مختبئين فى المنازل فقد ماتوا من الحمـــى وأيضا من الخوف والحزن والحرارة، حتى أصحاب المنازل الـــذين كـــانوا يأوونهم كانوا خائفين أكثر منهم، لأنه ما من صاحب منزل يضبط متســـترا على أحد من هؤلاء إلا أنزلوا به أشد العقاب، لقاء جريمة تستره. وقد أعلن منادٍ "أن كل من يتستر على رجل من الموصل سوف تصادر أملاكه علاوة على ما يتخذ ضده من إجراءات". منذ ذلك الوقت وقع الخوف فـــى قلـــوب الناس، وطردوا من لجأ إليهم. وأعلن بشير أيضا "أن كل من يسلم رجلا من أهل الموصل فله مكافأة قدرها أربعون زوزا". عندما سمع أهل المنطقة قساة القلوب الذين لا يرعون حق الرب ذلك، ووجدوا فيه فرصة مناسبة للكسب، أخذوا فى مراقبة المنطقة، حتى إذا اضطر أحد المختبئين للخروج تحت جنح الليل بحثا عن الطعام ألقوا القبض عليه، وأخذوا يساومونه على حياتـــه دون رحمة قائلين: "أعطنا ما معك أو نسلمك ونقبض الأربعين زوزا المكافـــأة". كانوا يغتصبون ما معه من نقود طوعًا أو كرهًا ثم يتركونه وشأنه، وربمـــا

---

(٣١٨) هو "آدم بن يزيد".

وقع فى أيدى فئة أخرى أشد قسوة وغلظة من سابقتها. ولما كان رجلا داهية وفطنا لم يكن يجهل المكان الذى كانوا يخبئون فيه شيئا، كما لو كان الشــــىء المخبوء نفسه يناديه قائلا: "أنا هنا وأنا ملك لفلان". لقد وجــد كــل شـــىء وانكشف له تماما، فيضع يده عليه كما لو كان هو الذى أخفاه أو وضع تلــك الأشياء. ذلك هو ما كتب عن ذلك الرجل البائس.

أما بالنسبة للرجال الذين تزوجوا نساء سوريات فقد أنجبن لهــم أولادًا ذوى سحنة سورية، حتى أصبح من العسير تمييزهم عن أولاد الآراميين، إلا أنه استطاع تمييزهم فى سهولة ويسر. لقد حبس كل شيوخ البلدة حيث كانوا يقيمون، وانهال عليهم تعذيبا وتنكيلا حتى اضطرهم إلى دفع ما فرضه عليهم من إتاوات، كما احتجزهم جميعا وسوى بينهم وبين عبيدهم الذين اشتراهم مع كل ما كانوا يمتلكون، وضمه إلى حوزته.

إن حالهم يدل على ما يفعل الصباغ بالثوب حين يحوله من لون إلـــى لون آخر. ثم حملهم على العودة إلى بلادهم، هناك قبض عليهم حيث انتشرت بينهم المجاعة، وتفشت فيهم الأمراض المختلفة والأوبئة، حتى إنه لــم يبــق منهم على قيد الحياة إلا فئة قليلة. الأغنياء والفقراء الذين كانوا بينهم بــاعوا كل ما يملكون وسلموهم المبالغ، وعاشوا معدمين ولم يبق لهم شىء. ورغــم أن هذا المجرم كان قد عاهدهم على ألا يستولى على أىِّ زوزا أو فلس مــن أىٍّ منهم فإنه بدأ يطلب بدلا من الزوازى دنانير ذهبية مما اضطرهم إلى بيع كل ما يملكون، حتى يدبروا له المبالغ المفروضة عليهم.

عن العلامة التى ظهرت فى السماء على هيئة مكنسة

فى عام ١٠٨٠ يونانية(٧٦٨-٧٦٩م) فى شهر أيار(مايو) ظهرت علامة على شكل مكنسة فى الشمال الشرقى. عندما كانت تظهر فى هذا الركن من السماء كانت تبدو كثيفة مرتفعة فى السماء، كما لو أنها قد كنست البيت من التراب. ومع الصباح شاهدناها تتجه بقاعدتها نحو الأرض، ثم أخذت تتقدم شيئا فشيئا إلى الأمام إلى أن وصلت إلى محور العجلة فى السماء، حيث تبددت واختفت.

إن هيئتها كانت تتفق تماما مع ما أوضحناه من قبل. وهذه العلامة كانت سببا معقولا لأن تسمى مكنسة، لأنه مثلما كنا نأتى بالجاروف والمكنسة إلى المنزل بهدف تنظيفه وكنسه، بالمثل كان يكنس العالم ويهلك كل ما بداخله.

فى البداية فى هذا العام هلكت كل الحيوانات البرية وخاصة الصغيرة، لقد اكتست الأرض بطبقة كثيفة من الجليد استمرت لفترة طويلة حتى إن الدواب نفقت من شدة الجوع.

وقد وقعت حوادث كثيرة، وحدث أن سقطت الثلوج فى كل مكان، حيث فاجأت قطيعا من الضأن والماعز فأهلكته، وكذلك رعاتهم. ثم هبت ريح عاصفة من الشمال والغرب مصحوبة بثلوج كثيفة، استمرت ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام، مما أدى إلى هلاك الكثير من البشر والدواب، وخاصة الصغيرة منها، كما هلك عدد غفير من الرجال فى الطريق فسقطوا أمواتا هم ودوابهم.

عن الشعب الذى قدم من المنطقة السفلى ويدعى "عمالقة"(٣١٩) فى اللغة البدائية القديمة عام ١٠٧٨ يونانية (٧٦٦-٧٦٧م)

فى تلك الفترة أرسل الملك بأناس من منطقة فارس، صعدوا واستقر بهم المقام عند حدود بلاد الرومان. كان هؤلاء الناس عراة حفاة، وكذلك كانت زوجاتهم وأولادهم، لأنهم كانوا يعيشون على الفطرة. كانوا لا يقومون بأى شىء من واجبات الأبوة، كما لا تعلم نساؤهم شيئا سوى شغل الصوف. كانوا يقضون الليل والنهار بعيدا عن أعين الناس، مختبئين فى الطرقات للقتل والنهب وقطع الطرق، ولما كانوا يعيشون فى جبال منيعة لم يستطع أحد ترويضهم. لقد بلغوا حدًا من الجرأة بحيث أصبحوا خطرًا على الملك، وقطعوا الطريق أمام أمير المؤمنين.

ونظرا لاستفحال خطرهم، ولأن المنطقة بأسرها كانت ثائرة ضدهم، سيَّر الملك إليهم قوةً كبيرةً هزمتهم وقضت عليهم جميعا، وقامت بحشدهم وأسرهم، وعزم على إبادتهم بحد السيف. ولما كان قد صلب رؤساءهم واستعد لتنفيذ ما عزم عليه إذا ببعض الرجال الأتقياء ينصحونه بأن يتخلص منهم بإرسالهم إلى الحدود فى مواجهة الأعداء، فيقيموا هناك أو يقتلوا بأيدى الرومان. وقد استعد على الفور لتنفيذ ما نصحه به الأتقياء، وأرسلهم وأسكنهم فى المنطقة الداخلية المضطربة فى مواجهة قماح. كانت عدتهم نحو ثلاثمائة ألف شخص، ولكنهم ما لبثوا أن هربوا وانتشروا فى المنطقة كلها، ولم يبق منهم إلا عدد قليل. ونظرا لأن الطقس فى تلك المطقة كان شديد البرودة وهم عراة حفاة ما لبثوا أن وقعوا صرعى بمجرد أن أدركهم أول فصل الشتاء، ولكن الذين بقوا على قيد الحياة لم يكفوا عن اقتراف آثامهم الأولى القديمة.

---

(٣١٩) كان يطلق عليهم أيضا "أبطال"، وهم شعب من أقدم سكان سوريا الجنوبية ومن ذرية "عيسو"، وكانوا يقيمون قرب قادس فى جنوب فلسطين. (قاموس الكتاب المقدس ص٦٣٦)

عن ترميم كنيسة آمد الكبرى

وفى تلك الفترة(٣٢٠) قام أهل آمد بتجديد هائل وعظيم لكنيستهم الكبرى التى كان قد بناها الإمبراطور المؤمن التقى هرقل، فمنذ أن بنيت تلك الكنيسة لم يجرِ ترميمها قط، ولما كانت قد تصدعت وأصبحت على وشك الانهيار فقد اهتموا بترميمها. إن رئيس الدير مار أبا وأسقف المدينة الموقر مار جورجيوس وتوما رئيس الشمامسة اهتموا بذلك اهتماما بالغا، وأنفقوا عليه مبالغ باهظة. لقد أصلحوا كل ما كان قد فسد فى الداخل واستبدلوا به الجديد، وجعلوا الكنيسة تستعيد رونقها كما كانت عند بدء إنشائها.

عن الأمر الملكى بإحصاء خيرات الكنائس والأديرة

إن الشيطان الذى يكره دائما الخير لم يتوقف الآن عن إيقاع الانقسامات وإثارة الاضطرابات فى الكنائس والأديرة **(لأن الابن مستهين بالأب والبنت قائمة على أمها والكنة على حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته)**.(٣٢١)

فى تلك الفترة صدر أمر ملكى يقضى بالقبض على رؤساء الأديرة والكنائس، وإحصاء خيرات أديرتهم وكنائسهم ومعابدهم. كان ذلك بسبب أن الشيطان الذى كان قد اختير تلميذًا فى المدرسة المقدسة للمبشرين اختير أيضا رجل من **دير مار متى**(٣٢٢) المقدس فى منطقة الموصل يدعى "زعارا". وبسبب جدال وقع بينه وبين رئيس هذا الدير فقد قلد يهوذا رئيسه الذى سلم

---

(٣٢٠) يرجع السمعانى هذه الأحداث إلى عام ١٠٨١ يونانية (٧٧٠م).
ASSEMANI: BIBL. OR., II.114.

(٣٢١) العهد القديم: ميخا ٧ : ٦.

(٣٢٢) دير عظيم رُفع بناؤه أواخر المائة الرابعة، وصار كرسيًا مطرانيًا. (اللؤلؤ المنثور ص٥١٤)

سيدنا للموت. ولم يستمر تحت سيطرة هذا الخائن، فلم يوسوس إليه الشيطان فقط بأن يفعل مثله، ولكن بأن يتفوق عليه، وذلك بأن لا يرتكب جريمة واحدة بل جرائم عديدة، وألا يخرب منطقة واحدة بل مناطق عديدة، لم يكن يريد هدم دير واحد بل أديرة عديدة. كان يشبه الحمل الذى افترق عن القطيع؛ فقد ذهب إلى **جعفر**[٣٢٣] ابن الخليفة وقال له: "إن كل ثروة عائلة هشام وعائلة مروان موجودة فى الدير الفلانى". ولم يترك أيًا من هذه الأديرة دون أن يحدده له، فما كان من جعفر إلا أن أرسل إلى الدير رجالا كالوحوش، يجمعون كل ما بداخله، حتى الحلى المستعملة، ويقيدون القسس بقيود صلبة، ويحملونهم إلى جعفر فيعذبهم ويلقى بهم فى السجون، معلنا ما كان قد حدثه به يهوذا الثانى.

ولهذا السبب صدر مرسوم فى كل مكان يقضى بضرورة إحصاء كل خيرات الأديرة. وبينما كان الجميع يفكرون أنهم سوف يصادرون كل ما لهم حدث لجعفر ما كان قد حدث **لبيلشاصر**[٣٢٤] وهو أيضا قد دنس الأوانى المقدسة، وأراد استغلالها لنفسه ولمحظياته. هنا أيضا لم يتخلَّ الرب عن كنيسته ولا عن شعبه فأوعز الرب إلى جعفر بالتفكير الماكر الذى يقضى عليه، فأرجع جعفر القساوسة الذين استردوا خيراتهم وعادوا إلى أديرتهم. وهكذا انتهى هذا الأمر، ولم يقم بعد ذلك أبدا بأىّ تفتيش، لأن الروح الماكرة الشريرة أدت إلى هلاك جعفر.

---

(٣٢٣) هو "أبو جعفر المنصور بن محمد" شقيق الخليفة السفاح، كان يحكم فى تلك الفترة. يبدو أن ديونسيوس قد خلط بين أسماء هؤلاء الأمراء. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢٤٢)

(٣٢٤) بيلشاصر أو بلطاشر: اسم أكادى، معناه "ليحفظ بيل الملك"، وهو ابن "تبونيس" آخر ملوك الإمبراطورية الكلدانية، وكان شريكه فى الملك. (قاموس الكتاب المقدس ص٢٠٨)

عن ازدهار المدينة، وعن الذنوب التى اقترفوها بها

لإظهار القلق الذى ساد المنطقة سنقوم أولا بمعرفة ثرواتها، وسنوضح مدى الهوة السحيقة التى تردت فيها تلك المدينة التى كانت غنية ومزدهرة. فى ذلك الوقت كانت المنطقة غنية جدًا وخاصة الجزيرة، وكل المنطقة الشمالية كانت زاخرة بالحبوب والكروم والأغنام الكثيرة. كانت الأرض تزدحم بمجموعات الخيول وقطعان الماعز. كان الرجال يمتلكون مؤنا بكميات كبيرة، فكان المحصول لا يكاد ينفد حتى يأتى المحصول الجديد وخاصة من النبيذ والقمح، لدرجة أن النبيذ كان يتكدس على النبيذ والقمح على القمح.

(فسمن يشورون ورفس، سمنت وغلظت واكتسبت شحما، فرفض الإله الذى عمله وغبى عن صخرة خلاصه).[٣٢٥] لم يقولوا تبارك الرب الذى أعاننا، ولكنهم هاجموا ثروات الأبرشيات والكنائس قائلين: "لماذا تحتاجها الكنيسة؟ إنما نحتاجها نحن الذين ندفع الضرائب ولدينا أطفال". فى الواقع كانوا يعولون الكثير من الأطفال، وقد أصبحوا أغنياء وتملكوا الثروات الطائلة، فتملكهم الغرور والتكبر والتنافس على ارتكاب الآثام والمعاصى، فاقترفوا الزنا وشرب الخمر والسرقة وشهادة الزور، وبهذا ترددوا فى هاوية المعصية **(أرسل عليهم حمو غضبه سخطا ورجزا وضيقا جيش ملائكة أشرار).**[٣٢٦]

فعندما كانت تثار قضية بين رجلين ويطلب القاضى شهودا فإن الرجل يذهب إلى مكان عام ويقابل أحد أصدقائه ويقول له: "هل يشهد لى فلانا؟" فيجيب على الفور قائلا: "إنى أقسم على ذلك بالرب" لماذا؟ لقد أقسم اليمين قبل أن يعرف حقيقة القضية. ماذا يستحق شعب مثل هذا؟ وإلا ماذا سيحدث؟

---

(٣٢٥) العهد القديم: التثنية ٣٢: ١٥.
(٣٢٦) العهد القديم: المزامير ٧٨: ٤٩.

(ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكـذب)[٣٢٧] **(وفى الصباح كانت إلىَّ كلمة الرب قائلة)**.[٣٢٨]

كانت القضايا كثيرًا ما تثار بين سكان قرية فيما بينهم، أو بين سكان القرى المتجاورة خلافًا على حدود مزارعهم. ولكن البؤساء لم يعلموا أنه عما قريب سوف تحل بهم الكارثة. إنهم لن يتملكوا كروما ولا منازل ولا مزارع، وإن ممتلكاتهم ستصبح خاوية من الأهالى، لا يطرقها أو يسكنها أحد حتى إن الهيئة الرهبانية نفسها خرجت عن حدود اللياقة؛ فإن الرهبان بدلا من إسداء النصائح **(وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى)**[٣٢٩] اقتنوا العديد من الخيول وقطعان الماشية والماعز والأغنام. لقد اشتروا الضياع وأصبح لكل منهم ملكيته الخاصة، وخرجوا لاقتناء الضِّياع والمنازل فى القرى، ليمتطوا صهوة الثراء والغنى كالوثنيين، ليعيشوا لمتعتهم الخاصة، دون الخضوع للأوامر المفروضة عليهم من الرب. لا تتصور أيها العاقل أنى أقص تلك الأشياء من باب اتهام الرجال، ولكنى أريد أن أظهر شفقة الرب ورحمته وحكمته، فأنا أريد أن ترى وتفهم بعد ذلك فى أى هاوية قد سقطنا، وإلى أى مدى من الضيق قد بلغنا.

عن ثورة العبيد فى حران، بلدة فيما بين النهرين

فى تلك الفترة تجمع عدد غفير من العبيد قوامه نحو خمسمائة رجل، من "**مادى**"[٣٣٠] ومن "السند" ومن "الخزر"، وقاموا فى وضح النهار بغزو

(٣٢٧) العهد القديم: الخروج ٥: ٩.

(٣٢٨) العهد القديم: حزقيال ١٢: ٨.

(٣٢٩) العهد الجديد: إنجيل لوقا ٩: ٢٣.

(٣٣٠) اسم بلاد يحدها نهر أركسيس وبحر قزوين إلى الشمال والشمال الشرقى، وفرثية وهركانية بصحراء فارس من الشرق، وفارس وسوسياية من الجنوب، وأشور وأرمينية من الغرب. وكان طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٦٠٠ ميل، وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ٢٥٠ ميلاً، ومساحتها ١٥٠.٠٠٠ ميل مربع. (ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢٤٢)

مسلح لبلدة حران. لقد وجهوا قواتهم نحو الكنز الملكى، وقتلوا بحد السيف كل من صادفهم فى طريقهم، كانوا يبحثون عن الكنز بغرض الاستيلاء على ما به. وعندما علم عباس بذلك انتابه الغضب وجمع قوة غفيرة وخرج لقتالهم، حيث التقى الفريقان فى معركة شرسة، وقع فيها كثير من القتلى من كلا الجانبين، ولكنها انتهت بأن دب الخوف فى قلوب العبيد وولوا الأدبار، كما سقط أكثرهم صرعى، وبعضهم أخذ أسيرًا، ومن نجا من الموت لاذ بالفرار، وكان رئيسهم من بين الأسرى، حيث تعرض للضرب والإهانة.

عن قيام الملك بغزو المنطقة الشمالية، وعن بناء الرقة وتعرض البلاد للأضرار منذ ذلك الوقت

ربما آثرنا فيما سبق أن نبرز ثراء المنطقة وخصوبتها، وما يكتنفها من الرخاء. والآن نسوق حديثنا أيضا عن الشعوب المتوحشة، وعمن كانوا مصدر كل الأضرار. إنه مكتوب فى الأنبياء **(ويل لأشور قضيب غضبى والعصا فى يدهم هى سخطى. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطى، أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة)**[٣٣١] وأيضا **(فإنه يقول أليست رؤسائى جميعا ملوكا)**،[٣٣٢] **(لأجل ذلك لا يفرح السيد بفتيانه ولا يرحم يتاماه وأرامله لأن كل واحد منهم منافق وفاعل شر، وكل فم متكلم بالحماقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد)**،[٣٣٣] **(فأصابت يدى ثروة الشعوب كعش وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ولم يكن مرفرف جناح ولا فاتح فم ولا مصفصف)**،[٣٣٤] **(قد جاء إلىَّ عيَّاث، عبر بمِجْرون، وضع فى مخماش**

(٣٣١) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٥/٦.
(٣٣٢) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٨.
(٣٣٣) العهد القديم: إشعياء ٩: ١٧.
(٣٣٤) العهد القديم: إشعياء ١٠: ١٤.

أمتعته. عبروا المعبر، باتوا فى جبع، ارتعدت الرامة هربت جبعة شاول)،[٣٣٥] (اليوم يقف فى نوب، يهز يده على جبل بنت صهيون أكمة أورشليم).[٣٣٦] لقد تنبأ النبى جيدا بهذا، لأنه قد رأى بعين النبوة هذا الثعبان القاسى، الذى كان دائم التلوى والتلون.

فى هذا العام غادر الملك المنطقة، حيث كان يقيم مع حاشيته ووزرائه، وجاء ليستقر فى المنطقة الشمالية مع قوات لا حصر لها. جاء إلى الموصل فاجتمع الكبار مع الصغار، وشكوا إليه العذاب والنهب والآلام والضرر الذى أنزله بهم "موسى بن مصعب". ولما كان يستعذب الخراب ويكره السلام فقد طردهم بقسوة وغلظة، ووجه كثيرًا من الأذى إلى عظمائهم. لقد سر وابتهج لأنه وجد فى "موسى" رجلا يطيب له قلبه، وقال: "لقد وجدت رجلا يروق لقلبى، سيحقق كل رغباتى، وسينفذ كل ما يختلج بصدرى، ومن هذا الوقت سيسبقنى أو يسير أمامى فى الظلم طيلة حياتى"، فهو متقدم عليه فى الظلم دائمًا. وبينما كان يستعد لدخول الجزيرة علم شقيقه "عباس" أمير الجزيرة، الذى كان يعرف أنه رجل يفضل الخراب على السلام. كانت أرض الجزيرة زاخرة بكرومها وزروعها، وكانت مأهولة فى عهد عباس، لأنه كان رجلا رحيما ومحبًا للسلام. ولقد أرسل على الفور من يعلن للأهالى فى كل البلاد أن اهربوا واتركوا البلاد والقرى، حتى لا يبقى أحد أمامه. ولكن أبناء القرى لم يفهموا مراده ولم يدركوا مقصده، وظلوا على حالهم. عندما دخل وجد منطقة عامرة وجميلة وزاهرة ومليئة بالخيرات، لأن الوقت كان شهر أيار (مايو) وكان ذلك موسم تفتح الثمار. وعندما وقع بصره على تلك المنطقة الغنية المأهولة لم يتصرف كما كان يتمنى أخوه، ولكنه عندما وجد أن تلك المدينة الغنية تحت حكمه فبدلا من أن يشكره على هذا زأر فى وجهه كالأسد

---

(٣٣٥) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٢٨/٢٩.

(٣٣٦) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٣٢.

الذى يريد أن ينقض على فريسته. وعندما مثل هذا أمامه لاستقباله بحفاوة لا تليق إلا بالملوك طرده من مجلسه مخذولا محتقرا ولم يسمح له حتى بالظهور أمامه، وقال له: "أين تلك الجزيرة الصحراء التى حدثتنى عنها؟" ثم سحب منه سلطاته وعزله ووجه إليه كل الأساليب السيئة والمشينة. بعد أن فعل ذلك بأخيه جاء إلى نصيبين ثم كفر توثا(٣٣٧) وتقدم إلى الرقة.(٣٣٨)

عن إعادة بناء الرقة

لما كان هذا الرجل يميل إلى اتباع السحرة والعرافين فقد كان يستمع ويلبى كل ما كانوا يشيرون به عليه، وقد استشارهم فى الأزمنة والحكومات فجمع له هؤلاء أقوالا حمقاء ومضحكة، وما إن قدموها له حتى أصابه الجنون، وكانت تلك هى عادة الشياطين، تحريض الخاضعين لهم على اقتراف الخطأ، وقالوا له: "سيكون هناك ملك قوى يبنى مدينة بجوار الرقة، ثم يذهب بعد ذلك إلى أورشليم حيث يقيم مسجدًا هناك، وسيحكم لمدة أربعين سنة". فقال هذا المسكين: "إنه أنا". فأتى بعمال من كل أنحاء الجزيرة وأمرهم بقطع الحجارة كما أمر أن يقوم المهندسون ببناء سور.

عن هروب الأرمن من مملكة الرومان، وعن الهزيمة التى سببها العرب للرومان

بينما كان الملك يقيم فى الرقة خرج الأرمن من مملكة الرومان، وجاءوا يطلبون من الحاكم، الذى كان فى ذلك الوقت مكلفا بالإشراف على القلاع الداخلية، يطلبون منه المثول أمامهم. كانوا يريدون دخول الجزيرة،

---

(٣٣٧) مدينة كانت بين دارا ورأس عين فى الجنوب الغربى من ماردين، وهى الأن قرية فى أرض مستوية، وهى ذات نهر وشجر وزرع. (اللؤلؤ المنثور ص٥١٨)

(٣٣٨) مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة فى بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقى. (معجم البلدان ج٢ ص٨٠٢)

كان هؤلاء من بين الذين دخلوا مع كوشـــان، حينئـــذ دخلـــوا واصـــطحبوا عائلاتهم، ثم خرجوا فتصدى العرب لهم. ولما علم حاكم "قماح" بذلك أعد قوة كبيرة، وخرج لمطاردتهم، حيث أدركهم مع عائلاتهم بينما كانوا يعســكرون فى السهل. لقد كان الأرمن ماكرين منذ القدم، وكانوا يعيشون دائمـــا علـــى الخداع، فهرب بعضهم وأخبروا العرب بمكان معسكرهم الذى لم يكن يبعـــد عنهم كثيرا. وبينما كان الرومان يخلدون إلى النوم فـــى معســكرهم آمنـــين انقض عليهم العرب فجأة فى الليلة التالية فانقضوا عليهم بحد السيف وقتلـــوا الكثيرين منهم وأسروا عددًا كبيرًا. وقادوا الأسرى إلى ملك الرقة، كما حملوا إليه رءوس القتلى. كانوا يطمعون فى الحصول منه على مكافأة بالإضافة إلى الشهرة والنصر، ولكن بدلا من منحهم المكافأة، فقد استقبلهم بقسوة وغلظـــة، وقيل أيضا إنه جردهم من كل ممتلكاتهم.

عن المعدّل الذى أرسله إلى البلد

عندما رأى أن المنطقة آهلة بالسكان أراد أن يجرى تعديلا فى القانون، ليس لأنه سعيد بخصوبة المنطقة وثرائها، ولكن بهدف فرض ضريبة الجزية على الرءوس وضريبة الخراج على الأراضى. لقد جـــاء بأنـــاس مـــاكرين ومحتالين، وعينهم ولاة وأوفدهم إلى البلاد، ليسجلوا كل الأفراد الخاضـــعين لضريبة الجزية.

عن الصافى والمعشِّر(٣٣٩) اللذين أرسلهما أيضا إلى البلد

عين الملك أفرادًا قساة القلوب من أجل الصافى والعُشْر، ولكن الحاكم الذى عين من أجل الصافى كان رجلا مجوسيًا لا يؤمن بالرب، وليس فـــى قلبه رحمة. لقد جاب كل بلاد الجزيرة من أجل إحصاء الأسواق، وكل مكان

(٣٣٩) المعشر هو من يقوم بتحصيل ضريبة العشر.

كان معدًّا للبيع والشراء، وكذلك متاجر الأسواق. وكل متجر فى مكان عام لم يكن مثبتا فى التعديل قام بمصادرته، واعتبره ملكا للملك، وكذلك الطواحين. كان يقيس الأماكن العامة بالحبل بادئًا من باب إلى آخر من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. أما خارج المكان العام فكان يقيس مسافة أربعين ذراعا من كل جانب. وكان يحصى المبانى سواء المنازل أو المتاجر التى تقع فى محيط الأربعين ذراعا ثم يقوم بتسجيلها. كان يسجل فى الصافى أيضا، كما لو كان ملكا للملك، كل مكان لم يسجل فى التعديل سواء كان حديقة أو طاحونة أو حقلا مزروعا. لقد أحصى أيضا سور المدينة على امتداده، وسجله مع جوانبه، وسجل كذلك أربعين ذراعا حول المدينة. كذلك فعل فى كل مدن الجزيرة وفى المنطقة الغربية، لأنه جاب أرض الجزيرة وغربها، وحتى أرمينيا الرابعة. وقد قام بعض الرجال ليستأجروا تلك الأماكن، أما هو فقد ذهب إلى حران، ولكنه لم يجد بها غير السلب والنهب، حيث كان النازح منها معرضا للسطو؛ وكذلك القادم إليها لا ينجو من السلب والنهب والتجرد من كل ممتلكاته. كانوا يستولون على ممتلكات أى شخص سواء كان مشتريًا أو بائعًا، ويغتصبون ما فى حوزته، وكانوا يخرجون أيضا إلى الحقول وإلى الطرقات ويلقون القبض على كل عابر سبيل.

عن المعشِّر

لقد عين الملك أيضا مسئولاً آخر للعُشْر، أرسله لتخريب المنطقة. عندما جاء ودخل البلاد وظهر فى الأسواق ومر على المتاجر قام بتسجيل كل ما كان بداخلها، فإذا وجد بها ما ثمنه مائة زوزا كان يسجله مائتين، وكان يأخذ العشر كل مائة زوزا خمسًا، ولو استطاع أن يأخذ عن كل مائة عشرًا لفعل. كانوا يخرجون أيضا إلى الطرقات ويسلبون كل من يمر غدوةً وروحةً.

إن بؤساء البلاد كانوا يخرجون ويسيرون متخفين، وينتشرون ليلا في الشوارع، كانوا يدخلون ويتربصون في المزارع المطلة على ممر الشارع الرئيسي، وينقضون بقسوة على التجار المساكين الذين يمرون، وكذلك الذين كانوا يدخلون للبحث عن الفوة.[340] كانوا يقبضون عليهم بقسوة ويقولون لهم: "إما أن تدفعوا كذا أو سنقودكم إلى الأمير". وهكذا كانوا يستولون على كل ما يريدون منهم، وكانوا يسلبون كذلك الفقراء الذين يحضرون للبحث عن الفوة. كانوا يأخذون منهم كل ما يجمعونه، ولما كان هؤلاء يتضرعون إليهم لكي يسمحوا لهم بأن يحصدوا هذا الزرع كانوا يقولون لهم: "اذهبوا واحصدوا لمدة ثلاثة أيام بزوزا واحدٍ أو أربعة زوازٍ". كل واحد كان يحسب معهم كما لو كانوا يحصدون في حديقته الخاصة، ولذلك أصابهم حزن عميق رغم إنقاذ جزء من ذلك الذي كانوا يحصدونه، لأنهم ما يكادون يهربون من أحدهم حتى يقعوا فريسة لثانٍ ثم لثالث...إلخ. والذين كانوا قد هربوا من ضريبة العشر لحقتهم ضريبة الصافي، وكذلك في كل مكان كان الرجال ينهبون الفقراء، حتى اللصوص أنفسهم كانوا يدخلون أيضا في العشر. وفي أي مكان كانوا يلتقون بعابري سبيل فقراء كانوا يجعلون من أنفسهم معشرين وينهبونهم. منذ ذلك الوقت لم يكونوا مضطرين لأن يتربصوا في الطرقات ليلا، بل كانوا يحققون رغباتهم وينفذونها في وضح النهار. كانوا يسجلون أيضا محصول القمح الذي يمتلكه الأشخاص، وعندما كان أحدهم يمتلك خمسين جريبا كانوا يسجلون ألفا، إذ كانوا يسجلون وفقا لرغباتهم، ورغم ذلك في هذا العام لم تكن هناك خسائر تذكر.

---

(٣٤٠) الفوة نبات زراعي صيفي.

عن أصحاب الوشم والأختام

لقد عين حاكما آخر لكى يشِم الرجال فى أعناقهم ويختمهم كالعبيد **(ورأيت عروشا فجلسوا عليها وأعطوا حكما ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة).**[٣٤١]

ولكن هنا لم يكن الرجل يُوشَم على الجبهة فقط وإنما على يديه وعلى صدره وحتى على ظهره، فقد جاء هذا الحاكم، وعند وصوله أفزع المنطقة أكثر من سابقيه، وذلك لأنه أصدر أمرًا أن يوشم الأهالى على الأيدى بوشم لا يمحى أبدا ولا يزول عن مكانه طيلة حياة الإنسان الذى أخذه. عندما ظهر فى البلاد أصاب الجميع الرعب، وهربوا من وجهه وأغلقوا المتاجر، وتوقفت الأسواق عن البيع والشراء، وتعطلت الحركة فى الطرقات. الذين كانوا يريدون دخول المدينة كانوا يقدمون المال خشية أن يصيبهم ضرر، والذين كانوا يريدون الخروج كانوا لا يستطيعون ذلك، لأن أبواب المدينة قد أغلقت، ولم يسمح لأحد بالخروج، واستمر ذلك الحال لمدة أسبوع. عندما رأى أن الشوارع قد خلت من المارة، ولم يَفِد أحد من البلدة إلى المدينة، أرسل جامعو الضرائب إلى كل من حل مكان عباس فى جباية تلك الضرائب وقالوا له: "إن الشعب قد هرب من هذا، فإذا لم يرحل من هنا لن يكون ممكنا دفع الضريبة". عندما سمع ذلك أرسل مكتوبا إلى من يقوم بوشم الناس يستدعيه، فلما رحل نَعِم الأهالى بقليل من الراحة من هذا الجانب، لأنه مات فى الطريق.

---

(٣٤١) العهد الجديد: رؤيا يوحنا اللاهوتى ٢٠: ٤.

عن المنفى

لقد عين أيضا حاكمًا آخر لإعادة كل شخص هارب إلى موطنه، وهذا بدوره عين حكّامًا آخرين أرسلهم إلى البلاد. لم يكن يرسل حاكما دائما إلى كل بلدة، وإنما كان دائما يجرى التنقلات فيما بينهم، حتى لا يجتمع أهل البلدة على الحاكم وتتوطد بينه وبينهم الصلات، ويتم التلاقى بين حكام مدن الجزيرة، ويدبرون أمرًا بسبب ما يشعرون به من ألم النفى.

منذ ذلك الوقت لم يعد هناك سلام فى أى مكان، بل ساد السلب والنهب والقسوة والظلم، وانتشرت الأعمال الشريرة والنميمة والجور وانتقام الرجال بعضهم من بعض، ليس فقط الغرباء بل الأهالى. كان الأخ يحيك المكائد لأخيه، وكان هذا يسلم هذا.

لقد عين فارسيًّا فى ماردين لإعادة المنفيين وجبى الخراج، وكان الذين هربوا إلى ماردين أكثر ممن هربوا إلى أى مكان آخر. وكان العرب والسوريون يحتلون المنطقة كلها، مما أدى إلى هروبهم. كان هذا الرجل يدعى "خليل بن زادان"، وقد أنزل كثيرًا من الأذى بالعرب، لا مثيل له فى السابقين ولا اللاحقين، وذلك بسبب عدائه الشديد للعرب. لقد أرسل بعض الأمراء فى كل البلدان. لو علم أن شخصًا قد أقام هو أو أحد آبائه أو أجداده فى ماردين منذ أربعين عامًا أو خمسين كان يأمر بإخراجه من منزله، بل من قريته أو مدينته، وكان يقاد إلى تلك البلدة مع غيره من الرجال المطرودين. لم يكن هذا العمل مقبولا من الناس، ولكن كان دون جدوى، فلم يهرب منهم سوى القليل. لقد تجمع فى تلك المنطقة حشدٌ كبير من الناس، لدرجة أنه لم يعد هناك مكان ولا بلد ولا منزل إلا وامتلأ وازدحم بالسكان. لقد جعل العرب يتنقلون من بلد إلى آخر، أخذ كل ما يملكون، وملأ أراضيهم ومنازلهم بالسوريين، وجعل هؤلاء السوريين يزرعون قمحهم. لقد تخلص من أغنيائهم، وأنزل بهم شتى أنواع العذاب والتنكيل دونما رحمة أو شفقة. لقد

كان يحضر الرجل منهم ويجتز بالموس شعره ولحيته، ويصنع له تاجا من العجين ويضعه فوق رأسه، ويعرضه للشمس ثم يصب الزيت على رأسه، بحيث ينزلق شيئا فشيئا على عينيه، وبذلك تصاب رأسه بآلام مبرحة، ثم يضع الأغلال فى أرجله وذراعيه وأصابعه، ويضع على عينيه كرة صغيرة من الحديد. كان يستخدم معهم شتى أنواع التعذيب دون رحمة، مما أدى إلى هلاك عدد كبير، أما الذين هربوا فقد نزحوا إلى أماكن أخرى نائية.

وعن أنواع العذاب الأخرى التى حدثت فى كل البلاد سنتذكر هنا يوئيل العظيم الذى كان قد رآهم من قبل، هو نفسه سيرويها لكم: (**اسمعوا هذا أيها الشيوخ وأصغوا يا جميع سكان الأرض، هل حدث هذا فى أيامكم أو فى أيام آبائكم؟. أخبروا بنيكم عنه وبنوكم بنيهم وبنوهم دورا آخر. فضلة القمص أكلها الزَّحَّاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار**).(٣٤٢)

إن النبى قد شاهد هذا العصر، وتحدث عن المساوئ التى كان يجب أن تحل على الرجال. إن أقواله فى الواقعِ قد لاقت قبولهم، أى شخص كانٍ يستطيع الهرب من الصافى كان المعشر يدركه، ومن كان يفلت من المعشر يقع فى المنفى، ومن كان يهرب من المنفى كان يقع فريسة قطاع الطرق. كان الفلاحون يتصرفون بقسوة، خاصة تجاه الذين كانوا ينهبونهم فى كل مناسبة وبكل طريقة، وبواسطة حكام المنفى الذين ملأوا المنطقة بأسرها، كانوا يخشون الظهور أمام السلطة. إن هؤلاء الحكام الطغاة أنفسهم كانوا يستولون على كل ما تصل إليه أيديهم، وينهبون كل ثرواتهم، أو حتى يقصدونهم ليسلموهم لحاكم المنفيِ المعين على المنطقة؛ بمعنى أنه لم يفلت أحد من إحدى المصائب، لأن كلاً منهم قد وقع تحت سلطة واحد أو آخر من الحكام. هؤلاء لم يهتموا كثيرًا لرحيل المنفيين، ولكن عندما كانوا ينهبون

---

(٣٤٢) العهد القديم: يوئيل ١: ٢/٣/٤.

أحدًا بمثل أصابع اليد، كانوا يبتعدون عنه قليلا حتى يسمحوا له بالهرب، فلا يأتى معهم ويشكوهم، بدعوى أنهم قد أخذوا ثروتـــه. وأيضـــا إذا حـــدث أن قبضوا عليه تكون معاملتهم له أشد قسوة من المرة السابقة.

تلك الكارثة ازدادت حدة فى كل بلاد الجزيرة، فقد حرم الملك ذلـــك، سواء كان عربيًا أو سوريًا، أن يحصد زرعه. لقد منع حصد القمح أو ضربه قبل دخوله بلاد الجزيرة، لأنه كان يريد أن يرى بنفسه كل المحصول.

فى هذا العام كانت هناك وفرة فى المحصول فى كل مكان، وعنـــدما وصل ورأى كل شىء، وبعد أن استخدم جميع أنواع التعذيب مع عباس عين حكامًا آخرين لجباية الزكاة، أى صدقة المال، وأوفدهم إلـــى تلـــك الـــبلاد. وبمجرد أن تسلم الحكام ذلك الأمر نفذوه دون رحمة. كانوا يدخلون مـــزارع العرب ويسجلون كل ما كانوا يجدونه، سواء كان للعرب أو للسوريين. كانوا لا يسجلون التفاح ولا أكوام الحنطة ولا أكوام الشعير وفقًا للحقيقة، ولكن إذا وجدوا مائة جريبٍ كانوا يسجلون ثلاثمائة. هكذا لم يدعوا شيئا فـــى أمـــلاك السوريين أو العربِ دون تسجيل، لا حديقة ولا حقلاً مزروعًا ولا دابةً. كانوا يتوجهون بعد ذلك إلى المدينة ويطلبون منهم زكاة تلك الأشياء. كثيـــر مـــن العرب كانوا بعد أن يبيعوا محصولهم ومزارعهم ودوابهم – لو كانوا يملكون – لا يجدون المبلغ المطلوب منهم، لأنه كان قد سجل للشخص الواحد كـــذا فدان، وتنتج محصولا قدره كذا جريب. لقد سجل عليه فـــدادين مليئـــة فـــى الوقت الذى لم يجنِ فيه أكثر من خمسة جريبات فقط، فإن العرب قد تحملوا ألوانًا من القسوة أشد من تلك التى تحملها السوريون. أما بالنسبة لهـــم فـــإن الأمير المكلف بالضريبة قد أمرهم أن يجتمعوا، لقد طلب منهم ضامنا لكـــل بلدة وأعطاهم الحرية فى ضرب محصولهم من القمح.

قبل المرور أيضا من نصيبين أصدر الملك أمرًا باستقدام كل أمير أو كاتب أو صراف أو رئيس مقاطعة أو حاكم، كل من كان يعمل أثناء حكم عباس، مع نبلاء البلدة. لو حدث أن كان فى بلدة واحدة عشرون حاكمًا فعليهم أن يحضروا جميعا ومعهم سجلات حساباتهم، فمن ظهرت خيانتهم وعدم احترامهم الأمانة عزلهم من مناصبهم، وفعل ذلك مع الصيارفة. لقد دارت عليهم الدوائر وعادوا يذوقون نتيجة أعمالهم.

لقد أقاموا زمنا فى ذلك المكان ولكنهم لم يكونوا يشعرون بالقلق، لأنهم قد أقدموا على ما فعلوا دون إذن منه، كما لم يتملكهم القلق مطلقًا حتى بعد رحيله. بعد أن تصرف هكذا فى الجزيرة هاجم الرقة. وقد قال إشعياء فى هذا الصدد: (**قد جاء إلى عياث، عبر بمجرون، وضع فى مخماش أمتعته. عبروا المعبر، باتوا فى جبع، ارتعدت الرامة هربت جبعة شاول**).[٣٤٣]

فهوجم فى الرقة، ومر بالمنطقة الغربية فى طريقه إلى أورشليم، ونشر فيها القلق والاضطرابات، وأشاع فيها الفزع والخراب أكثر مما فعل بالجزيرة، فقد أحدث ما تنبأ به دانيال عن المسيح الدجال نفسه. لقد حول المعبد إلى مسجد، لأن ما تبقى من هيكل سليمان قد أصبح مسجدًا للعرب،[٣٤٤] **فأخذ امرأة...**[٣٤٥] أصلح ما خرب من أورشليم. لقد هاجم الرجال فأخذ ثرواتهم ودوابهم وخاصة ماشيتهم، لم يترك أحدًا مهما كان.

---

(٣٤٣) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٢٨/ ٢٩.

(٣٤٤) يتضح من هذا القول مدى تعصب الكاتب مقابل انتشار الإسلام فى بلاد الشام.

(٣٤٥) الجملة غير مفهومة فى الأصل السريانى، لأنها ناقصة، وكذلك فى النص الفرنسى، فأكملتها بعد كلمة "امرأة" بوضع ثلاث نقاط.

وبعد ما اقترف هنا كل أنواع المفاسد كما حدث فى الجزيرة، جاء عند حلول الشتاء إلى الجزيرة لقضاء بضعة أيام. قبل عودته من الغرب عين رجلاً فارسيًا يدعى "أبو عون" لجباية الجزية، كما عين حكامًا آخرين لجمع ضرائب أخرى. من هنا بدأت الكوارث، ومثل الحيوانات المفترسة التى تهاجم الفريسة من كل جانب، كان يقوم خمسة حكام وأحيانا ستة أو سبعة، وقد يصل عددهم إلى عشرة، ويدخلون فى يوم واحد إلى بلدة ما، ويقوم كل حاكم بفرض سلطانه على أهالى تلك البلدة الذين لم يتمكنوا من الهرب والتخلص من الموت إلا عن طريق خسائر باهظة. كان يحدث أحيانا عندما كان يرحل الأولون يحل آخرون مكانهم فى المنطقة نفسها، وبذلك لا تكون هناك وسيلة لمنع ابتزازاتهم.

وماذا أقول الآن غير ما قاله النبى: **(فأكون لهم كأسد، أرصد على الطريق كنمر. أصدمهم كدبة مثكل وأشق شغاف قلبهم وآكلهم هناك كلبوة يمزقهم وحش البرية)**،[٣٤٦] إذا دعاهم أحد بحيوانات مفترسة فإنه لا يكون قد افترى عليهم، لأنهم كانوا أقسى من الجوارح والحيوانات المفترسة.

والنبى نفسه قال أيضا: **(وإن كان مثمرا بين إخوة تأتى ريح شرقية ريح الرب طالعة من القفر فتجف عينه وييبس ينبوعه، هى تنهب كنز كل متاع شهى)**،[٣٤٧] **(ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بإثمك)**.[٣٤٨] ويقول نبى آخر: **(اصحوا أيها السكارى وابكوا وولولوا يا جميع شاربى الخمر على العصير لأنه انقطع عن أفواهكم. إذ قد صعدت على أرضى أمة قوية بلا عدد أسنانها أسنان الأسد ولها أضراس اللبوة)**.[٣٤٩] وانظر كيف أن الأنبياء كانوا يطلقون على هذا الشعب اسم

---

(٣٤٦) العهد القديم: هوشع ١٣: ٧/٨.
(٣٤٧) العهد القديم: هوشع ١٣: ١٥.
(٣٤٨) العهد القديم: هوشع ١٤: ١.
(٣٤٩) العهد القديم: يوئيل ١: ٦/٥.

حيوان مفترس (**جعلت كرمتى خربة وتينتى متهشمة، قد قشرتها وطرحتها فابيضت قضبانها**).[٣٥٠]

فى الحقيقة فإن النبيذ كان بعيدًا جدًّا عن الذين يعملون فـــى الكـــروم. فبدأوا يهربون من بلدة إلى أخرى، ولكنهم بتلك الطريقة لم تكتب لهم النجاة، وما يكادون يهربون من حاكم حتى يقعوا فى يد حاكم آخـــر لينهـــبهم، وإذا هربوا من هؤلاء فإن رؤساء البلدة التى لجأوا إليها كانوا يسلمونهم ويملأون هم أنفسهم المكان باللصوص وقطاع الطرق. إن الذى كان مشهورا أو كـــان مهيئا ليكون رئيسا وقائدا يكون رئيس عصابة لقطاع الطرق. عنـــدما كـــان يذهب البؤساء للاحتماء فى تلك البلدة كان ينصب لهم فخا بأى وسيلة، كـــل المصائب كانت تصدر منه على البعيدين وعلى المقربين وعلى أهل المنـــزل وعلى كل من كان خارجه.

كان كل رؤساء البلدان يتصرفون هكذا (**رؤساؤك متمردون ولغفـــاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضـــون لليتـــيم ودعوى الأرملة لاتصل إليهم**).[٣٥١] إن أحكام الرب لم تكن ماثلـــة نصـــب أعينهم.

وإذا أكد الأنبياء ما قد شاهدناه ولمسناه بأيدينا، من سيلومنا مـــن بـــين الذين يحبون الرب، لأننا قد هاجمناهم فى الكتاب، وذلك حتى تتعرف عليهم الأجيال القادمة بعدنا؟ فإنه مكتوب (**اذكر أيام القدم وتأملوا سنى دور فدور، اسأل أباك فيخبرك وشيوخك فيقولوا لك**).[٣٥٢] و(**أخبروا بنيكم عنه وبنوكم بنيهم وبنوهم دورا آخر**).[٣٥٣]

---

(٣٥٠) العهد القديم: يوئيل ١: ٧.
(٣٥١) العهد القديم: إشعياء ١: ٢٣.
(٣٥٢) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٧.
(٣٥٣) العهد القديم: يوئيل ١: ٣.

عن السماح للرجال بانتهاك حرمة المقابر

كانت المصائب قد تراكمت، لدرجة أنـــه كانـــت المصـــيبة تصـــطدم بالمصيبة والجناح يرتطم بالجناح واليد تضرب الأخرى، ومن كل جانب كان النواح يرتفع ويسمع من كل مكان. لم يفكر أحد من الأحياء فى الهروب من تلك الكارثة التى حلت بهؤلاء الذين كانوا يتمتعون بالحياة الجسدية، تماما مثل الذين قد تحولوا إلى تراب. إن الذين كانوا يجدون لذة فى السرقة وفى نهـــب المقابر قد تمكنوا الآن من إشباع رغباتهم.

إن مثل تلك الخطيئة وطفل الخطيئة وصنيعة الشيطان الذى يقف ضد كل ما هو أبدى ومقدس، ذلك الذى يصيب أهله ونسله من القبيلة الملعونـــة التى يتملكها الشعب الذى أساء معاملة موسى. لم يكن موسى بن صعب قـــد رحل بعد، وقد أثبتنا فى تلك الفترة مدى تصاعد المصائب، لأنه لدينا رحمة.

إلى ذلك الوقت – باستثناء فقراء المنطقة السفلى وجماعات الأغـــراب المقيمين فى تلك البلدة – لم يقاسِ الشعب كثيرا، ففى ذلك العام اضـــطهدهم ودمرهم وأبادهم. لقد حمل الأهالى أطفالهم فى أعناقهم وفروا من قرية إلـــى قرية.

فى ذلك العام وصلتنا من مناطق نائية أنباء حزينة، أنه فى منطقة مـــا انتهك الرجال حرمة المقابر، وأخرجوا منها الفضة والذهب. لـــم نصـــدق – بسبب فداحة الجرم – أن يقدم الأشخاص على هذا العمل تجاه الموتى، ولكن كل القادمين كانوا يؤكدون الخبر، بأنهم سرقوا منهم الذهب، ولم يكـــن مـــن السهل علينا أن نصدق هذا. ولكن ذلك الأمر لم يلبث أن تأكد لنا ووضح أمام أعيننا، حيث جرى فى مناطقنا لآبائنا وأشقائنا الذين رحلوا إلى الحياة الآخرة. سنتحدث هنا عن الحدث كما وقع فى حينه.

عن قوس الرب الذى ظهر فى هذا العام مقلوبا، وعن العصا البيضاء التى ظهرت فى وسط السماء متجهة ناحية انحناء القوس على هيئة سهم

فى هذا العام أيضا فى شهر أيار(مايو) ظهر فى السماء هذا القوس الذى كان يظهر دائما فى السحب، ولكن إنحناءته كانت متجهة إلى أسفل وجوانبه إلى أعلى، فقد كان يشبه القوس المعد للحرب فى يد الرجل، معلنا التهديد والثورة ضد سكان الأرض.

لقد ظهر فى يوم مقدس من أيام الآحاد، نحو الساعة الثالثة صباحا كما أثبته بعض المعمرين الموثوق بهم، والذين كانوا أول من رأوه. وإذا كان هناك من لا يصدق ذلك فليطلع على الملاحظات السابقة، فسوف يجد نفس الشىء. فمن المؤكد أن الأحداث التى وقعت بعد ذلك ظهرت بما يشبه عصا بيضاء فى السماء فى المنطقة الغربية، حتى إن قمتها كانت قد لمست وسط السماء فى الشرق، وكان سمكها كسمك الحبل. إن هذه العلامة لم يعد يشاهدها الكثيرون لأنها قد ارتفعت لعدة أيام. كانت هناك روايات كثيرة بشأنها، البعض كان يقول إنها **عصا الغضب**[٣٥٤] والبعض يقول إنها إحدى السحب التى كانت قد صعدت إلى السماء. لقد تملك الخوف الحكماء والمؤمنين عندما رأوا تلك العلامة، لأنهم أدركوا أن ذلك حدث نتيجة الذنوب والآثام، وأنه ملىء بتهديدات الغضب، وأنه دليل على الوعيد والغضب، ولكن الحمقى لم يبالوا قط **(من هناك يتحسس قوته، تبصره عيناه من بعيد)**.[٣٥٥] كانت العصا متجهة نحو وسط القوس الممدود. لقد أظهرت المعنى ولم يتأخر عن إظهار ما أراد الرب إثباته عندما أرسله **(الحكيم عيناه فى رأسه، أما**

---

(٣٥٤) المقصود بعصا الغضب التى ورد ذكرها أكثر من مرة فى المخطوطة "القوة والتسلط والنفوذ"، كما أنها تدل أيضا على تأديب الله للبشر.

(٣٥٥) العهد القديم: أيوب ٣٩: ٢٩.

الجاهل فيسلك فى الظلام، وعرفت أنا أيضا أن حادثة واحدة تحدث لكليهما).[٣٥٦]

قد يقول البعض: "ربما لا يملك الرب قوسا ولا سهما"، فليسمع هذا: ماذا يقول المزمور: **(فيرميهم الله بسهمٍ بغتةً كانت ضربتهم. ويوقعون ألسنتهم على أنفسهم، ينغض الرأس كل من ينظر إليهم. ويخشى كل إنسان ويخبر بفعل الله وبعمله يفطنون)**،[٣٥٧] كما يقول أيضا: **(أرسل سهامه فشتتهم وبروقا كثيرة فأزعجهم)**.[٣٥٨] لقد فزع الأهالى وأصبحوا مشتتين فى كل مكان، فخربت الحقول ونهبت القرى والمزارع، ونزح الناس من بلادهم إلى مناطق أخرى.

عن علامة أخرى ظهرت من ناحية الشمال فى العام نفسه

ظهرت علامة أخرى فى ناحية الشمال. إن شكلها كان تأكيدا لتهديد الرب وثورته علينا، لقد ظهرت فى موسم الحصاد، واحتلت كل الجانب الشمالى، وامتدت من الطرف الشرقى إلى الطرف الغربى، وكانت هيئتها على النحو التالى: عصا حمراء وأخرى خضراء وثالثة سوداء ورابعة صفراء، وكانت تصعد من أسفل إلى أعلى، فعندما كانت عصا تهبط كانت الأخرى تصعد، وإذا حدث أن نظر إليها إنسان كانت تتغير فى نحو سبعين شكلا.

بالنسبة للحكماء فإن ذلك كان علامة تهديد ووعيد، ولقد قيل الكثير فى هذا الصدد. البعض كان يفسره على أنه دم، وذهب آخرون إلى تفسيرات

---

(٣٥٦) العهد القديم: الجامعة ٢: ١٤.

(٣٥٧) العهد القديم: المزامير ٦٤: ٧/٨/٩.

(٣٥٨) العهد القديم: المزامير ١٨: ١٤.

أخرى. أما بالنسبة لى فسأقول: **(وأعطى عجائب فى السماء من فوق وآيات على الأرض من أسفل دما ونارا وبخار دخان).**[٣٥٩]

عن كيفية دفع الضريبة، وعن السجن فى كنيسة

ولما كان المطلوب من الفرد أكثر مما تطيق نفسه الوفاء به جمع الأمير المسئولين، ووزع بينهم المبالغ المطلوبة بالتساوى على قدر المستطاع، وقد وزعها هؤلاء فيما بينهم بين أهالى بلادهم. ولما كان الحكام الذين عينهم عباس لا يزالون فى السلطة، وأن **مصدر كل المصائب لم يكن قد حضر بعد،**[٣٦٠] لذلك لم يقترفوا الأذى ولم يتعدوا حدود القسوة، وطالبوا أهالى البلدة بدفع المبلغ المحدد.

ولما كان **موضوعهم لم يتم**[٣٦١] حدث تقسيم جديد بين المسئولين، ولكن هذا لم يكفِ أيضا، وبذلك قام المسئولون بنهب الفقراء واليتامى والأرامل الذين كانوا يقيمون فى بلدتهم. لم يرحموا اليتامى، ولم يشفقوا على الأرامل، ولم يفعلوا ذلك نزولا على رغبة السلطة، ولكن كان ذلك من تلقاء أنفسهم، **(الفراء فى البرية صيد الأسود وكذلك الفقراء هم مراعى الأغنياء)،**[٣٦٢] وبالمثل بالنسبة لهؤلاء، إن أغلبهم قد هبت عليه تلك العاصفة، وأحاطت به تلك الظلمات التى كانت تنتشر فى الأرض، وكان المساكين لا يعرفون أنه بعد وقت قصير سيكونون هم أنفسهم ضحية الخوف؛ فقد أسرعوا ببيع الأثاث والدواب وممتلكات الفقراء فى بلدتهم، فملأوا منازلهم وأصبحوا أغنياء كما كانوا يريدون، لأنه كان يعطى لهم بالاسترجاع والفوائد دون تحفظ، لدرجة أنهم كانوا على وشك أن يمتلكوا – وفقا لرغبتهم – أطفال

---

(٣٥٩) العهد الجديد: أعمال الرسل ٢: ١٩.

(٣٦٠) المقصود هنا موسى بن مصعب.

(٣٦١) المقصود هنا أن المبلغ المطلوب لم يحصل عليه.

(٣٦٢) العهد القديم: الأسفار المنحولة، يشوع بن سيراخ ١٣: ٢٣.

الفقراء عبيدًا وإماء. إن هؤلاء المساكين كانوا يجهلون أن نهاية الملحدين هى الفناء، وكانوا يشترون الحنطة خمسين جريبًا أو حتى ستين، وأحيانا سبعين بدينار واحد. وأى شخص كان يظهر زوزا كان يأخذ الكمية التى يطلبها. كانوا يقدمون النبيذ خمسين كلتًا وأحيانا ستين أو سبعين أو حتى ثمانين بدينار واحد. كانت الحنطة فى السوق تباع ثلاثين جريًبا وأحيانا خمسة وثلاثين، وتصل أحيانا إلى أربعين بدينار واحد. النبيذ بنفس النسبة، والحمل زوزا، والعنزة زوزا، والبقرة خمسة زوازٍ، والحمار أربعة زوازٍ. كل شىء كان بثمن بخس. ولما كان الموضوع قد طال أمره ولم تتحقق النتيجة المرجوة جمع الأمير سكان المنطقة، هذا الأمير كان رجلا مكروهًا وملحدًا وظالمًا، ولم تتح الفرصة لأحد ليثنى عليه أو يمدحه، فضلا عن سلوكه فى المنطقة، لقد جمع أهالى المنطقة وحبسهم جميعا فى كنيسة كبيرة.

عن السجن فى الكنيسة

عندما كان البشير ينادى معلنا التجمع فى الكنيسة كان الحراس يفيضون حيوية ونشاطا، يخرجون ويلقون القبض على أى شخص يساورهم الشك فى أنه يمتلك بعض الزوازى. ماذا أستطيع أن أقول إلا قول النبى: **(اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، نجسوا هيكل قدسك، جعلوا أورشليم أكواما. دفعوا جثث عبيدك طعاما لطيور السماء، لحم أتقيائك لوحوش الأرض).**[٣٦٣]

لقد تجمع كل الرجال الأحرار وحتى النساء اللاتى فقدن أزواجهن أو اللاتى غابوا عنهن مؤقتا بسبب هذا التعذيب. لقد أخرجهن من منازلهن، وساقهن وأنزلهن إلى الشوارع، وحبسهن فى تلك الكنيسة، نساء لم يكنَّ قد

(٣٦٣) العهد القديم: المزامير ٧٩: ١/٢.

ظهرن من قبل قط فى الطرقات، كنَّ مجبرات على النزول، ووُضـعن دون حياء وسط الرجال. لقد فعلوا بالمثل مع النساء العربيات، إن كل نساء العرب دون استثناء كن مجبرات على النزول، وإذا كان أحد العرب غائبا كـانوا يأخذون زوجاته أو بناته. كانوا يستولون على البلدة تلو الأخرى، أو كـانوا يأخذون ضامنا ويقومون بقتلهم، سواء بضربهم أو بوضع القيود فى الأرجل والأصابع.

إن الظلم الواضح قد ازداد حتى وصل وجلس على الكرسى الأعلـى المواجه للمائدة المقدسة الخالدة، لقد ازدادت جرأتهم حتى وصلت إلى المائدة المقدسة ليقدموا نفاياتهم التى تثير الرب، وكانو يطأون بأرجلهم الملوثة تلـك المائدة المهيبة. فى المذبح نفسه كانوا يغسلون رجس أعضائهم، وكانو يلقون بنجاسات أخرى كثيرة فى وسط الكنيسة. كل هذا الشعب رجالا ونساء كانوا يقضون حاجتهم دون حياء على مرأى من الآخرين.

لقد ظلوا هكذا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ فى تلك الكنيسة، لقد ارتفـع فـى وسطها صياح أليم، وبدلا من الدخان المعطر بعطور الاختيار صعدت منهـا رائحة العفونة، مع الصياح المؤلم لهؤلاء الذين كانوا محبوسين.

من أجل الحاجة انقضوا على ثروات الكنائس والأديـرة، لدرجـة أن الكنائس البعيدة التى لم تكن تشتم فيها الرائحة النفاذة كانت تقاسى من تدنيس تلك القدسيات، وكانت ضحيتها الكنيسة الكبرى، وهى أكبر كنائس المنطقـة. والسبب فى ذلك أن الأهالى أصبحوا مجردين من خيراتهم ومن أثاثهم ومـن آنيتهم المقدسة التى وضعت رهينة بين أيدى الوثنيين (**أنبياؤها متفـاخرون أهل غدرات، كهنتها نجسوا القدس خالفوا الشريعة**)،[٣٦٤] (**لماذا لى كثـرة ذبائحكم، يقول الرب، اتخمت من محرقات كباش وشحم مسـمنات، وبـدم**

---

(٣٦٤) العهد القديم: صفنيا ٣: ٤.

عجول وخرفان وتيوس ما أُسرُّ. حينما تأتون لتظهروا أمامى من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دورى. لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة، البخور هو مكرهة لى، رأس الشهر والسبت ونداء المحفل، لست أطيق الإثم والاعتكاف. رءوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى، صارت علىَّ ثقلا، مللت حملها. فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم وإن كثرتم الصلاة لا أسمع، أيديكم ملآنة دما)،[٣٦٥] عندما نرى بعيون العقل خبث أخطائنا العديدة نتذكر قول النبى عن تلك الأشياء: **(لذلك قل لهم، هكذا قال السيد الرب: لا يطول بعد شىء من كلامى، الكلمة التى تكلمت بها تكون، يقول السيد الرب).**[٣٦٦]

إن الحاكم استعمل معهم كل أنواع التعذيب والتهديد، لقد اضطهد – وفقا لرغبته الخاصة – عربًا وسوريين وأصحاب متاجر وأصحاب دكاكين، لذلك فقد خلت الأسواق فى هذه الأيام من البائعين والمشترين، كما خلت الطرقات من القادمين والرائحين، لأن أبواب المدينة كانت مغلقة.

عندما رأى الذين يخشون الرب كل تلك القاذورات التى ارتكبها هؤلاء الظالمون وسط مذبح الكنيسة المقدس انتابهم حزن عميق، وصاحوا متجهين إلى الرب قائلين: **(اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك. نجسوا هيكل قدسك. جعلوا أورشليم أكواما. سفكوا دمهم كالماء حول أورشليم وليس من يدفن. صرنا عارا عند جيراننا هزءا وسخرة للذين حولنا. إلى متى يا رب تغضب كل الغضب وتتقد كالنار غيرتك. أفض رجزك على الأمم الذين لا يعرفونك وعلى الممالك التى لم تدع باسمك. لأنهم قد أكلوا يعقوب وأخربوا مسكنه. أعنا يا إله خلاصنا من أجل مجد اسمك، ونجنا واغفر خطايانا من أجل اسمك. لماذا يقول الأمم، أين هو إلههم لتعرف عند الأمم قدام أعيننا نقمة**

---

(٣٦٥) العهد القديم: إشعياء ١: ١١/١٢/١٣/١٤/١٥.

(٣٦٦) العهد القديم: حزقيال ١٢: ٢٨.

دم عبيدك المهراق؟)،[٣٦٧] **(فحمى غضب الرب على شعبه وكره ميراثـه. وأسلمهم ليد الأمم وتسلط عليهم مبغضوهم. وضغطهم أعداؤهم فذلوا تحت يدهم. مرات كثيرة أنقذهم، أما هم فعصوه بمشورتهم وانحطوا بإثمهم)**،[٣٦٨] هكذا جرد الحاكم البلدة من كل شيء ثم ذهب ليقيم بجوار أمير المؤمنين فى نصيبين.

إنه فى طريق عودته من الشرق قام مرة أخرى بتدنيس كـل كنـائس البلاد وتخريبها، وخاصة تلك الموجودة فى الرها، فقد قاست أكثر من غيرها وفقدت ثرواتها. إننا سنقول مع النبى: **(من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال وصارت جثثهم كالزبل فى الأزقة، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد).**[٣٦٩]

عن الدجال الذى ظهر فى الجزيرة
عام ١٠٨١ يونانية (٧٦٩-٧٧٠م)

لقد قصدنا أن نروى كل شىء، وأن نترك ذكرى لهؤلاء الذين سيأتون من بعدنا إلى هذا العالم، ليدركوا العبء الثقيل الذى تحمله الأقدمون، فيبتعدوا عنه أو يأخذوا حذرهم. **(اضرب المستهزئ فيتذكى الأحمق ووبـخ فهيمـا فيفهم معرفة).**[٣٧٠] فليتأملوا إذن السيئات التى حلت بالأولين، فليبتعدوا عنها لأن كل يوم يأتى حاملا معه سيئاته، فقد أمر الرب تلاميذه **(احتـرزوا مـن الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحمـلان ولكـنهم مـن داخـل ذئـاب**

---

(٣٦٧) العهد القديم: المزامير ٧٩: ١/٣/٤/٥/٦/٧/٩/١٠.
(٣٦٨) العهد القديم: المزامير ١٠٦: ٤٠/٤١/٤٢/٤٣.
(٣٦٩) العهد القديم: إشعياء ٥: ٢٥.
(٣٧٠) العهد القديم: الأمثال ١٩: ٢٥.

خاطفة)،[٣٧١] (لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا)،[٣٧٢] وأيضا: **(حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا. فإن قالوا لكم ها هو في البرية فلا تخرجوا، ها هو في المخادع فلا تصدقوا).[٣٧٣]**

إن المسيح قد كشف لنا جميع الخدع التي كان قد تنبأ لنا بها الأنبياء، والتي صرخ بها الرسل في آذاننا كالبوق، عن قدوم المحتالين والأنبياء الكاذبين الذين يأتون من بعده. لم نستمع إلى الأنبياء ولا إلى الرب ولا إلى الرسل، ولكننا أغمضنا عيوننا وأغلقنا آذاننا، وألقينا قلوبنا في هاوية الخطأ، لكي لا نرى بأعيننا ولا نسمع بآذاننا ولا تعي قلوبنا أقوال الكتاب المقدس. لقد نسيناها وبحثنا عن رغباتنا الخاصة.

إن ما أسماه "دانيال" علامة الهدم، يسوع المسيح، رسول لابن الخطيئة رأيناه. لقد لمسنا بأيدينا المسيح، لقد لمسنا ذلك الذي كان مكتوبا أنه سيأتي في آخر الزمن. ظهر في أيامنا أحد رسله، وكل الذي كان سيفعله بنفسه عند حضوره فإن تلميذه قد أثبته لنا بالفعل وليس فقط بالقول. كان في كل مكان كان يسود فيه الخطر والخوف، حيث يوجد خطر الموت، كان العقلاء يضعون علامة معينة تعتبر إشارة للذين يحضرون ولا يعلمون، فعندما يشاهدون هذه العلامة يفهمون بذكائهم التحذير الذي تعلنه. إنه يخبرهم بما حدث في تلك المنطقة، ونحن الآن نضع هنا الأحداث التي وقعت في الوقت الساحق، حتى نحترس من هذا الوحش الذي يكسو المر بالعسل.

في نفس الوقت جاء رجل من منطقة **تكريت**،[٣٧٤] من قرية بيت رامة، عاش حتى سن المراهقة في معزل عن والديه، ورغب في حياة نسكية

---

(٣٧١) العهد الجديد: إنجيل متى ٧: ١٥.

(٣٧٢) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢٤.

(٣٧٣) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ٢٣/٢٦.

(٣٧٤) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، غربي دجلة، وهي أقرب إلى بغداد. (اللؤلؤ المنثور ص٥٠٥)

طاهرة، فخرج متجها إلى دير مار متى المقدس فى منطقة الموصل. ظل به نحو سنتين أو ثلاث، وهناك أغواه الماكر لكى يعود إلى سلوكه القديم (**كما يعود الكلب إلى قيئه هكذا الجاهل يعيد حماقته**).[٣٧٥] ولما كان لم يبدد بعد ما كان يحصل عليه من أهله فقد أضله يهوذا عن حب الفقراء والأغراب والبؤساء والمكروبين وأشياء كثيرة. فبدلا من الوفاء بوعوده الجميلة انتهى بأن ضيق عليه الخناق، وعندما عاد إلى منزله بدلا من أن يهتم بأمور الأبرشية والفقراء والمكروبين قلد أقرانه من الشباب فى نزواتم وحماقاتهم، وبدلا من أن يوزع ثروته على الفقراء بددها فى الترف وحياة اللهو والفجور. فى النهاية ارتد عن دينه وتحول إلى الوثنية، وهكذا لجأ إلى التبذير وبدد كل ثروته. ومنذ ذلك الوقت لم يدع شيئا من ثروته إلا أتى عليه عن طريق الأعمال السيئة، وأصبح محتقرا. ولكن فى النهاية عاد إلى نفسه وقال: "كم أنا تعس، ماذا فعلت بنفسى؟" وخرج موليا وجهه شطر صحراء سنجار، ليقيم بجوار أحد المشاهير هناك. وعندما قبله هذا بجواره انتقى له أقسى الأعمال وأشقها. لقد عوَّد جسمه على الصيام وعلى الصلاة لمدة خمس سنوات تقريبا، حتى انتاب جسده الهزال، وأصبح مثل الهندى، كما تغير لون وجهه من حرقة الشمس. ولكن الشيطان لم يتوقف عن غوايته، فبدأ يظهر له على هيئة ملائكة تعظم أعماله وتنبئه بالمستقبل. عندما سمع القديس مار زعورا ذلك قال له: "يا بنى احترس من حيل المحتال، كل تلك الأشياء تصدر من الشيطان".

فى تلك الفترة كان زعورا المبجل رئيسًا لرهبان تلك المنطقة، كان ينصحه دائما بألا يهتم بتلك الأشياء، وأن يحتقرها لأنها جميعًا صادرة عن الشرير. وعلى الرغم من ذلك لم يستمع إليه الراهب وأسلم نفسه للشيطان، بل لقد أضل معه أناسًا آخرين. كان يقول: "سيحدث كذا وكذا، وفلان سيفعل

(٣٧٥) العهد القديم: الأمثال ٢٦: ١١.

كيت. اليوم سيحضر رجال من منطقة كذا لمقابلتى". إن هـذا مـن صـنع الحكماء، وهو ليس بصعب على الشيطان، عندما يوعز إلى شخص أن يفعل شيئا فسوف يفعله حتما، لابد وأن ينفذ خطته عليه. إنـه لايقـول أشـياء لا تحدث، ولكن أشياء تحدث نتيجة لنصيحته. لقد سمى" مخادعًا" لأنه يكشـف الأسرار. إنه مكتوب أن المخادع يكشف الأسرار، أليس حقيقيًـا أن يكـون شخص سائرا فى الطريق وإذا برسول يقبل عليه مسـرعا ويقـول: "فـلان سيحضر اليوم هنا". إنه لا ينبئ بأشياء مستقبلية، ولكن أشياء تقع فى الحال.

هكذا خُدع هذا البائس وضُلل وانقاد إلى الظلم، وفقا للظواهر الوهميـة للشيطان. بدأت شعوب كثيرة تسير فى ركابه، لأنه قد وقع فى الخطأ وخرج عن صوابه. وعندما علم "مار زعورا" بذلك ورأى أنه يحتقر النصائح التـى كانت تعطى له، وأنه كان يغتاب المؤمنين قائلا "إنهم يغارون منـى" قـبض عليه، وضربه وطرده من البيت، ومنعه تحت وطأة اللعنة من الإقامـة فـى منطقة الموصل بأسرها، فخرج من تلك البلدة متجها إلى الجزيـرة، وحـط رحاله فى بلدة دارا.

كانت توجد فى منطقة دارا بلدة كبيرة وقوية، تضم عددًا كبيـرا مـن الأهالى، وكان سكانها أناسًا بسطاء وعمالا مهرة، يفوقون كل من حـولهم. كانوا أكثر إيمانا من كل الذين يعيشون معهم فى منطقتهم، وكانوا على علاقة وطيدة بالرهبان، وكانوا يعظمون أساقفتهم كما لو كانوا ملائكة. ولهذا كانوا بعيدين عن مفاتن الدنيا، وكانوا مهتمين فقط بعملهم، فقد صـوب الشـيطان مهمته إلى مثل هذا الشعب المؤمن. إذ عندما دخل تلك البلدة ورأوه مرتـديًا ثوبًا باليًا وجسمه مهزول ولونه يضرب إلى السواد استقبلوه كما لـو كـان ملاكا، وبدأ يقول لهم إنه مرسل من قبل الرب، ليعلن لهم أن بلـدتهم علـى حافة الانهيار والغوص فى باطن الأرض التى ستغطيها ولن تعود صـالحة للسكن. هؤلاء الأهالى نظرا لبساطتهم صدقوه، وببراءة قلوبهم استمعوا لكل ما قاله لهم. كانت تلك البلدة هى "حانى" فى طور عبدين.

كان ينصحهم دائما بقوله: "كفِّروا عن ذنوبكم، صلوا وصوموا قبل أن تفتح الأرض فمها وتبتلعكم، لأن مثقال سيئاتكم قد جاوز الحد، ولأن ظلمكم قد فاق ظلم سدوم وعمورة. الآن ليس أمامكم إلا انتظار حكم الرب دون رحمة". إن هذا الشعب البسيط عندما سمع ذلك وشرب العسل الممزوج بالسم لم يتبين مرارة السم القاتل من شدة حلاوة العسل، لم يستمعوا إلى الرب ولا إلى الأنبياء ولا إلى الرسل ولا إلى رهبانهم، وبسبب تلك الأقوال "صوموا وصلوا" لم يتبينوا حيلة الماكر. كل من كان يقال لهم: "اتقوا الله، هذا الرجل دجال". كانوا يجيبون: "ماذا يقول من شر؟ إنه لا يقول إلا صوموا وصلوا". لم يستمعوا إلى أحد، ولكنهم انساقوا إليه، وأوقعوا كل سكان المنطقة معهم فى الخطأ. لقد استسلموا للأحزان والدموع، وتركوا أعمالهم وهجروا حقولهم وزروعهم دون رعاية ودأبوا على الصلاة.

ومنذ ذلك الوقت بدأوا يقولون عن هذا الرجل إنه يأتى بكل أنواع المعجزات مثل الرب، إن رسله، أى الشياطين، انتشروا ليبشروا بدعوته فى كل بلاد الجزيرة، وقد أدى ذلك إلى شيوع الاضطراب فى كل بلاد المنطقة شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا. كان الجميع مضطربين فى أمره، عندما كانت تلتقى قافلتان إحداهما فى طريقها إليه والأخرى قادمة من عنده، كانت القادمة تسأل الذاهبة: "كيف وجدتم هذا الرجل؟" كانوا يقولون: "لا نعرف مثيلا فى العالم بأسره لما يفعله هذا الرجل". كانوا يكشفون عن أعضائهم ويقولون: "هذا كان مشلولا، وهذا كانت ذراعه ضعيفة، وهذا كان مريضا بالجذام، وهذا كان مكفوفا، والآن كما ترون نحن جميعا أصحاء دون عاهة أو مرض. انظروا هذه عيوننا مفتوحة وأيدينا قوية وأرجلنا سليمة، لا ترفضوا تصديقنا، وليكن إيمانكم ثابتا واذهبوا إلى جواره، كل ما ستطلبون ستنالون منه". وهكذا استمروا فى طريقه وذهبوا إلى جواره. إن الشياطين كانوا يظهرون أمام القوافل التى كانت فى طريقها إليه ويعلنون: "لقد رأيناه بأعيننا، إنه يطرد الشياطين، ويفتح أعين المكفوفين، ويجعل الصم يسمعون، ويجعل المشلولين

قادرين على السير". وكانوا يقولون لغيرهم: "لقد رأيناه أمامنا يحيى الموتى ويأتى بكل أنواع المعجزات".

تأكد أيها القارئ والسامع أن الذى كان يظهر للرجال المترددين على هذا المكان، والذين كانوا يذهبون إليه بأعداد كبيرة على حميرهم وبغالهم وجيادهم، والذين كانوا يظهرون أعضائهم التى شفيت بواسطته، لم يكونوا فى الحقيقة بشرا، بل كانوا فى الحقيقة شياطين، ولنعلم أيضا وفقا لذلك أننا لم نرَ قط رجلا قد استرد صحته بجواره، فقد كان الشياطين يظهرون لبعض الناس ويقولون لهم: "نحن ملائكة، نحن مرتبطون بصلاة تقديس مار ماروثا". فكانوا يدعونه "ماروثا"، وكانوا يقولون: "إذا تركنا سنموت". كما كانوا يظهرون لآخرين ويقولون: "إن الثعابين الطائرة ستحل على الأرض، ولن تترك شخصا حيًّا". إن الشياطين المتمردة لم تتوقف عن نشر خرافات مماثلة فى كل الجزيرة، ومنذ ذلك الوقت لم تحدث مقاطعات فى الشوارع التى كانت تقود إلى هناك.

افهم أيها العاقل أنه عندما يأتى "ابن الهلاك" لن يتصرف من تلقاء نفسه، ولكن رسله سيذهبون وينشرون خبره فى كل أنحاء الأرض، سيظهرون مجسدين أمام الناس، وسيصرخون: "فلان كان مشلولا وفلان أعمى وفلان أجذم، وهذا قد شفاهم".

كانوا هم يظهرون كما لو كانوا أمواتا ومشلولين ولديهم جذام ومكفوفين وعاجزين، وكانوا يأتون إليه. كان بمجرد أن يأمر مشلولا بأن يمشى كان يمشى، والذى كان مشلولا تماما كان يجعله يسير. إن البؤساء الذين قد تخلوا عن الكتب المقدسة، وكانوا يسيرون فى ركابه، كانوا لا يعلمون أن هؤلاء ما هم إلا شياطين، ولا يوجد أحد من الذين جاءوا لمقابلته قد شفى بسببه. على الأقل لم يصبهم أذى من الماكر، وعندما يتركه الشيطان كان يبدو أنه شفى.

كانوا يقولون: لأنه ليس لديك الإيمان الكافى فإنك لن تشفى، لقد رأينا تلك الأشياء ونحن نؤكدها. إن كل واحد قد رأيناه يحضر إلى جواره وكنا نسأله: هل شفيت؟ كان يقول: لقد شفيت. كان لا يقول شيئا أكثر من: "إذا كان لديك إيمان كافٍ ستشفى خلال أربعين يوما". وتحت هذا الأمل، وهو انتظار الشفاء خلال أربعين يوما، كان يصرفهم. ولهذا كانت كل البلاد فى حركة واضطراب، وكانت تلجأ إليه.

كانوا يقدمون له عملاتٍ هدايا، عبارة عن عملات من الذهب والفضة وأشياء أخرى ثمينة. كان يقدم الصدقة والزكاة ويقيم صلواتٍ كثيرةً، ثم يقف وينشر على الناس الرماد قائلا: "فليهدأ الرب". كان يجلس على كرسى مرتفع، كالأسقف الذى قد تسلم درجة الشمامسة. لقد صدر أمر من الكتب الكنسية البابوية أن الكاهن لا يبارك إلا من زميله الكاهن أو الأسقف، وأن لا يقبل المباركة إلا من هؤلاء. إن هذا الجرىء لم يكن يبارك الكهنة فقط، ولكنه كان يرسم علامة الصليب ويضع اليد على رأس الأساقفة. كان يصنع أيضا **زيت المباركة**[٣٧٦] حيث كان يجتمع حوله كثير من الكهنة ويعطيه لهم. كان يعمل الزيت بتلك الطريقة، كان يتلو عليه صلاة ثم يبصق فيه ثم يباركه ببصاقه.

كان الأسقف أو الراهب لا يستطيع الذهاب إلى هناك ولا أن يقول شيئا دون أن يتعرض للقتل من أهالى تلك البلدة، الذين كانوا يقولون: "إنكم تغارون منه". إن "مار قرياقوس" أسقف المنطقة عندما علم أن فريقه قد وقع أسيرًا فى يد الماكر، وأنهم لم يستمعوا إلى أقواله، بل أرادوا أن يقتلوه، ذهب إلى البطريرك المبجل "داود" وأراد أن يخبره بتلك الأشياء. ولكن بمجرد أن علم داود المبجل بتلك الأخبار أسرع باستدعائه، وألقى القبض عليه وحبسه

---

(٣٧٦) هو الزيت الطيب الذى كان السوريون ذَوُو الطبيعة الواحدة يدهنون به أجسام أطفالهم الذين تلقوا مبادئ الدين قبل تعميدهم.

فى سجن "حران"، إلا أن ذلك لم يضع حدًا لتضليله، وذلك لأن الكثيرين كانوا يحضرون إليه فى السجن، وكان هذا الظالم يصنع الزيت ويعطيه لهم بعد أن يكون قد باركه ببصاقه. إننا قد أغفلنا أحداثا كثيرة، وننتقل إلى أحداث أخرى، لأننا نريد أن نوضح سنوات الكارثة التى تعرضت لها المدينة.

عن أول سنة للكارثة التى وقعت
عام ١٠٨٤ يونانية (٧٧٢-٧٧٣م)
عن الكتاب والحكام والصرافين

عندما رجع الملك من أرض أورشليم ألقى القبض على "عباس" وجرده من كل ممتلكاته، وعين بدلا منه "موسى بن مصعب" الذى سبق أن ورد ذكره وتحدثنا عنه. وقد سلم إليه الحكام والكتاب والصيارفة الذين كانوا يعملون فى عهد عباس لكى يحاسبهم، ثم اتجه إلى بغداد.

إن هذا الطاغية عندما تسلم الأمر أحضر كل من كان حاكما أو كاتبا أو صرافا فى عهد عباس، وقبل أن يرحل من الموصل جمعهم وأرسلهم إلى **بلد**[٣٧٧] وحبسهم بها مكبلين بالقيود الحديدية الثقيلة، دون أن يستمع لدفاع أحد منهم أو يجرى معه تحقيقًا ليتعرف على حقيقة ما إذا كان مذنبا أو بريئا. إن هذا الرجل الذى جبل على الشر اتخذ لنفسه معاونين من كل بلدة، وكانوا رجالا خائنين وأنانيين، لم يضعوا مراقبة الرب وعقابه نصب أعينهم، رجالا قد اختير من بينهم "ابن الخطيئة"، رجالاً نمامين على شاكلته. كان يكرمهم فى كل المناسبات ويمجد أعمالهم، وذلك بالكلام وبالفعل، كما كان يعدهم بالعطايا السخية كما يعد الشيطان كل من يتبع خطواته ويقتفى أثره. ولكن الذى كان يدبر لهم فى الخفاء كان على نقيض ما وعدهم به، وهو سوء

(٣٧٧) بلد: بلدة تقع على نهر دجلة على مسافة ٣٢ كم جنوب الموصل، وقد خربيت فى المائة الرابعة عشرة. (اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٥)

العاقبة وبئس المصير. كان يخدعهم جميعا بأقواله ووعوده، فكــانوا يدلونــه على من كان فى بلده من كتاب أو حكام أو صيارفة، ويحيطونه علمًـا بمــا يمتلكون من ثروات وعقارات، حتى أصبحت لديه معلومات كافية عن حــق كل فرد، وصار على علم بثرواتهم. إن هؤلاء الخونة لم يحصلوا منه علــى مكافأة مجزية كما كان يعدهم، ولكن الرب وضعهم بين أيدى الكــافر الــذى كانوا يسيرون على طريقه، وقد أساء معاملتهم أكثر من أى شخص آخر.

ظل هذا الطاغية محتفظًا بأولئك الذين كانوا يعملون تحت نفوذ "عباس" رهن السجن لمدة خمسة أشهر أو ستة، حتى تحقق من كــل أعمــالهم عــن طريق هؤلاء الملحدين الذين كان الطاغية قد اختارهم من بلادهم. عندما لــم يصله أى بلاغ من أى بلدة بدأ يفرج عنهم واحدًا تلو الآخر، ووفقًا لما كان قد عرفه من الواشين فرض - دون رحمة - على كل منهم قدرا معينــا مــن الذهب، يتحتم عليه أن يدفعه له، فقد فرض على بعضهم ألفى دينار، وعلــى بعضهم أربعة آلاف، وعلى غيرهم عشرة آلاف، وعلى بعض آخر خمســة عشر ألفًا، وعلى آخرين عشرين ألفًا، ومنهم من فرض عليه ثلاثين ألفًــا أو أربعين ألفًا. كان يفرض عليهم ذلك ليس لأنهم مدينين بهذه المبــالغ، ولكــن لمجرد إشباع جشعه وإطفاء غيظه. كان أعوانه يكبلون أرجل كل مدين منهم وأيديهم، حتى يحصل على المبلغ الذى كان قد فرضه عليه، وعندما كان هذا المغلوب على أمره يوافق كان يرسله مكبلا بالحديد إلى بلده مــع فارسَــيْن ومسئولَيْن، ليتسلما منه ذلك المبلغ. ثم بعد ذلك يأمر المحاسبين بأن يســجلوا كل ما تبقى لديهم.

كان هذا الرجل الظالم كلما رأى تمجيد الملك له أمعن فى فعل الشــر، حتى ليضيف أمجادًا إلى أمجاده السابقة. وكان هذا الملك يستعذب الخــراب أكثر من السلام، وكان يزأر كالأسد فى وجه فريسته، وبدأ هو الآخــر فــى إيذاء الناس. بدأ يستغل المنطقة كما كان فرعون يفعل ببنى إسرائيل، فقد أمر

أولا المحاسبين أن يحصوا ثروات بلادهم، فإن هؤلاء المحاسبين قد تعلموا على يديه كيف يكونون جشعين، كما أنه هو نفسه لم يعط الأمر بالإحصاء بدافع العطف، وإنما بدافع الجشع، وليبنى لنفسه مجدًا وشهرة بإصدار تعديل جديد.

وقد نفذ هذا التعديل وفقا لما حدث بعد ذلك، أى أن كل من كان مفروضا عليه - وفقا للتعديل الجديد - أكثر من ذى قبل كان يدفع وفقًا للإحصاء الجديد، ومن كان المفروض عليه أقل كان يدفع وفقًا لما كان عليه من قبل. إن رجال الإحصاء كانوا يطلبون الهدايا والهبات صراحة ودون حياء أو خوف. وهكذا أحصوا البلدة، ولم يتركوا شيئا إلا الخرائب الكثيرة التى خلفتها لصوصيتهم وجشعهم.

عن صانعى الوشم والعلامات

لقد أرسل مع المراقبين أيضا صانعى الوشم والعلامات، وذلك سيرًا على نهج الأولين الذين كانوا يضعون علامة على أى شخص يقع فى قبضتهم ليعرفوا اسم بلدته أو مدينته، حتى يرَحّلوه بعد ذلك إليها. لقد دأبوا على ذلك ليس لمجرد إشباع جشعهم، ولم يقتصروا على وضع تلك العلامات، ولكنهم أضافوا من أنفسهم أشياء أخرى كثيرة.

إن صانع الوشم كان يأتى أولا بعظماء البلدة ويقول لهم: "فليجمع كل فرد أتباعه ويدخلهم البلدة ولا يخرج أحد منها، وإلا ستقع عليكم المسئولية". وعندما أدخل هؤلاء العظماء الأفراد إلى البلدة كان يوضع على كل واحد منهم الوشم. كان يسجل على اليد اليمنى اسم بلدته وعلى اليد اليسرى يكتب أنه من منطقة "الجزيرة". كان يعلق فى رقبة كل واحد منهم شارتين، واحدة عليها اسم البلدة والأخرى اسم المقاطعة. منذ البداية كان يفرض زوزا واحدًا لكل مجموعة من ثلاثة أفراد. كان يسجل أيضا اسم الشخص وشكله وهيئته،

ومن أى بلدة ومن أى مقاطعة هو آت. إن ذلك قد أغضب الأهالى جدًّا، لأنه قد أدى إلى احتجاز كثير من الأجانب، فمهما كان المكان الذى يعينه رجـــال الإحصاء فقد كانوا يسجلونه باسم المنطقة، حتى ولو كانوا لم يدخلوها مـــن قبل، وبمجرد أن ينتهى التسجيل نجد أنه يكون قد سبب ألما عظيما.

إن واضع العلامة عندما يرى أن عمله ليس كاملا يخرج إلى الطرقات ويحتجز كل الذاهبين والآتين. لقد جاب المنطقة أكثر من عشرين مرة، ولـــم يتوقف إلا بعد القبض على كل الأهالى ولم يفلت أحد من يده. وذلك كما قال النبى دانيال والرسول يوحنا: **(فقرأ هذا العنوان كثيرون مـــن اليهـــود لأن المكان الذى صلب فيه يسوع كان قريبا من المدينة، وكان مكتوبا بالعبرانية واليونانية واللاتينية).**(٣٧٨)

عن المعشِّرين (فارضى ضريبة العشر)

أرسل مندوبين آخرين لجباية العشر، وهؤلاء أيضا أدوا إلى انتشـــار الاضطراب فى المنطقة، فقد دخلوا البلاد كما كانوا يدخلون أيضا المتـــاجر ليروا ما بداخلها، فإذا وجدوا رجلا فقيرا يمتلك بضائع بمائـــة زوزا كـــانوا يسجلون عليه خمسمائة، ولو كان لديه بألف كانوا يســـجلون خمســـة آلاف. كانوا يدخلون منازل السوريين والعرب وأى مكان، حيث كان يوجد القمـــح والشعير ومحاصيل أخرى من نفس الصنف فكـــانوا يصـــادرونها. كـــانوا يسجلون كذا ألف على فلان دون أن يعرفوا نوع البضاعة، وكانوا يفرضون جريبًا على كل عشرة جريبات. كان هذا الاتفاق متفقًا عليه فى بغداد. ولـــو كان هذا الأمر قد استمر لكانت المنطقة كلها قد هلكت، لأن الكثيرين مـــنهم كانوا يسجلون عشرة آلاف جريبٍ لشخص لم يكن يملك غير عشـــرين، لأن هؤلاء المعتدين الظالمين الذين قد تقدم ذكرهم كانوا رؤساءهم فى الشر.

---

(٣٧٧) العهد الجديد: إنجيل يوحنا ١٩: ٢٠.

كان موسى يطلبهم دائما فيذهبون إليه لإخباره بما يدور في بلدة كل منهم. منذ ذلك الوقت كان الأهالى يغدقون على فارض الضرائب فى بلدتهم الهدايا والهبات، حتى يغلقوا فمه ويضمنوا سكوته.

ونتيجة لما اتبع فى تعيين المعشّر، وأيضا بسبب الواشين، هلك الفقراء تماما، واستطاعوا بعد جهد جهيد أن يرفعوا هذا الظلم. منذ ذلك الوقت خرجوا إلى الطرقات والممرات ونهبوا كل من يروح أو يغدو، كانوا يختبئون فى الكمائن ليلا على جوانب الطرقات كاللصوص، ويأخذون ممتلكات الأفراد الذين كانوا يهربون من العشر ومن الصافى، كانوا يقولون "نحن المعشّرون". مثل الشر المستطير بدأوا فى تخريب المدينة قاطعين الطرقات على المارة، ولذلك توجه الرجال إلى موسى يشكون إليه، فأمر بعدم إلقاء القبض على أى شخص خارج المكان العام، وعلى الفور توقفوا عن آثامهم.

عن الصافى

إن كل نبته مهما كانت تنمو معتمدة على جارتها تكون أقل صلاحية من الأولى، إن تلك النباتات كانت تنمو فى غصن سيئ ومر، وتتغذى من غصن شر. لهذا كان مكتوبا **(لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة).**[٣٧٩] وأيضا **(من يحب الفضة لا يشبع من الفضة من يحب الثروة لا يشبع من دخل، هذا أيضا باطل).**[٣٨٠] لو امتلك العالم بأسره سيتطلع أيضا إلى أن يمتلك ما لم تقع عليه عينه، وكما أن "جهنم" و"الشيطان" لا يشبعان أبدا، كذلك "ابن جهنم" و"ابن الشيطان" لا يشبعان أبدا من ثروات الرجال، لا من كرومهم ، ولا من مواشيهم، ولا من حقولهم. كانوا يعملون جميعا لحسابه، وكان هذا أيضا لا

(٣٧٨) العهد الجديد: رسالة بولس الرسول إلى أهل تيموثاوس ٦: ١٠.
(٣٧٩) العهد القديم: الجامعة ٥: ١٠.

يكفيه. كان يمارس جشعه على الطرقات والجبال والجداول التى تصب فى الأنهار، وحتى على الأموات. كان ينقل رفاتهم من أماكنها وينثرها مثل الزبل على وجه الأرض، وكذلك عظام الذين يرقدون فى المقابر منذ ألفى عام أو ثلاثة آلاف.

وبمجرد وصول الذين كانوا مرشحين للصافى قاموا بالاستيلاء على الأماكن العامة والطرقات، وأوقفوا كل المارة. لقد استولوا أيضا على الأنهار، ليمنعوا المرور ويمنعوا الصيادين من صيد الأسماك. لقد قدروا مساحات الأماكن العامة بمقياس من الحبل، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، أربعين ذراعا من جانب وأربعين ذراعا من الجانب الآخر. لقد استولوا على كثير من المنازل والمتاجر والساحات، وصادروا كل متجر وجدوا أنه غير مسجل فى التعديل القديم، وأجبروا الأهالى على إخلاء مساكنهم.

وبعد أن نجح صانع كل المصائب فى تعذيب هؤلاء وأولئك بدأت الكارثة تتوقف، لقد قاسوا سور المدينة، واستولوا على الأبراج وما يحيط بها، حتى يشبعوا طمعهم وجشعهم بكل طريقة. لقد أرسلوا مبشرًا ينادى: "إن أى شخص يريد استئجار متجر أو برج فليذهب لمقابلة أمير الصافى". لقد سببوا كثيرًا من الخسائر لهؤلاء الملاك بمجرد أن يسترد أى شخص شيئا من ثروته، بالإضافة إلى ذلك استولوا على أماكن البيع والشراء خارج البلدة.

ولما كان كثير من الأهالى يعيشون على صيد الأسماك من الأنهار، وكانوا يبيعونها لدفع الجزية القاسية المفروضة عليهم، فقد أرسل مبشرًا ليعلن "إن أى شخص سيقوم بالصيد فى النهر أو يضع فيه شباك صيد أو سلة دون أمر من الصافى سيعاقب بالموت". لذلك امتنع الأهالى عن الصيد، وإذا حدث أن قبض على شخص يقوم بصيد السمك، أو بقذف الشبكة فى الماء، كانوا ينهالون عليه بالصفعات حتى يلفظ أنفاسه، ويأخذون ما معه. كانوا يطلبون

ممن يريد الصيد نصف ما يصيده، لذلك امتنع الصيادون عن الصيد فى كل مكان. وقد جاء رسل ليطلبوا من الصيادين المال المفروض عليهم، فكما أن هؤلاء فرضوا مبلغا على القرى الموجودة على شاطئ النهر، فرضوا مثلـه بالنسبة لكل الأنهار. كان يعرف من أين وكم يجنى كل واحد، لأنهـم كـانوا يسيطرون على زوارق الممرات، وكان نصف الإنتاج يؤخذ.

منذ ذلك الوقت انتشر الهم والغم بالجميع من كل جانب، أى شـخص كان يفلت من العشر كان يقع فى الصافى، وأحيانا كان الاثنان يستوليان على شخص واحد فى وقت واحد، كما لو كانوا يبحثون عن الهاربين ولا يتركون أحدًا ينعم بالراحة.

عن الذين يبحثون عن الهاربين، وعن الأذى الذى اقترفوه

هذا **الجذر**[٣٨١] من الاضطهاد تفرع عنه غصن يحتوى على سم قاتل، وصار أكثر من السابقين. لقد عين على كل الجزيرة حاكمًا مكلفًا بإعادة كل واحد إلى بلده. عندما تلقى هذا الأمر عزم على نشر كل المصائب، فقد اختار رجالاً كفارًا، يمكن أن نطلق علـيهم - دون أن نفتـرى علـيهم - أسـماء حيوانات متوحشة وجوارح. فقد اختارهم وأرسلهم إلى المدن، كمـا فـرض أيضا قدرًا من الذهب يجب على كل فرد أن يحضره إليه من المدينة. عـين كثيرًا من الحكام ووزعهم على كل مدن الجزيرة. لقد عين لكل مدينة حاكما، كان من واجبه أن يجمع أهلها لمحاولة إعادة الذين هربوا، لذلك كان يجـوب كل المدن الأخرى حتى يجد الهاربين. ومن هذا المنطلق كان يمارس جميـع أنواع الابتزاز، ليس فقط على الهاربين، ولكن أيضا على أهالى المدينة.

---

(٣٨٠) المقصود هنا هو "موسى".

كانوا يهاجمون الرجال كالحيوانات المفترسة، يمزقونهم دون رحمة، ويبيعون كل ما كانوا يملكون أو يحتفظون به كمكافأة لهم. كانوا يقودونهم إلى داخل المنازل، ثم يغلقونها عليهم حتى يموتوا جوعا. الكثيرون كانوا يموتون من الجوع ومن البرد ومن الضربات التى كانوا يتلقونها، حتى يعطوهم الزوازى، لأن كل ما كان يمتلكه هؤلاء الرجال الفقراء كان لايكفى لإشباع طمع هذا الإنسان المتوحش الذى هبط عليهم، كما أنهم لم يكتفوا بهذا، بل هاجموا أيضا سكان البلدة بدعوى "أن أحدًا منا موجود بينكم".

إن ابتزازاتهم ونفقاتهم كانت تزيد عن المفروض على الجزية والضريبة، وإذا دخل أحد بلدة أو مزرعة كان يجد أكثر من أربعة حكام أو خمسة، وإذا حدث أن هرب أحد من بلدة إلى أخرى، مهماً كان الطريق الذى يسلكه، كان يقع فى أيدى من يبحثون عن المنفيين أو الذين كانوا معينين لتحصيل الضريبة أو اللصوص، لأنه منذ ذلك الوقت كان هؤلاء ينهبون فى وضح النهار وعلانية، وليس فقط تحت ستار الليل. وإذا حدث أن هرب من هؤلاء إلى أى مكان فإن أهل القرى أنفسهم كانوا ينزلون به أشد أنواع الأذى دون أن يخافوا الرب.

إن الذى يجب أن نقوله الآن مع النبى موسى: **(إنه قد اشتعلت نار بغضبى فتتقد إلى الهاوية السفلى وتأكل الأرض وغلتها وتحرق أسس الجبال. أجمع عليهم شرورا وأنفذ سهامى فيهم. إذ هم خاوون من جوع ومنهوكون من حمى وداء سام أرسل فيهم أنياب الوحوش مع حمة زواحف الأرض. من خارج السيف يثكل ومن داخل الخدور الرعبة، الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأشيب).**[٣٨٢]

---

(٣٨٢) العهد القديم: التثنية٣٢: ٢٢/ ٢٣/ ٢٤/ ٢٥.

هل تتصور أن النبى يتحدث عن الحيوانات المتوحشة وعن الثعـــابين التى تندرج تحت جنس الحيوانات أو الطيور؟ لا... ولكن هكذا يدعو الـــذين ليس لديهم من الإنسانية إلا صورتها. إن كل خبث الأفعى والحيوان المفترس والجوارح تكمن فى عاداتهم، لدرجة أن الفيلسوف يقول: "إننى أرى الرجـــل ولكننى لا أرى الإنسانية". إنه فى الواقع يرى صورة إنسان، ولكنه لايــرى سلوك الإنسان، بل سلوك حيوان مفترس وطائر كاسر، فإن النبـــى يضـــيف أيضا ويقول: "سم الأفاعى".

فلتعلم أيها الحكيم أن كل تلك الأشياء توجد بداخلهم، وخاصة غضـــب مشتعل لا تمكن تهدئته، لأنه يزداد اشتعالا كالنار. لم تكـــن لـــديهم رحمـــة، ولكنهم كانوا كالذئاب المفترسة المجروحة بالحربة. إن حكام المنطقة كـــانوا مثل الكلاب الصامتة التى لا تستطيع النباح، وأصبحوا شـــركاء للصـــوص. كانوا يساعدونهم فى كل ما يرتكبون من أضرار ومظالم، وإذا جاء مســـكين ليشكو إليهم أن خيراته قد نُهبت كان لا يجد من ينصفه، لأن الجشع قد ســـد آذانهم وأغلق أعينهم، وأصبحوا غير قادرين على الاستقامة، لأنهم كانوا قـــد حادوا عن طريق العدل. كانوا يتفننون فى الاستيلاء على كل ما يقـــع فـــى طريقهم، وسلب ونهب كل خيرات الفقراء.

سنتعرض أيضا للمصائب التى واجهها العرب، لأنه لم يفلت أحد مـــن الآفة التى حلت فى تلك الفترة بسبب كثرة سيئاتنا.

عن الحاكم المعين على صدقة مال العرب

إن كل عادات الثعلب المخرب مليئة بـــالظلم، وكـــذلك كـــل ميولـــه ومحاولاته مليئة بالغم والضيق، وأيضا بالجنون والاندفاع. فقد عين حاكمًـــا

لصدقة مال العرب، وقام هذا الحاكم بعمل تعديل كالذى كان مفروضا على السوريين وعلى مزارعهم. لقد سجل حقولهم وممتلكاتهم كلها، مهما كان نوع الممتلكات، وأيًّا كان مالكها، فإذا كان أحد يملك حديقة خضر أو كتان أو حمص كانت تسجل.

ولما كان لا وجود لمثل ذلك فى قوانينهم أو فى قوانين ملوكهم الأولين ظهر لهم هذا الشىء حقيرًا ولم يشغلوا بالهم به، وعندما ينتهى من تسجيل خيراتهم يتوقف ويحسب، ويحدد قيمة الضريبة. لقد قدر الفدان **الأكر**[٣٨٣] بأربع وعشرين زوزا، وقد ثبت العشر لجباية الماعز والغنم والبقر ومنتجات أخرى بالسعر الباهظ الذى يروق له، وبالمثل بالنسبة للقمح. لم يترك لهم شيئا دون إحصاء، ولا حتى النحل ولا الحمام ولا الدواجن، وإذا وجد فى أرض عربى حقلاً مزروعًا حمصًا كانوا يسجلونه كما لو كان حقل قمح أو شعير أو حديقة.

وبعد أن نظموا الضرائب كل واحد حسب خيراته، وصل أفراد من "عاقولا" و"البصرة"، كانوا دون رحمة أكثر ضررا من الأفاعى، لصوص وملحدون، لا يخشون أبدا حكم الرب ولا يحترمون السنين، ليس لديهم أى شفقة تجاه الأرامل، وينهبون أموال اليتامى. من هؤلاء الأشخاص كان جابى الضرائب، منذ ذلك الوقت لم نر سوى إلقاء القبض وحبس رجال محترمين ومسنين. كانوا ينهالون عليهم بالضربات كما يقومون بتعذيبهم، فكانوا يعلقون رجالا محترمين ذوى أوزان ثقيلة وأجسام بدينة فى قيود من أذرعهم حتى يصبحوا على وشك الموت.

كان يجب – حسب رأيهم – أن يأخذوا العشر، ولكن فى الحقيقة عندما باع العرب كل ما كانوا يملكون لم يتمكنوا حتى من جمع ما هو مفروض

---

(٣٨٣) **الأكر** مقياس للمساحة يساوى نحو ٤ آلاف متر مربع.

عليهم. كانوا يحاولون إقناعهم أن يأخذوا حسب القانون الذى فرضه "محمد" رئيسهم ومشرعهم والحكام الأولون، أى أن يؤخذ قمح من أى شخص يملك قمحا وتؤخذ حيوانات من الذى يملك حيوانات، ولكنهم كانوا لايستجيبون أبدًا، وكانوا يقولون لهم: "اذهبوا بيعوا خيراتكم كما تريدون وأعطونا ذهبًا".

فى الحقيقة تمت هنا معاقبة المجرم بواسطة المجرم، يوجد قول دنيوى يقول: "إن الأذية قد تنتصر بالأذية والترياق بالترياق الأكثر مرارة والأكثر ضررًا من الأفاعى".

إن هؤلاء العرب كانوا يظهرون مثل السوس فى الخشب وسط هؤلاء الفلاحين المساكين، ويأخذون أراضيهم ومنازلهم ومحاصيلهم ومواشيهم، لدرجة أنهم كانوا على وشك أخذهم هم أنفسهم وكذلك أبناءهم عبيدًا. كان هؤلاء الفلاحون يعملون لديهم كالعبيد فى كل ما كانوا يمتلكون، كانوا لايجدون أى نوع من الأمان بجوار الثعبان الملتوى، أى بجوار "موسى بن مصعب" الذى كرس كل حيله للقضاء عليهم. لم نكن نسمع من كل الجهات إلا ضرباتٍ وعذابًا وحشيًّا، وأحيانا كثيرة كان العرب يهلكون الفلاحين الذين يقيمون فى أراضيهم، لأنهم كانوا يفرضون عليهم ويجبرونهم على أن يشاركوهم فى الدفع، حتى دمروهم وأخذوا كل ما كانوا يملكون فهربوا من مساكنهم. ولما كانت بداية الكارثة وبداية الخراب، وكانت لا تزال هناك موارد كافية فإنهم لم يتمكنوا من إهلاكها، ولكن هؤلاء الحكام الظالمين لم يكتفوا بذلك فقط، بل كانوا يقدرون الفدان بأربعة وعشرين زوزا، وكل ثلاثين بقرة مقابل عجل للاختيار، وكل عجل باثنى عشر زوزا، وأربعين بقرة مقابل جاموسة، وكل جاموسة بأربعة وعشرين زوزا، وكانت فى السوق لاتساوى أربعة، وكانوا يفرضون على كل خلية نحل زوزا.

إن مكرهم لم يتوقف عند هذا الحد، فقد فرضوا ضريبة على الدخول الأخرى واحدًا واحدًا، كل واحد حسب رغبته. ولما كانوا يعاملون السكان

المسنين والمحترمين دون رحمة ودون احترام فقد ذهب بعضهم إلى موسى، وبكوا أمامه وشكوا إليه، فاستجاب لمطلبهم وترك لهم اثنى عشر ألف دينار، ولكن كما كان مكتوبا **(الأعوج لا يمكن أن يقوم والنقص لا يمكن أن يجبر)**.[٣٨٤] وإذا حدث بالصدفة أن أصبح متفهما للوضع فيكون هذا عن طريق السهو، ويكون قد نسى نفسه وهو يعمل الخير، ولكنه فجأة يرجع إلى رشده، ويطلب منهم مرة أخرى الاثنى عشر ألف دينار. إنه من الصعب فعلا أن يصبح المر حلوًا وأن تنتج الأشواك تمرًا.

وبسبب كل ذلك الغضب الكريه الذى أصاب الرجال فى جباية الضريبة، والذى استمر طويلا، لا أحد يا إخوانى يلوم الكاتب لو مر بهدوء ذاكرًا معظم الأضرار التى حلت بنا، لأنه لو أصبح كل الرجال مؤرخين، وإذا تحول كل الخشب إلى أقلام، وكل النبيذ إلى حبر، ستبقى كل السيئات التى أحاطت بالأرض، ولاتكفى لكتابة وسرد ما حدث بالمنطقة.

ننتقل الآن إلى أحداث أخرى، ونترك بعض الذكريات إلى الذين سيأتون من بعدنا إلى هذا العالم.

عن العلامة القديمة التى ظهرت فى منطقة الشمال فى ذلك العام

كان الرب قد تحدث قديما عن طريق أنبيائه إلى أقوامه المتمردين، وفى النهاية تحدث عن طريق ابنه الحبيب إلى كل أبناء آدم **(الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة. كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه الذى جعله وارثا لكل شىء الذى به أيضا عمل العالمين)**[٣٨٥] والآن إلينا نحن أبناء الغضب الذين لديهم أقوال الأنبياء، والعهود التى أداها

---

(٣٨٤) العهد القديم: الجامعة ١: ١٥.

(٣٨٥) العهد الجديد : رسالة إلى العبرانيين ١: ١/ ٢.

"المخلص" لكنيسته، وتنبيهات الرسل، قد أدت إلى تحجر قلوبنا، وأغلقت عيوننا وصمت آذاننا، لكى لا نرى بأعيننا ولا نسمع بآذاننا ولا نفهم بقلوبنا الأقوال المطمئنة لمخلصنا حتى تُحوّلنا عن مكرنا وأن نعيش، فقد أظهر لنا فى السماء علامات توضح تهديداته ضد الشعب الجاحد الذى كان يراه، لقد أبرز إلى الرجال الأشرار ضخامة مكرنا وثورة عدله التى تهددنا.

إن العلامة التى قد ظهرت السنة الماضية فى المنطقة الشمالية ظهرت مرة أخرى هذا العام فى شهر حزيران (يونيو) يوم جمعة، لأنه خلال السنوات الثلاث المتتالية التى ظهرت فيها كان يوم جمعة. كانت تمتد من الشرق إلى الغرب، وعندما كان يُنظر إليها كانت تأخذ أشكالا متعددة. عندما كان الشعاع الأحمر يختفى كان الأخضر يظهر، وعندما يختفى الأخضر كان الأصفر يظهر، ولما كان هذا يختفى كان الأسود يظهر. إن هذا لايعنى أن الأرض لن تتحمل إلا كارثة واحدة، ولكنها ستتوالى الواحدة تلو الأخرى كما حدث لنا فعلا. إن شكل هذه العلامة كان كما وضحناه سابقا.

عن جباية ضريبة الرءوس فى السنة الأولى للكارثة

(هلم يا شعبى ادخل مخادعك وأغلق أبوابك خلفك، اختبئ نحو لحيظة حتى يعبر الغضب).[٣٨٦] ونفس النبى قال أيضا: **(ولكن هكذا يقول السيد رب الجنود: لا تخف من أشور يا شعبى الساكن فى صهيون، يضربك بالقضيب ويرفع عصاه عليك على أسلوب مصر. لأنه بعد قليل جدًا يتم السخط وغضبى فى إبادتهم).**[٣٨٧] وقد صاح نبى آخر، عندما رأى بعين النبوة هذا الزمن السيئ والخراب القاسى الذى حدث بالشعب والأساقفة وبالمعبد المقدس، واختفاء الفرحة من أعين الرجال، وقال: **(تنطقوا ونوحوا أيها**

---

(٣٨٦) العهد القديم: إشعياء ٢٦: ٢٠.

(٣٨٧) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٢٤/٢٥.

الكهنة، ولولوا يا خدام المذبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خدام إلهى لأنه قد امتنع عن بيت إلهكم التقدمة والسكيب. قدسوا صوما نادوا باعتكاف اجمعوا الشيوخ جميع سكان الأرض إلى بيت الرب إلهكم واصرخوا إلى الرب. آه على اليوم لأن يوم الرب قريب، يأتى كخراب من القادر على كل شىء).[٣٨٨] ها هو أمام أعيننا، لقد اختفى الطعام من بيت الرب، وكذلك الفرحة والحبور. لقد اختفت الفرحة والسعادة من بين الناس، وأبطل الاحتفال بأيام الآحاد والأعياد وتوقفت التضحية، ولم تحدث مطلقًا إراقة الخمر للمذبح المقدس. أعيادنا تحولت إلى معازٍ، وفرحتنا إلى أحزان، وحبورنا إلى كرب. فى اليوم المحدد سينزع الرب هالة بنات الكنيسة المقدسة، وعن السيدات الفاضلات ثيابهن وحليهن، والتيجان والأكاليل من فوق الشعور، والحلية من فوق الجبين، والحليات من على الوجوه، والأقراط من الآذان، والعقود والأساور من كل الأنواع، والحراير وسراويلهن والأحجبة، وملابسهن الرقيقة ذات اللون الأرجوانى، وثيابهن وأقمشتهن البنفسجية والقرمزية، وكل حليات زينتهن. سيكون لهن خردل بدلا من العطر العذب، وبدلا من الزنار سلاسل، وبدلا من الشعر الجميل الصلع، وبدلا من أقمشة بنفسجية المسخ والخرق. فى هذا اليوم يقول إشعياء: (يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعرِّى الرب عورتهن. ينزع السيد فى ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة. والحلق والأساور والبراقع. والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والأحراز. والخواتم وخزائم الأنف. والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس. والمرائى والقمصان والعمائم والأزر. فيكون عوضَ الطيب عفونةٌ وعوضَ المنطقة حبلٌ وعوضَ الجدائل قرعةٌ وعوضَ الديباج زنارُ مسحٍ وعوضَ الجمال كىٌّ).[٣٨٩] سيتجولن مع بناتهن من بلدة إلى بلدة، ومن منزل إلى منزل، جائعات مسلوبات واهنات.

---

(٣٨٨) العهد القديم: يوئيل ١: ١٣/١٤/١٥.

(٣٨٩) العهد القديم: إشعياء ٣: ١٧/١٨/١٩/٢٠/٢١/٢٢/٢٣/٢٤.

تعالوا إذن إلى الزمان المحدد ونوضح ما حدث به. أولاً جـاء حـاكم لجباية الضريبة، فقد أعلن السلام وقال: "ابقوا فى سلام ولا تخشوا شيئا، إننى جئت لجباية الإحصاء الجديد، ولن أحاسب منطقة بدلا من أخرى ولا بلـدة بدلا من أخرى ولارجلاً بدلا من آخر". لقد تصوروا أن الحقيقة كانت علـى لسانه، فصدقوه وقالوا: (**أنعم من الزبدة فمه وقلبه قتال، ألين مـن الزيـت كلماته وهى سيوف مسلولة**).[٣٩٠]

أخذ الضريبة وجباها من كل فرد في بلدته، فأرسـل إلـيهم حكامـا كثيرين، وعين على كل بلدة حاكمين أو ثلاثا، والذين عينوا بدورهم رئيسًـا لكل عشرة رجال، وأيضا رئيسين لكل مقاطعة، كل واحد معـه كثيـر مـن المساعدين. هكذا خرجوا كالذئاب الجائعة المنقضة على قطيع من الغـنم، إن الطرقات كانت مليئة بناقلى البريد، يروحون ويجيئون فى سـرعة خاطفـة كالبرق، لدرجة أنه لو كان فى البلدة عشرة من المبتزين أو عشرون لكـان لزامًا على الأهالى أن يعطوهم ما يطلبون، ولكانوا يقومون بفض الحقائـب حتى يحصلوا على ما يريدون، ولما كان هناك من يحاسبهم على ما يفعلون. كانوا ينهبون ويسلبون أموال الأرامل واليتامى، أخذوا كل الماشـية عنـوة وباعوها لحسابهم، حتى الفلاحون أنفسهم أساءوا معاملة الفقراء الذين يقيمون بينهم.

ولقد دفعنا **الثلث الأول**[٣٩١] ولم يكن قد سدد بالكامل حتى وصل حاكم آخر صرف الأول وطلب الثلث الثانى، ولكن الذى طلب وأدى إلى دفع الثلث الأول طلب بجرأة ودون حياء لكى يعوض نفقاته.

---

(٣٩٠) العهد القديم: المزامير ٥٥: ٢١.

(٣٩١) كانت جباية الضريبة مقسمة إلى ثلاثة أقسام.

هكذا جبا ورحل (**وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهه، إلى حيث تكون الروح لتسيرَ تسيرُ، لم تدُر عند سيرها**)[٣٩٢] وكنا نظن أنه سوف يعود. لو قال أحد إنه عند جباية الثلث الأول كان يجبى ثلثًا آخرعن طريق المبتزين، لم يكن هذا افتراء، وذلك دون التحدث عن لصوصية الحاكم ولا عن رؤساء المقاطعة والولاة.

عن الحاكم الثانى

كان رجلاً محتالاً مخادعًا شرهًا جشعًا صديقًا للصوص، لدرجة أنه كان يستولى دون حياء على خيرات البشر، وعندما كان يأتى إليه أحد طالبًا تطبيق العدل كان يتدخل ويأخذ كل ما لديه ويعطيه للصوص. كانت كلماته حلوة المذاق كالعسل، ولكن نهايتها كانت أشد مرارة من الأفسنتين والمر. لقد اختار لنفسه حاشية من رجال قد أغمضوا أعينهم عن الخوف من الرب، وأطلقهم كالذئاب فى البلاد.

لقد طلب من الولاة أولا أن يحصوا نصيب الأمير، وذلك عند قيامهم بالإحصاء. عندما كان رؤساء المقاطعة والحكام يدخلون قرية كانوا يلقون القبض على حاكم القرية، ويضطرونه إلى إحضار كل ما قام بجبايته. كانوا يثقبون كيس النقود ويأخذون منه كل ما يريدون قائلين: "هذا نصيب الأمير". كانوا يضربون دون رحمة الرجال المحترمين والمسنين الذين غزا الشيب مفرقهم. منذ ذلك الوقت لم نكن نسمع إلا النواح فى كل اتجاه.

كان أيضا يساعد كل الحكام المكلفين بالبحث عن الهاربين، لأنه كان شريكا لهم فى اللصوصية. فأرسلهم إلى أقصى الحدود وكلفهم بجباية ثلاثة

---

(٣٩٢) العهد القديم: حزقيال ١: ١٢.

أضعاف قيمة الضريبة أو أربعة أضعافها. كان يتفنن فى أن يكبل شـعب الله بكل أنواع العذاب المرير. وكان عظماء المدينة أنفسهم يساعدونه، لأنه كان يعدهم بوعود كبيرة، وكان يجبى الضريبة لنفسه وليس للخزانة الملكية.

لقد تضاعفت الكوارث على المنطقة، النفى والمبتزون الـذين كـانوا يطلبون ما كان مفروضا على من توفى منذ عشرين عاما، ويقومون بتحصيل نفس الضريبة أكثر من مرة دون رحمة، بالإضافة إلى سيئات أخرى مثـل المغالاة فى الضرائب وغيرها، والتى لايمكن حصرها بسبب كثرتها. كـان مجبولا على الشر، فلم نكن بعد قد جمعنا الثلث الأول والثلث الثانى حتى قام هذا الظالم بعمل إحصاء لكل سكان البلدة من العرب والسوريين. لم يعلم بذلك أحد إلا بعض المنحرفين مثله، وكانوا يشاركونه فى ابتزازاته. لقد سجل فى هذا الكتاب: "إن إرادتنا الطيعة تجعلنا نكتفى بمائة وعشرين ألف دينار. إننـا لانقبل امتيازا ولاغيابا ولا التماسا". لقد سجل أيضا فى نفس هذا الكتاب اسم وثروة كل رئيس بلدة، وأرسل الكتاب إلى مصدر كل السيئات، إلـى "ابـن مصعب". أنا أتصور أن كل هذه الأضرار تصدر من هذا المصدر، لأن كل الحكام الذين عينهم كانوا يعملون نفس الشىء.

إن الحاكم قد تلقى أمـرًا بـأن يـذهب هـو وعظمـاء البلـدة إلـى "موسى"،[٣٩٣] فجمع الأكابر وأوفدهم إليه، وفى نفس الوقت بذل لهم العهـود ووعدهم بأشياء جميلة، وذلك ليمتدحوه أمام موسى، وأعطاهم نفقات السـفر، ولكن تلك الخطة لم تخف على أبناء البلدة. ومنذ ذلـك الوقـت دب بيـنهم التنافس والعداء. وعلى امتداد الطريق كانوا يتشاجرون فيما بينهم، لأن سكان المدينة كانوا يحبونه وسكان القرى كانوا يريدون غيره. وفى النهاية رجحت كفة أهل القرى على كفة المدنيين، وخاصة عندما علم أبناء المدينـة بالشـر الذى كان يهددهم، عن طريق المعاهدة التى كان قد أبرمها وأرسلها إلى ابن

(٣٩٣) المقصود هنا هو " موسى بن مصعب".

مصعب. لقد توقفوا عن تأييده وجاءوا بآخر، عقد معهم اتفاقًا بسبعين ألـــف دينار ورحل.

عن الحاكم الثالث

كان هذا خاتمة ثالوث الغضب، فقد كان أكثر ضررًا من زملائه، لأنـــه نما على فرع سيئ؛ حيث غرس الشر مصحوبا بالقوة والمهارة. فإذا لم يضف شيئا إلى الأضرار التى اقترفها سابقوه فلن يجتزئ منها شـــيئا، فكـــان مثـــل زملائه لصًّا وشريكا للصوص، جعل المساكين يقاسون كـــل أنـــواع الظلـــم والكوارث، ونهب خيراتهم وباع كل ما كانوا يمتلكون. لقد بسط الظلم علـــى أناس كثيرين، لأنهم كانوا يتخلصون من الفقير ويجعلونه يعانى مظالم كثيرة، ولما كانوا يعرفون أنه لايستطيع الوفاء بما يطلبون لأنه لا يمتلك شـــيئا كـــان هؤلاء الحكام الملحدون يقولون له: "اخرج إلى الساحة العامة، وابحـــث عـــن شخص نعرف أنه يمتلك شيئا، وقل لقد وضعت ثروتى رهينة عند هذا الرجل، إنه مدين لى". فهذا البائس المضطهد من كل ناحية، من اليمين ومن الشـــمال ومن الأمام ومن الخلف ومن أعلى ومن أسفل، كان مجبرا على أن يشهد على شخص ظلمًا. خوفا من الرب كان يريد أن يرفض، ولكنه لم يتمكن لأنه كـــان مدفوعا بتهديدات هؤلاء الحكام الملحدين. لقد اتخذ الربَّ شاهدًا على أنه أُجبر على العمل، وأنه ليس بإرادته الخاصة أن يشهد زورًا ضد هؤلاء الـــذين لـــم يكن قد رآهم أو عرفهم من قبل. وماذا يقال فى هذا الموضوع إذا كانت الغلبة للشر على الخير وللكذب على قول الحق؟ فى الحقيقة كـــان هـــؤلاء الحكـــام يحبون هؤلاء الذين يجارونهم فى قول الكذب. إن ألسنة السوء كانت أعـــذب لديهم من قول الحق، وكذلك الذين ينطقون بالظلم والذين كانت أيديهم مغموسة فى الأعمال الدنيئة، لو كان هناك رجل لا يسايرهم ولا يمارس الكفر معهـــم لكانوا يسلكون معه كل أنواع السبل المكروهة.

هذا الملحد تنقل فى كل البلاد مدعيًا ظلمًا أنه من سلالة "موسى"، فجمع كل الماعز والأغنام والبقر وكل خيرات الأهالى المساكين، فكان يبيع عنزتين حبليين بزوزا واحد، وشاتين أو ثلاثًا بزوزا، وخمسة تيوس بزوزا، وحمار بزوزيين، وثورًا بثلاثة زوازٍ، وبقرة سمينة ممتلئة بثلاثة زوازٍ أو أربعة.

ضعف القمح وذبل فى الحقول بسبب الجفاف الذى سنتحدث عنه، كان الرجال ينصبون الكمائن بالتبادل. إن الألسنة كلها كانت تنطق بالأخطاء، والكل يسير فى طريق الكذب.

إن إرميا كان ينظر إلى تلك الأشياء بعين النبوة عندما قال: **(احترزوا كل واحد من صاحبه وعلى كل أخ لاتتكلوا لأن كل أخ يعقب عقبا وكل صاحب يسعى فى الوشاية. ويختِل الإنسان صاحبه ولا يتكلمون بالحق، علّموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا فى الافتراء).**(٣٩٤)

ولأنهم كانوا قد اجتمعوا وجلسوا من أجل الغش وثابروا فإنهم لم يعرفوا الرب قط، بسبب كفرهم كان الناس جميعا كاذبين والكل محوط بالظلم، الكل يجرى فى طريق الشر، لم يوجد مطلقًا من يفعل الخير. لقد ضلوا جميعا الطريق. كانوا منطلقين فى الشر لأن رؤساءهم كانوا ينتقلون من مكر إلى مكر، ويسارعون من ظلم إلى ظلم، فكانوا ينهبون ويسلبون الفقراء، الذين كانوا فيما بينهم كالحملان وسط الذئاب، فجعلوهم يقاسون كل أنواع العذاب، وباعوا كل ممتلكاتهم التى لم تكد تكفى لدفع الضريبة، فضلا عن التحدث عن الكوارث الأخرى التى كانوا يقاسونها من جانب الذين كانوا يبحثون عن المنفيين، والذين اغتصبوا الماشية مندوبين عن العشر، وعن الصافى، وعن التعديل. أى فرد كان مفروضًا عليه أكثر فى التعديل الجديد كان عليه أن يدفع وفقا للجديد، والذى كان مفروضا عليه أقل فعليه أن يدفع وفقا للقديم. كان الأسى والمرارة يحوطانهم من كل الجوانب.

---

(٣٩٤) العهد القديم: إرميا ٩: ٤/٥.

عن ضرائب هذا العام

سننتقل من سيئات إلى سيئات، إن الذى ينجو من إحداهن سيقع فى أخرى أقسى من الأولى، والمبتزون لتأكدهم من أنه لن يقوم باستجوابهم أحد فرقوا البشر وفرضوا عليهم دون شفقة أو رحمة. كان رؤساء البلد أنفسهم زملاء للصوص بل أسوأ منهم. لقد جبوا سبعين ألف دينار ولكنهم دون رحمة طالبوا بدفعها ثلاث مرات. كانوا يقولون "إن قرية كذا دمرت ولا يمكن أن نفرض عليها"، ويطلبون مرة أخرى ما كانوا قد جمعوه من تلك البلدة، وكانوا ينهبونه بالاتفاق مع الرؤساء.

عندما خرجوا لجباية الضريبة بعد أن حددوا لكل شخص ما عليه، تعرض كل الفقراء للنهب. فأخذوا خيرات أغنياء البلدة حتى لم يبق لأحدهم شىء. وإذا حدث أن أحدا كان يمتلك ماشية وكان من بلدة أخرى كانوا لايتركون له شيئا إلا باعوه.

انقضوا أيضا على المارة فكانوا يلقون القبض على كل شخص يغدو أو يروح، فيأخذون ماشيته وخيراته ويبيعونها. حدث أن خرج سبعة لصوص معًا وكونوا جماعة مثل جماعة الأمير. كانوا يستولون على خيرات كل من يقابلونه قائلين:"نريد مساهمتك". منذ ذلك الوقت لم يعد يسمع من كل جانب إلا صوت العويل والصراخ، وإذا هرب أحد من تلك البلدة كانوا ينهبونه فى الطريق، وإذا هرب دون أن ينهب فى الطريق كانت البلدة نفسها، التى كان متجها إليها لتكون ملجأ له، كانت تعد له اللصوص والسفاحين وقطاع الطرق لاستقباله. وإذا اتجه أحد إلى الصحراء خرج اللصوص لاعتراض طريقه كالأسود، وإذا تجول فى البلدة المأهولة يجد آخرين كالذئاب، وإذا دخل أحد بلدة فإن الفلاحين ينهشونه كالأفاعى، فإذا لجأ إلى النبلاء طالبًا النجدة فإنهم يسدون الطريق أمامه بالعراقيل كأنها العقارب لكى ينهبوه. إن محصل الضرائب كان يعامله بثلاثة أضعاف القسوة التى كان يعامله بها الحاكم

أو اللص، حيث يطلب ثلاث مرات أكثر مما يستحق. كان يقال للحاكم: "هذا الرجل يجب عليه كذا". وكان يتعرض للضرب إلى حد الموت، قائلين: "ادفع". ولم يكن هناك من يحاسب الوالى على لصوصيته. إن كثيرا من فقراء العرب والسوريين كانوا يخرجون إلى ضواحى المدينة يتجولون فى الشوارع وحول الطواحين، حيث يقومون بنهب الأهالى. كانوا يقولون لهم: "تعالوا فإن الأمير يطلبكم، تعالوا ادفعوا نصيبكم". كانوا ينهبون ويسلبون كل الناس تماما، فكان كل واحد يهرب من ضواحى المدينة كالهارب من خندق ملىء بالأفاعى.

إن الفقراء كانوا يعانون أيضا من كارثة أخرى. عندما جاء راسمو الوشم كانوا قد هربوا بحثًا عن ملجأ فى كنف الولاة ورؤساء المقاطعات، ولما كانوا يخشون المبتزين والذين يبحثون عن المنفيين طلبوا منهم أن يكونوا تحت حمايتهم. لذلك عندما تم الصلح فرض الولاة عليهم ضرائب، ونشروا المحصلين ومن يبحثون عن المنفيين فى كل مكان. إن أى فرد لم يكن قد دخل المدينة من قبل كان عليه أن يدفع غرامة قدرها ثلاثون دينارًا أو أربعون.

وكانت الغرامة فى الرها أكثر من أى مدينة أخرى، كان النبلاء يعانون من هذا التقسيم، فقد عيَّن عليهم رجلاً فظًا يدعى "رازين". عندما قبض على رجل فقير، وكان يعلم أنه لايملك شيئا، فرض عليه حارسين وقال له: "اخرج إلى الساحة العامة وابحث عن أحد، وقل له: أجب بدلا منى. ثم اهرب". فاستجاب لذلك، وذهب إلى الساحة واقترب من شخص، وعندئذ قبض الحراس على هذا الرجل بينما تركوا الأول يهرب، وقبل أن ينطق هذا المسكين بكلمة سحبوه وقادوه إلى الأمير. "لقد جاوبت عن هذا فادفع ما هو عليه". كان الآخر يقسم: "لم أجب نيابة عنه، إنى لا أعرفه". ولكنهم وضعوا الأغلال فى رجليه، لدرجة أن ساقيه تكسرتا، ولم يتركوه إلا عندما أحضر المبلغ المحدد.

(ويكون فى يوم ذبيحة الرب أنى أعاقب الرؤساء وبنى الملك وجميع اللابسين لباسا غريبا. وفى ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون من فوق العتبة الذين يملأون بيت سيدهم ظلما وغشا).[٣٩٥] هذا هو ما أرشدنا إليه النبى صفنيا، الذى تحدث عن يوم ذبيحة الرب. ما يوم ذبيحة الرب غير يوم الآلام لمخلصنا، فترة كانت فيها كل سنوات الكوارث تكبلنا بالمصائب، لدرجة أن الأعياد قد تحولت إلى مآتم. أىُّ أمراء وأىُّ أبناء ملوك وأىُّ لصوص وأىُّ نهابين يملأون منازلهم بسلب الفقراء ونهبهم ونهب اليتامى والأرامل أكثر من أهل الرها؟ الآن الأشياء المكتوبة كانت مكتملة. إن حكمتهم وذكاءهم قد ضاعت، لقد طلبوا بحكمتهم شيئًا واحدًا ولكنهم لم يجدوه **(ويعرف الضالو الأرواح فهما ويتعلم المتمردون تعليما).**[٣٩٦] **(لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء وأرفض فهم الفهماء)،**[٣٩٧] **(فتكون ثروتهم غنيمة وبيوتهم خرابًا ويبنون بيوتا ولا يسكنونها ويغرسون كروما ولا يشربون خمرها. ذلك اليوم يوم سخط يوم ضيق وشدة يوم خراب ودمار يوم ظلام وقتام يوم سحاب وضباب. وأضايق الناس فيمشون كالعمى لأنهم أخطأوا إلى الرب فيُسفح دمهم كالتراب ولحمهم كالجِلّة)،**[٣٩٨] **(هذا لهم عوض تكبرهم لأنهم عيروا وتعظموا على شعب رب الجنود).**[٣٩٩]

كل هذا حدث ولم ينقص منه شىء. إن العالم بأكمله لن يكفى لكتابة المصائب العديدة التى تكبدها الفقراء، ولم تكن لابتزازاتهم بداية ولا نهاية، لم يكتفوا أبدا بالسلائب التى نهبوها. وفقا لأمره تجمع كل الشعب وحبس فى كنيسة فى المدينة.

---

(٣٩٥) العهد القديم: صفنيا ١: ٨/٩.
(٣٩٦) العهد القديم: إشعياء ٢٩: ٢٤.
(٣٩٧) العهد الجديد: الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١: ١٩.
(٣٩٨) العهد القديم: صفنيا ١: ١٣/١٥/١٧.
(٣٩٩) العهد القديم: صفنيا٢: ١٠.

عن الاعتقال فى الكنيسة الذى حدث ذلك العام

(قد أخطأت أورشليم خطية من أجل ذلك صارت رجسة. كل مكرميها يحتقرونها لأنهم رأوا عورتها وهى أيضا تتنهد وترجع إلى الوراء. بسط العدو يده على كل مشتهياتها فإنها رأت الأمم دخلوا مَقدِسها الذين أمرت أن لا يدخلوا فى جماعتك)،[٤٠٠] (كره السيد مذبحه، رذل مَقدِسه، حصر فى يد العدو أسوار قصورها، أطلقوا الصوت فى بيت الرب كما فى يوم الموسم. ونزع كما من جنة مظلته، أهلك مجتمعه، أنسى الرب فى صهيون الموسم والسبت ورذل بسخط غضبه الملِك والكاهِن).[٤٠١] فليأت الآن النبى إرميا ليرى بعينيه كل ما كان قد تنبأ به، لقد تحققت فعلا نبوأته.

عندما أمر الحاكم[٤٠٢] الظالم أن يتجمعوا أصدر أمرا يقضى بأن أى شخص يخفى رجلاً سوف يعاقب بالموت، فخرج أعوانه ليجمعوا كل شعب المدينة. لقد قاموا بتنقيب دقيق فى المنازل، وأجبروا الجميع غنيًّا كان أو فقيرًا أن يدخل الكنيسة، وإذا كان رب المنزل غائبا كانوا يأخذون عائلته، وإذا وجدوا رجلا مختبئا كانوا ينهالون على رب المنزل الذى كان مختبئا به ضربًا حتى الموت، ويبيعون كل ما يملك. هكذا قبضوا عليهم جميعا صغيرًا وكبيرًا، عربًا وسوريين. صعد هؤلاء الكفار وجلسوا وسط المذبح ونهبوا أى شخص نما إلى سمعهم أن لديه فلسًا(أوبول).[٤٠٣] كانوا يأخذون هؤلاء البؤساء الذين أُثقلوا بالديون وفقدوا ثروتهم وكذلك ثروات زوجاتهم ليدفعوا ما لم يكن يجب عليهم دفعه، لأنه كان يقال لهم: "يجب أن تدفع لتلك البلدة". إن الظلم قد ارتفع شأنه لأن الحقيقة قد اختفت. إن الكذب قد ظهر جليًّا فى وضح

---

(٤٠٠) العهد القديم: مراثى إرميا ١: ٨/١٠.
(٤٠١) العهد القديم: مراثى إرميا ٢: ٧/٦.
(٤٠٢) المقصود هنا هو "رازين".
(٤٠٢) الأوبول وحدة وزن ونقد فى اليونان القديمة.

النهار لفقدان العدالة. لقد جعل الأهالى يعانون أشد أنواع الآلام، فقد باع كل ما يملكون وقبض هو الثمن. لقد لوثوا الكنيسة من الداخل لأن الجميع رجالاً ونساءً ألقوا بنفاياتهم بها، لأنهم كانوا قد مكثوا بها ثلاثة أيام وثلاث ليال. لقد خربوها وفاحت منها رائحة عفنة بدلا من الرائحة الذكية (**اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، نجسوا هيكل قدسك، جعلوا أورشليم أكواما**).[٤٠٤]

إن التجار الذين أدوا المبلغ بأكمله طلبوا من الفلاحين سند التنازل، ولكن لم يستجب لهم أحد، فشكوهم إلى الحاكم الكافر الذى قال للفلاحين: "اكتبوا لهم إذا أردتم". وهكذا فإن الذين أرادوا قاموا بالكتابة، والذين لم يرغبوا رفضوا. على كل حال فإن الذى كتب لم يجد نفعًا، لأنه قد صدر منشور وأعلن مبشر: "ليس على أحد أن يدفع شيئا، وليس لأحد أن يطالب بدين قديم أو حديث".

فذهب تجار المدينة وأهاليها الذين أسيئت معاملتهم إلى "موسى بن مصعب" يشكون إليه من الظلم الذى كانوا هم ضحاياه. ولكنهم كانوا فى الحقيقة واهمين مضللين، لأنهم كانوا يطلبون العدل من رجل ظالم، وكانوا لا يتصورون أن كل ذلك يصدر منه. إنه لم يرفض فقط رد ثرواتهم إليهم، ولكنه غضب على الحاكم لأنه لم يطالبهم بثلاث مرات زيادة.

توجه "ابن مصعب" إلى الملك فى بغداد، كما تجمع كل شعب الموصل والجزيرة وتوجهوا من بعده إلى الملك أيضا. كان هناك الآلاف بل عشرات الآلاف ينوحون ويبكون ويذرفون الدموع أمام الأمير لمدة تزيد على خمسة أشهر أو ستة من شدة الظلم. لم يجد أحد منهم من ينصفه، بل أصابهم من الأذى أكثر مما تعرضوا له قبلاً نتيجة ألم الأحشاء ومختلف الأمراض، ولم يعد نصفهم إلى أوطانهم. هكذا عادوا من بغداد دون أن يجنوا شيئا سوى

---

(٤٠٣) العهد القديم: المزامير ٧٩: ١.

الشر الذى جلبوه على أنفسهم وعلى بلادهم **(الحاكم المصغى إلى كلام كــذب كل خدامه أشرار)**.[٤٠٥]

عن أنواع العذاب التى تكبدها الرجال فى تلك الفترة

إنه ليس من الغرابة فى شىء أن نضع هذا فى تعليق حزين، ربما كان الذين سيأتون من بعدنا عندما يرون عقوبتنا سيخشون الرب. إنه مكتــوب: **(خشية الإنسان تضع شركا والمتكل على الرب يرفع)**،[٤٠٦] **(لذلك، هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا أطعم هذا الشعب أفســنتينا وأســقيهم مــاء العلقم. وأبددهم فى أمم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم الســيف حتى أفنيهم)**،[٤٠٧] **(لأنك جربتنا يا الله، محصــتنا كمحــص الفضــة)**،[٤٠٨] **(أدخلتنا إلى الشبكة، جعلت ضغطا على متوننا)**،[٤٠٩] **(ويل لأشور قضــيب غضبى، والعصا فى يدهم هى سخطى)**.[٤١٠]

لقد تنبأ الأنبياء بتلك الأحداث من قبل، أما نحن فقد رأيناها تتحقق أمام أعيننا ولمسناها بأيدينا وشعرنا بها على أجسادنا. الآن ليس فــى مقــدورنا السمع ولكن لدينا الإحساس، فى البداية كانوا يصنعون ألواحا خشبية عرضها أربعة قراريط ومسطحة من الجانبين، ثم يلقون عليها برجل وجهــه ناحيــة الأرض ويجلسون واحدًا على رأسه وآخر على أرجله بينما يضــربه ثالــث دون رحمة على أفخاذه وهى شبه عارية، وهكذا أنجزت تلك النبــوءة **(لأن**

---

(٤٠٤) العهد القديم: الأمثال ٢٩: ١٢.
(٤٠٦) العهد القديم: الأمثال ٢٩: ٢٥.
(٤٠٧) العهد القديم: إرميا ٩ : ١٥/١٦.
(٤٠٨) العهد القديم: المزامير ٦٦: ١٠.
(٤٠٩) العهد القديم: المزامير ٦٦: ١١.
(٤١٠) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٥.

غضب الإنسان يحمدك، بقية الغضب تتمنطق بها)[٤١١] وهذا أيضا (**انـذروا وأوفوا للرب إلهكم يا جميع الذين حوله، ليقدموا هدية للمَهُوب).**[٤١٢]

فى مكان آخر جاءوا بعصوين وضموهما من إحدى الجوانب بالحديد، وثبتوهما فى ساق رجل إحداهما من فوقه والأخرى من أسفله، ثم وقف رجل عليهما فى الجانب الآخر حتى تمزقت ساقاه. وهكذا نفذ هذا القول (**فجعلـت رجلىَّ فى المقطرة ولاحظت جميع مسالكى وعلى أصول رجلىَّ نبشت).**[٤١٣]

فى مكان ثالث كانوا يعلقونهم من أذرعهم، حتى إن أعضاءهم كانـت تنفصل عن أجسادهم، وأيضا النساء كانوا يعلقونهن من أثدائهن حتى كانـت تنزع من صدورهن.

فى مكان رابع كانوا يجردونهم من ثيابهم ويحمّلونهم بالحجـارة، ثـم يغرقونهم فى الثلج والجليد، ثم يسكبون عليهم ماءً بـاردًا، حتـى يتجمـدوا فيسقطوا ووجوههم على الأرض.

فى مكان خامس كانوا يأخذون خمسة ألواح من الخشب ويشقونها من الأطراف، ويدخلون فى هذ الشق أصابع شخص ويضغطون على الطـرف الآخر حتى ينضم الجانبان وتتمزق الأصابع. كانوا يأخذون أيضـا لـوحين يضمونهما بعضهما لبعض من جانب ويضعونهما واحدًا على الظهر والآخر على البطن، ثم يقف شخص على الطرف الآخر حتـى تتكسـر الضـلوع وتصبح الأحشاء على وشك الخروج.

كانوا يضعون أغلالاً على الأذرع وعلى كل الأعضاء، وكانوا يدببون أطراف عصىٍّ ويدخلونها تحت الأظافر، وبالمثل كانوا يصنعون كرات مـن

---

(٤١١) العهد القديم: المزامير ٧٦: ١٠.

(٤١٢) العهد القديم: المزامير ٧٦: ١١.

(٤١٣) العهد القديم: أيوب ١٣: ٢٧.

الجوز ويضعونها فى محاجر العيون حتى تكـاد عيـونهم أن تخـرج مـن محاجرها.

كانوا يجعلونهم يقفون حفاة عراة فى الثلج وفى المـاء البـارد حتـى شحبت ألوانهم كالأموات، وكانوا يلوحون بعصا غليظة ثم يضـربونهم دون رحمة وهم منبطحون أرضًا، ولكن لم تكن الضربات لتجدى نفعا، ولم يكـن السجن ليحقق غرضا (**الرؤسـاء بأيـديهم يعلَّقـون ولـم تعتبـر وجـوه الشيوخ**).[٤١٤] قال النبى فليأت ليرى هنا الرؤساء المعلقين. وليس هذا فقط، ولكنهم معلقون بين السماء والأرض بينما كان البعض يضـربونهم بعصـىً غليظة والبعض الآخر توضع الأغلال فى أرجلهم. كانوا لايكادون ينتهـون من تعذيب فرد حتى ينتقلوا إلى آخر (**من أجل هذا حزن قلبنا، من أجل هذه أظلمت عيوننا. مضى فرح قلبنا صار رقصنا نوْحًا**).[٤١٥]

لقد أرادوا أن ينزلوا كل ألوان العذاب على أجسامهم مرة واحدة، كانوا يلقون بهم عراة فى الثلج، وكانوا يجمعون أحجارًا كبيرة ويضـعونها علـى ظهورهم حتى إن أحشاءهم تمزقت وضلوعهم وعمودهم الفقـرى تحطمـت. كانوا يسخنون الحمَّام إلى أن يصبح حارقا مثـل النـار ويملأونـه بالـدخان ويحبسونهم ويعلقونهم به وهم عراة، ثم يحضرون قططا ويلقون بها وسطهم، ونظرا لتعرضها للحرق كانت تنقض عليهم وتنهش أظافرها فى أجسادهم، كما كانوا يحبسونهم فى حجرات مظلمة حيث لا يتسرب إليهم أى شعاع من نور.

إنه مكتوب فى الكتاب: (**أيضا كل مرض وكل ضربة لم تكتب فى سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك**).[٤١٦] لقد منى الشعب البـائس بكل تلك الاضطرابات والظلم بسبب الضرائب.

---

(٤١٤) العهد القديم: مراثى إرميا ٥: ١٢.
(٤١٥) العهد القديم: مراثى إرميا ٥: ١٥/١٧.
(٤١٦) العهد القديم: التثنية ٢٨: ٦١.

لو لم تكن تلك الكارثة عامة لما شملت مسـيحيين ووثنيـين ويهـودًا وسامريين وعابدى النار والشمس ومجوسًا مـع مسـلمين وصـابئين[٤١٧] ومانويين. إن الآلهة والإلهات لن يمجدوا هـذا الاضـطهاد المـر، ولكـن الموضوع ليس له صلة بالإيمان ولا بذلك الذى يعبد فى الشـرق ولا الـذى يعبد فى الغرب.

إن اسم الإسلام قد اختفى تماما مع اسم المسيحية، ولو كان المسيحيون قد نجوا وحدهم من هذا الاضطهاد لكنت بكل الحق مجدت شهداء عصـرنا أكثر من كل الشهداء السابقين، لأن الموت السريع بحد السيف أفضـل مـن العذاب الطويل الذى لاينتهى. "لم أشاهد مطلقًا - كما قال القديس باسـيل - أحدًا يساق إلى السجن أو إلى العذاب بسبب فقره"، فليحضر الآن ليرى آلافًا وعشرات الآلاف مما يفوق الحصر، عربًا وسوريين، مذنبين وغير مذنبين، أغنياء وفقراء، كلهم لاتمييز بينهم. إن كأس المرارة وغذاء الغضب كانـت معدة لكل الناس على السواء، للكبار والصغار، وللأغنياء والفقراء، كما قال النبى **(لأنه هكذا قال لى الرب إله إسرائيل: خذ كأس خمر هذا السخط مـن يدى واسق جميع الشعوب الذين أرسلك أنا إليهم إياها)**[٤١٨]

إن الغنى يأكل المر دائما لأن كل ما كان يحصل عليـه حـرام ولأن عظامه كانت محطمة بالضربات، أما الفقراء فلأنهم كانوا يطلبون منه ما لم يكن يمتلكه، كما لم يقبل أحد أن يلحقهم بعمل فى حقله أو فى كرمته، لهـذا أكلوا المرارة وشربوا مياهًا مرة **(لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسـرائيل: هأنذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم)**.[٤١٩]

---

(٤١٧) الصابئون هم المرتدون عن دينهم ليدخلوا فى دين غيره، أو هم من يعبدون الكواكب ويزعمون أنهم على ملة نوح عليه السلام.
(٤١٨) العهد القديم: إرميا ٢٥: ١٥.
(٤١٩) العهد القديم: إرميا ٩: ١٥.

فلا يتصور أحد يا إخوانى أننى قد بالغت هنا، ولكن لنعلم أن كل الأقلام وكل أوراق العالم لن تكفى ليكتب عليها العذاب الذى تكبده الأهالى فى وقتنا هذا، فلا نلام إذن لإيجازنا فى عرضها، لأنه ليس فى مقدورنا أن نذكر كل شىء، وأيضا لأن تلك الكارثة لم تظهر فى بلدة واحدة.

عن الجفاف والمجاعة التى حدثت فى ذلك العام، وعن غزو الشعب الجنوبى والشرقى للمنطقة الشمالية

إن الأنبياء فى كل وقت يصرخون فينا كالأبواق، ويصيحون فى آذاننا باستمرار كالنفير فى كل زمان، من أجل أن نهتدى إلى الرب وأن نبحث عنه. ونحن كالأحجار قد تحجرت قلوبنا، وأغلقت عيوننا وصمتت آذاننا لكى لانسير فى طريق الرب، ولكن وفقا لإرادتنا. كل منا يحب ما يروق لقلبه وليس ما يروق للرب، إنه مكتوب فى الأنبياء: **(انتظرتم كثيرا وإذا هو قليل ولما أدخلتموه البيت نفخت عليه، لماذا؟ يقول رب الجنود: لأجل بيتى الذى هو خراب وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته. لذلك منعت السموات من فوقكم الندى ومنعت الأرض غلتها. ودعوت بالحر على الأرض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت وعلى كل ما تنبته الأرض وعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل أتعاب اليدين).**[٤٢٠] سوف ترى الغزارة وسوف تأخذ القليل إلى منزلك **(أنت تزرع ولاتحصد، أنت تدوس زيتونا ولاتدَّهن بزيت وسلافة ولاتشرب خمرا)**،[٤٢١] كل تلك الأشياء حدثت فى وقتنا القاسى.

إن المطر الذى كان من عادته أن يسقط فى الشتاء قد حجز فى السماء، ولم يكن أبدا بخار ماء، لم ينبت أى زرع، وما نبت جف، وخاصة فى

---

(٤٢٠) العهد القديم: حجى ١: ٩/١٠/١١.
(٤٢١) العهد القديم: ميخا ٦: ١٥.

المنطقة الجنوبية والشرقية وفى كل الصحراء. لم يكن هناك إلا أعشاب قليلة فى وديان الجبال.

وهكذا خرج كل المؤمنين فى موكب لأداء صلوات الربيع، وبكل لغة كانت كل أمة تصرخ نحو الرب فى اتجاه واحد فى هذا الحزن العميق. عندما رأى الأهالى أن المطر لم يسقط أصبحوا – دون رحمة – يحتجزون قمحهم، ولم يخرجوه حتى ولو لبيعه، ولهذا جاء المشترى وبدأ فى البحث عنه، ومن هنا سقط البؤساء فى أسى عميق. وأيضا هؤلاء الذين جمعوا القمح منذ فترة فرحوا وابتهجوا أنهم هم الذين كان النبى غير محق عندما قال ضدهم **(اسمعوا هذا أيها المتهمّون المساكين لكى تبيدو بائسى الأرض. قائلين متى يمضى رأس الشهر لنبيع قمحا والسبت لنعرض حنطة؟ لنصغر الإيفة ونكبر الشاقل ونعوج موازين الغش. لنشترى الضعفاء بفضة والبائس بنعلين ونبيع نفاية القمح. قد أقسم الرب بفخر يعقوب: إنى لن أنسى إلى الأبد جميع أعمالهم. وأحول أعيادكم نوْحًا وجميع أغانيكم مراثى وأصعد على كل الأحقاء مسحا وعلى كل رأس قرعة وأجعلها كمناحة الوحيد وآخرها يوما مُرًّا).**[٤٢٢] هؤلاء الذين كانوا يملكون القمح عندما علموا أن السماء ممسكة المطر قيدوا أيديهم ولم يبيعوا القمح، وانتظروا حتى يصبح الناس بؤساء ومضطهدين.

إن السلطة أمرت أن يخرج كل الشعب وكل الأمة فى موكب من أجل أداء صلوات الربيع. لقد قيل ربما يكون الرب قد أراد أن يكون رحيما نحونا ويفتح لنا باب الرحمة، لهذا خرج المسيحيون وعلى رأسهم أسقفهم واليهود بأبواقهم وكذلك العرب.

---

(٤٢٢) العهد القديم: عاموس ٨: ٤/٥/٦/٧/١٠.

لقد أراد الرب أن يشفق علينا، فكان هناك مطـــر وزرع فـــى بعـــض المناطق، كما قال النبى عاموس: **(وأنا أيضا منعت عنكم المطر إذ بقى ثلاثة أشهر للحصاد وأمطرت على مدينة واحدة وعلى مدينة أخرى لـــم أمطـــر، أمطر على ضيعة واحدة والضيعة التى لم يمطر عليها جفت. فجالت مدينتان أو ثلاث إلى مدينة واحدة لتشرب ماء ولم تشبع فلم ترجعوا إلـــىَّ، يقـــول الرب).**[٤٢٣]

اشتدت الكارثة فى الموصل وجف كل زرعها، وحدث مثل ذلك فـــى الشرق والجنوب، علاوة على أن تلك المناطق كانت مهجورة بسبب قســـوة "ابن مصعب"، فقد تركها الأهالى وانتشروا فى تلك المنطقـــة الشـــمالية. إن "التغالبة" و"المعديين" ذهبوا جميعهم بأغنامهم وإبلهم وعائلاتهم وكل ثرواتهم وانتشروا فى المنطقة وخربوها لدرجة أنه لم يبق شىء ترعاه الماشية.

كانت الأرض كما لو كانت قد كنست بمكنسة، ولذلك هلكت كل دواب المنطقة الشمالية، وفى الشتاء التالى كانت المدن والقرى قد خربت. عـــلاوة على ذلك فى بلدة الموصل: بيت جرمـــى، وحـــزا، ومرجـــا، ونيســـابور، وديصان، وكوكا، وصلاح، ومناطق أخرى كثيرة تركها الأهالى ونزحوا إلى بلاد الشمال، لدرجة أنه لم يعد هناك مكان للأهالى يمكن أن يتجولوا فيه، لا فى المدن ولا فى القرى، وكانت المجاعة على وشك الوقوع بســـبب كثـــرة عددهم. هكذا طبق عليهم ما هو مكتوب **(هكذا قال رب الجنود: هأنذا أرسل عليهم السيف والجـــوع والوبـــأ وأجعلهـــم كتـــين ردىء لا يؤكـــل مـــن الرداءة)**[٤٢٤] كل هذه الأشياء جاءت معهم وبعدهم. سنقص فى الوقت تاملائم الكارثة التى حلت بهم بسبب المرض، والسبى والطاعون الذى حل بهم.

---

(٤٢٣) العهد القديم: عاموس ٤: ٧/٨.

(٤٢٤) العهد القديم: إرميا ٢٩: ١٧.

عام ١٠٨٤ يونانية (٧٧٢-٧٧٣م) مات القديس "بولس" أسقف تكريت و"زينان" من كرما و"يونان" من بيت نهادرا بسبب عداوتهم "لداود". لم ترغب تلك البلاد أن تستقبل أساقفة من جانبه. لقد ظلت هكذا دون أسقف فى انتظار خروج جريجوريوس من السجن. وفى هذا العام أمر الملك بإقامة سور حول عاقولا.

هذا الآثم الشرير وقع فى الجشع (**لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة**).[٤٢٥] ولم يكن يكفيه الرجال ولا الكرمات ولا الأراضى ولا الحيوانات ولا الدواب ولا الجبال لامتلاك الذهب والفضة، ولكن كان يستعمل دائما الحيل علنا أمام الجميع، وخاصة ليمنع خروج ولو زوزا واحدًا من عنده. عندما أمر ببناء حائط عاقولا استعمل حيلة خادعة مع سكان المدينة، فأرسل رجالا وأمرهم بقياس كل منزل فى المدينة، طوله وعرضه وأيضا ارتفاعه، ثم أمر كل صاحب منزل ببناء حائط فى مثل طول منزله وعرضه وارتفاعه، على أن يتحمل صاحب المنزل نفقات الحائط الذى يقوم ببنائه. وهكذا أحاط كل مدينة عاقولا بحائط عظيم الارتفاع ومتين البنيان دون أن يدفع من نفقاته فلسًا واحدًا.

عن انتهاك حرمات المقابر التى ارتكبها الناس من نبش القبور وإخراج العظام ونثرها على الأرض

لقد تراكمت المساوئ، وكانت تقع الواحدة تلو الأخرى، الجناح ضد الجناح واليد فى اليد، واشتدت وطأة الاضطراب والظلم على كل الرجال. كانوا يبيعون كل ما يملكون، وكانوا يأخذون هم الثمن، وكانوا لا يعرفون

(٤٢٥) العهد الجديد: الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٦: ١٠.

ماذا يفعلون. كانوا يضطهدون لإجبارهم على تسليم ثرواتهم التى لم تكن يوما فى حوزتهم ولا فى حوزة آبائهم. هذا الضغط وقع على كل جنس من الأحياء، حتى الحيوانات والطيور وحتى أسماك البحر، بسبب ظلم الأمراء أصبح الرجال على جانب كبير من الجرأة، حتى إنهم وصلوا إلى درجة كبيرة وعظيمة من الإلحاد.

لقد انقضوا على المقابر حيث كان يرقد الأموات منذ فترة طويلة، فعبثوا بها وانتزعوا عظام الموتى من أماكنها، ونثروها كالزبل على سطح الأرض. إن كل ما سمعناه على البعد عن هذا الموضوع وصل إلينا الآن، لقد رأينا بأعيننا وليس سماعا أنهم نثروا على وجه الأرض عظام هؤلاء الذين يرقدون ويستريحون فى المقابر منذ قرون سبقت مجيء المسيح. وقد كانوا فى عجلة لأن يأخذوا ثرواتهم من الذهب والفضة، ولهذا نبشوا مقابر كان بعضها يحتوى على أكثر من خمسمائة من رفاة الموتى، وكانوا يلقون بالعظام خارجها وينثرونها فى أماكن متفرقة. كانت هناك مقابر مضت عليها قرون عديدة، وكانت الأرض قد خارت من تحتها فضاعت معالمها، ولكن الشيطان أمرهم بنبشها وإخراج عظام الموتى منها وإزالتها من أماكنها. ولذلك فقد أقسم المعمرون الذين ولدوا فى تلك الأماكن وقالوا: "لم نسمع مطلقًا من آبائنا ولم ينْمُ إلى علمنا أنه كانت توجد مقابر فى تلك المناطق".

كل ذلك جعل الحكماء يقتنعون بأن الشيطان كان يوجه هؤلاء الرجال، ويجعلهم يقتفون خطواته حتى يزج بهم فى هذا الظلم. لقد أشيع بين الناس خبر أن بلدة كذا الفلانية قد عثرت على قدر من الذهب والفضة يوازى عدة آلاف زوزا، وأن فلانا عثر على كمية من المجوهرات. إن الحكماء كانوا على علم بأن المدفن الذى يوجد به آلاف من الرجال، كان لا بد أن يكون قد دفن مع بعضهم، بسبب كثرة الوفيات أو بسبب إهمال الذين قاموا بعملية الدفن، كان لا بد من وجود سوار أو أقراط أو أموال فى الأحزمة. إن القدماء

كانوا يوصون قبل موتهم أن تدفن معهم ثرواتهم من الذهب والفضة، بأن توضع فى أحزمة تلف حول أجسادهم عند دفنهم. وقد أكد هذا أنه وجد سوار من النحاس قد اعتبره الشيطان من الذهب، وكان السوار جميلا وكبيرا، وقد أعلن ذلك فى المنطقة، ولو كان من حديد لادعى أنه من فضة، حتى يثير الجميع فيقوموا بنبش المقابر.

لقد تحمل الرجال كل هذه المصائب، وكذلك الحيوانات وطيور السماء وأسماك البحار، وكذلك الأشجار وكل ما كان على الأرض، وحتى الذين كانوا تحت الأرض (**منَسَّى أفرايم وأفرايم منسَّى وهما معا على يهوذا، مع كل هذا لم يرتد غضبه بل يده ممدودة بعد**).(٤٢٦)

فى نفس هذا العام حدثت ثورة ضد بطريق (كبير الأشراف عند الرومان) أرمينيا الكبرى، حيث قُتل بحد السيف. لقد قيل إن هذا الرجل كان لديه أكثر من مائة ألف عبد، وقد أخذنا كل ثروته وأوصلناها إلى الملك.

عن المصائب التى تراكمت على الأرض بسبب شهود الزور،
وعن الكذب، وعن الدائنين والمدينين، وعن الوشايات،
وعن رحمة الرب الذى تحمل غضبنا بصبر دون إثارة

لا يجوز حذف الأحداث التى وضعناها فى ذلك الفصل الحزين، لأن الذين سيأتون من بعدنا، عندما يرون النكبات العديدة التى وقعنا فيها والآلام التى قد تحملناها بسبب ظلمنا، ربما يجتنبونها ولايسيرون مثلنا فى الطرقات والسبل غير الممهدة، فلا تحيط بهم الحيوانات المفترسة كما حدث لنا. ليس ذلك لأن الرب كان فى حاجة إلى رحمة إبراهيم الذى كشف له الجرائم التى ارتكبها أهل سدوم مع عابرى السبيل الأغراب، ولكن ليبين لأولاده الأمور

---

(٤٢٦) العهد القديم: إشعياء ٩: ٢١.

السيئة التى تثيره وتهيج مشاعره ضد الذين قاموا بها. إنه مكتوب فى كتاب التشريع **(فقال الرب: هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله؟. وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض. لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برا وعدلا لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به. وقال الرب: إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدًا).**(٤٢٧)

هل الرب قد أظهر سيئاتهم إلى إبراهيم ليرحم أهل سدوم؟ لكن كان هذا من أجل أن يخبر أولاده ويقول لهم: "ابتعدوا عن تلك الأشياء". هذا نفس ما قاله داود لابنه **(وانت يا سليمان ابنى اعرف إله أبيك واعبده بقلب كامل ونفس راغبة لأن الرب يفحص جميع القلوب ويفهم كل تصورات الأفكار، فإذا طلبته يوجد منك وإذا تركته يرفضك إلى الأبد).**(٤٢٨)

هذا هو ما حدث لنا. عندما انحرفنا عن طريق العدل لم يشعر أحد، ولكن عندما رفع الرب يده عنا شعرت كل المخلوقات بهذا معنا، الحيوانات والدواب وأسماك البحر وطيور السماء وحتى الأموات فى مقابرهم وأيضا الأحجار والأخشاب قد قاست معنا.

إنه مكتوب **(فقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. والثانية مثلها، تحب قريبك كنفسك)،**(٤٢٩) **(بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء).**(٤٣٠) وأيضا: **(أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لاتشته بيت قريبك، لا تشته امرأة**

---

(٤٢٧) العهد القديم: التكوين ١٨: ١٧/١٨/١٩/٢٠.
(٤٢٨) العهد القديم: أخبار الأيام الأول ٢٨:٩.
(٤٢٩) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٢: ٣٧/٣٩.
(٤٣٠) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٢: ٤٠.

قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبــك)،[٤٣١] **(أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكى تطول أيامك ولكى يكون لــك خير على الأرض التى يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. ولا تزن. ولا تسرق. ولا تشهد على قريبك شهادة زور. ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك).**[٤٣٢]

إن كل تلك الأشياء لم تصل إلينا عن طريق السمع، ولكننا نحن بأنفسنا قد اقترفناها، لهذا لا يدين البشر الرب بسبب المصائب التى حلت بنا، فلنعلم أنه لم يعاملنا وفقًا لسيئاتنا، ولنعظم رحمته التى ليس لها حدود، فهــو الــذى تحمل سيئاتنا ومظالمنا التى اقترفتها أيدينا، والتى بسببها حل الغضب علــى الأبناء غير المهذبين.

هل اقتُرف أذًى فى هذا العالم إلا عندنا؟ إن قصة صراع الأخوين قايين ها هى عندنا. إن السدوميين عندنا كلها، الكذب والعــداوة وثرثــرة اليهــود والطغيان. ها هو حولنا النهب والسلب والقتل وشهادة الزور، كل المساوئ ها هى بيننا. إننا نريد أن نثبت كل تلك الأشياء واحدة واحدة، حتى يرى أولادنــا عقوبتنا ولايفعلوا مثل ما فعلنا، وحتى لاتدركهم هم أيضا تلك المقرعة المرة.

عن شهادة الزور التى تفشت بيننا

إنه مكتوب **(من جهة أعمال الناس فبكلام شفتيك أنا تحفظــت مــن طرق المعتنف).**[٤٣٣] وأيضا: **(الذى يغتاب صاحبه سرا هذا أقطعه، مستكبر العين ومنتفخ القلب لا أحتمله).**[٤٣٤]

---

(٤٣١) العهد القديم: الخروج ٢٠ : ١٢/١٣/١٤/١٥/١٦/١٧.
(٤٣٢) العهد القديم: التثنية ٥: ١٦/١٧/١٨/١٩/٢٠/٢١.
(٤٣٣) العهد القديم: المزامير ١٧: ٤.
(٤٣٤) العهد القديم: المزامير ١٠١: ٥.

إن هدفنا أيها الأخوة ليس أن نعرض عليكم مصائب الناس أو كوارثهم، ولكننا نريد أن نظهر لكم أنهم كانوا هم السبب وراء تلك الكوارث حتى تجتنبوها (**يتكلمون بالكذب كل واحد مع صاحبه بشفاه ملقة بقلب فقلب يتكلمون. يقطع الرب جميع الشفاه الملقة واللسان المتكلم بالعظائم**).[٤٣٥]

عندما تكون هناك قضية بين شخص وجاره أوصديقه يذهب أحدهما ويقف فى مكان عام وينادى على أحد الرجال: يا سيدى فلان، هل تضمننى؟ فيسرع هذا ويجيب على الفور قائلا: باسم الرب أنا متضامن معك فيما تريده. ويقسم قبل أن يعرف الموضوع، لم يكن الوثنيون هم فقط الذين يفعلون هذا، ولكن أيضا المسيحيون والرجال المعمرون، لأى سبب مهما كان، حتى لو أراد أخذ زوزا واحد كان يستأجر شهود زور كيفما يشاء، وكانوا لا يضعون أبدا عدالة الرب نصب أعينهم، ولكن فى لحظة واحدة كانوا يطيحون بالفقير من على الأرض.

عن الدائنين والمدينين، وعن الكذب

(بل بالقلب تعملون شرورا فى الأرض ظلم أيديكم تزنون).[٤٣٦] **(فمه مملوء لعنة وغشا وظلما، تحت لسانه مشقة وإثم)**.[٤٣٧] **(فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعط بالمرابحة)**.[٤٣٨] ويقول داود: **(فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة على البرىء، الذى يصنع هذا لايتزعزع إلى الدهر)**[٤٣٩]

(٤٣٥) العهد القديم: المزامير ١٢: ٢/٣.
(٤٣٦) العهد القديم: المزامير ٥٨: ٢.
(٤٣٧) العهد القديم: المزامير ١٠: ٧.
(٤٣٨) العهد القديم: اللاويين ٢٥: ٣٧.
(٤٣٩) العهد القديم: المزامير ١٥: ٥.

(والرذيل محتقر فى عينيه ويكـرم خـائفى الـرب، يحلـف للضـرر ولا يغير).[٤٤٠] كل تلك الأشياء لا توجد بيننا الآن.

إن أهالى القرى مضطهدون بسبب ابتزازات وحشية، لقد جاءوا إلـى المدينة يحملون الهدايا إلى الذين يقرضون بالربا، عندما رآهم هؤلاء قـالوا لهم: "مرحبا بكم". وبألفاظ معسولة أضافوا: "سأعطيك كل ما أنت فى حاجـة إليه، لا تحمل همًا، ما دمت أنا على قيد الحياة سوف أعطيك، ولن تحتاجٍ إلى أحد، ولن أطالبك بشاهد أو ضامن أو رهن. لـن أطلـب منـك فائـدة ولا استرجاعًا، خذ ما شئت وعندما تجنى المحصول ردَّ إلىَّ مـالى أو أعطنـى قمحًا أو نبيذًا فى حينه. اذهب الآن واحضر فى خلال أيام".

هذا البائس عند سماعه لتلك الكلمات يعود إلى منزله منشرح الصدر، وهو لا يعلم أن الشيطان لن يسمح للآخر أن ينفذ ما خرج من فمه **(أنعم من الزبدة فمه وقلبه قتال، ألين من الزيت كلماته وهى سيوف مسلولة).**[٤٤١]

هذا البائس كان واثقا من الكلمات المعسولة التى طمأنه بها المرابـى، ولم يكن فى حيرة من أجل البحث عن المال لدفع الضريبة، فظل ساكنا فـى منزله حتى وصل المبتزون، وما إن أمسكوا به حتى قال لهـم: "انتظرونـى قليلا حتى أحضرها لكم". وذهب بسرعة إلى ذلك الذى كان قـد وعـده أن يعطيه، وقال له: "هل تسمح يا سيدى أن تعطينى ما طلبته حتى لا يطيحـوا بى؟" فأجابه: "انتظر قليلا". فكان إما أن يتركه ويذهب لفترة، أو أن يستهزئ به قائلا: "اذهب الآن وتعال فى خلال أيام". هذا المكروب عند سماعه لتلـك الكلمات المعسولة عاد إلى أهله بفرحة غامرة مبتهجـا، وهـو لا يعلـم أن الشيطان لن يسمح للدائن أن يبر بوعده. "اذهب اليوم وائتنى غدا صباحا ففى الوقت الحاضر ليس معى ما يكفيك". واستمر فى مماطلته لعدة أيام، ولما كان

---

(٤٤٠) العهد القديم: المزامير ١٥: ٤.

(٤٤١) العهد القديم: المزامير ٥٥: ٢١.

هذا مضطهدا طوال حياته فقد أسرع بإحضار العديد من الوسطاء، وفى النهاية اكتفى الآخر بأن قال له: "لن أعطيك لأنه ليس لدى ما أعطيه لك". ثم قال له: "أريد منك صكا بالمبلغ". فوافق، وعندما كتب الصك أرسله أيضا بكلمات معسولة، وقال له: "اذهب الليلة وائتنى صباحا". وعندما كانوا يعودون فى الصباح الباكر كان يقول لهم: "لن أعطيكم إلا إذا أعطيتمونى رهنا". وعندما كانوا يعطونه الرهن كان يضيف قائلا: "كم تعطون فائدة على تلك النقود؟ وبالنسبة للفدية كم تعطون من القمح؟ لأننا لا نأخذ أموالا سائلة". وبسبب حاجتهم الملحة كانوا يلبون كل ما كان يطلبه، على قدر ما يخرج من فمه كانوا يعطونه، ويكتبون له صكًا أيضا، ويطلب منهم بعد ذلك ضمانات. وهكذا فقد نقض كل الأقوال والوعود التى كان قد وعدهم بها. فى البداية أخذ منهم رهنا وأعطوه صكًا، وسجلوا على أنفسهم فوائد طلب استرجاع وطلب ضمانات.

وبمجرد أن أعطاهم لينجدهم لم يقبلوا يديه فقط، بل أخذوا يلعقون أخمص قدميه، وقالوا: "إذا مضت عدة أيام ولم نحضر لك حقك فنحن مدينين بكل ما هو مسجل فى هذا الصك". لذلك ذهبوا فورًا وباعوا ممتلكاتهم وجمعوا أموالهم، ولكن عندما حملوها وذهبوا لدفع الدين ليتحرروا جاء الشيطان عدو كل الخير. جاء وبدأ فى مهاجمتهم بقسوة باقتراحاته: "كيف ترد تلك الأموال الآن؟ سوف يطلبونها مرة أخرى ولن يكون معك ما تعطيه، لأنك بعت كل ممتلكاتك. إذا لم تعطه فهذا لاينقصك ولايستطيع أن يحدث بك ضررًا، على كل حال رهنك يظل عنده، وإذا أخذته منه يجب أن تضعه عند دائن آخر أفضل من أن يبقى عنده".

تلك كانت النصائح الضارة التى قدمها الشيطان للمدينين، وهى ألاَّ يحترموا كلمتهم ولا يكونوا محل ثقة الدائن، ثم بعد ذلك لاينجدهم. كان يجبرهم على أن يرددوا الأكاذيب التى مارسوها علينا، هذه النصائح الظالمة

كانت تأتي من بنات آدم، ونفذت في الوقت الحاضر قول النبي: **(شعبي ظالموه أولاد، ونساء يتسلطن عليه، يا شعبي مرشدوك مضلون ويبلعون طريق مسالكك)**،[٤٤٢] إنهن اللائي يحكمن الرجال، كن ينصحن: "اعمل هذا أو ذاك". وكان الزوج يقول: "إنك نصحتني خيرا". لأن هؤلاء الرجال كانوا لايرعون الوعود والعهود المبرمة للرب، ولا يفكرون فيما سيحدث لهم، أي إنهم عندما يطلبون مرة أخرى لا نعطيهم أبدا، ولكن نصيحة الشيطان وزوجاتهم كانت تروق لهم.

ومما كان يحدث أيضا أنه عندما كان أحدهم يمسك المال في يده، وكان الدائن يضغط عليه قائلا: "رد عليَّ مالي". كان يرفض بشدة، لأن الشيطان كان مستحوذا على قلبه قائلا: "ليس لدى شيء". وكان يسجن ويضرب ولايرد شيئا. إنه إلى مثل هؤلاء يتوجه كاتب المزامير عندما قال: **(الشرير يستقرض ولايفي أما الصِّديق فيترأف ويعطي)**.[٤٤٣]

وبدلا من أن يذهب المدين إلى باب الدائن ليرد إليه ماله كان الدائن يذهب بنفسه إلى باب المدين ويتوسل إليه، وإذا حدث أن دفع المدين نصف الدين كان الدائن يعتبر نفسه سعيدًا جدًّا. هكذا كان الكذب يسيطر تماما على كل الناس.

عن الوشاية والظلم والنهب المتبادل، وعن شهود الزور

عندما كان يحضر سكان المدينة ليسددوا الضريبة كانوا يحدثون غوغاء مثل أهل "قيافا"، كانوا يتجولون في البلاد، ويتساءلون عن أي مكان يوجد فيه رجل يمتلك شيئا احتياطيا، سواء كان قمحًا أو نبيذًا أو منقولاتٍ، ثم يذهبون لمقابلة الأمير ويقولون له: "يجب أن يدفع فلان جزءًا من جزيتنا، إنه

(٤٤٢) العهد القديم: إشعياء ٣: ١٢.

(٤٤٣) العهد القديم: المزامير ٣٧: ٢١.

يمتلك كذا عند فلان، ومنذ عدة سنوات لم يـدفع الجزيـة". حينئـذ يصـدر الأميرهذا الأمر: "اذهبوا وبيعوا خيراته". وإذا كان هـذا الرجـل أو غيـره يتعرض لهم كان الحاكم يطلب منهم: "هل لديكم شهود ضده؟" فكان يأتى من بين أهل البلدة من يشهدون ضده، على الرغم من أنهم لم يكونوا قد رأوه من قبل. وهكذا بينما هو يشتكى كانوا يبيعون كل ما يملك، وكانوا لا يسمحون له حتى أن يقترب من خيراته. وكان البعض يقول له: "لقد جاوبت عنا بدلا من فلان". وغيرهم يقولون: "إنك تملك فى بلدتنا كرمة أو حديقة أو حقل زيتون، ومنذ عدة سنوات لم تدفع جزيتك". وكان هذا يقسم: "لم أدخل بلـدتكم قـط، وليست لدىَّ حديقة عندكم". ولكن هؤلاء كانوا لا يتركونه قبل أن يجعلوه يبيع كل ما يملك، فكان الرئيس نفسه هو الذى يوجههم إلى هذا الطريق.

لهذا السبب كان الرجال يخافون الظهور فى الشوارع، ولكنهم لم يفلتوا من هؤلاء الآثمين، لأن هؤلاء كانوا يبحثون عنهم. وعندما كان أحدهم يفاجئ أحدًا كان يقول له: "أعطنى كذا وإلا سأحملك إلى الأميـر". بهـذه الطريقـة أصبح هذا العمل تجارة مربحة جدا لكثير من رجال البلدة. وهكـذا مـلأوا منازلهم بالنهب والغش.

إنه بسببهم قال النبى ميخا الذى كان يوبخ الملوك فى وجههم: **(قد باد التقى من الأرض وليس مستقيم بين النـاس، جمـيعهم يكمنـون للـدماء يصطادون بعضهم بعضا بشبكة. اليدان إلى الشر مجتهدتان، الرئيس طالب والقاضى بالهدية والكبير متكلم بهوى نفسـه فيعكشـونها)**،[٤٤٤] وأيضـا: **(لاتأتمنوا صاحبا لاتثقوا بصديق، احفظ أبواب فمك عن المضـطجعة فـى حضنك)**.[٤٤٥] وقال داود: **(الذين صقلوا ألسنتهم كالسيف، فوقـوا سـهمهم كلاما مرا. ليرموا الكامل فى المختفى بغتة يرمونه ولا يخشون. يشـددون**

---

(٤٤٤) العهد القديم: ميخا ٧: ٢/٣.

(٤٤٥) العهد القديم: ميخا ٧: ٥.

أنفسهم لأمر ردىء، يتحادثون بطمر فخاخ، قالوا: من يـراهم. يخترعـون إثما تمموا اختراعا محكما، وداخل الإنسان وقلبه عميق. فيرميهم الله بسهم بغتة كانت ضربتهم).[٤٤٦] لقد قال أيضا عنهم: **(يعودون عند المساء يهرون مثل الكلب ويدورون فى المدينة)،**[٤٤٧] **(وأحب اللعنة فأتته ولم يُسرَّ بالبركة فتباعدت عنه. ولبس اللعنة مثل ثوبه فدخلت كمياه فى حشاه وكزيت فـى عظامه).**[٤٤٨]

لقد كان هذا النهب والسلب قد اقترفه فى المدينة هؤلاء الكلاب الجياع المفترسة، فلاحون ومواطنون، كانت أفواههم مفتوحة كالقبور العفنة لدرجـة أنه إذا حدث أن تم القبض على أحد هؤلاء الفقراء وتمكن من الهرب يقبض عليه غيرهم فورًا، وبعد هؤلاء غيرهم أيضا. لقد قال إشعياء عنهم: **(كيـف صارت القرية الأمينة زانية، ملآنة حقا كان العدل يبيت فيهـا؟ وأمـا الآن فالقاتلون. صارت فضتك زغلا وخمرك مغشوشة بماء. رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايـا، لايقضـون لليتيم ودعوى الأرملة لاتصل إليهم).**[٤٤٩]

ويقول من جديد: **(وأجعل صبيانًا رؤساء لهم وأطفالا تتسلط علـيهم. ويظلم الشعب بعضهم بعضا والرجل صاحبه، يتمرد الصبى علـى الشـيخ والدنىء على الشريف).**[٤٥٠] **(رؤساؤها فى وسطها أُسود زائرة، قضـاتها ذئاب مساءٍ لايبقون شيئا إلى الصباح. أنبياؤها متفاخرون أهـل غـدرات، كهنتها نجسوا القدس خالفوا الشريعة. الرب عادل فى وسطها لايفعل ظلما،**

---

(٤٤٦) العهد القديم: المزامير ٦٤: ٣/٤/٥/٦/٧.
(٤٤٧) العهد القديم: المزامير ٥٩: ٦.
(٤٤٨) العهد القديم: المزامير ١٠٩: ١٧/١٨.
(٤٤٩) العهد القديم: إشعياء ١: ٢١/٢٢/٢٣.
(٤٥٠) العهد القديم: إشعياء ٣: ٤/٥.

غداةً غداةً يبرز حكمه إلى النور لايتعذر، أما الظالم فلا يعرف الخزى)،[٤٥١] (ويل للمفتكرين بالبُطل والصانعين الشر على مضاجعهم، فى نور الصباح يفعلونه لأنه فى قدرة يدهم. فإنهم يشتهون الحقول ويغتصبونها والبيوت ويأخذونها ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه).[٤٥٢] لقد قال ميخا تلك الأشياء بمناسبة النهب والإجرام، ويضيف: **(فإن أغنياءها ملآنون ظلما وسكانها يتكلمون بالكذب ولسانهم فى فمهم غاشٌ. فأنا قد جعلت جروحك عديمة الشفاء مخربا من أجل خطاياك. أنت تأكل ولاتشبع وجوعك فى جوفك، وتعزّل ولاتنجّى والذى تنجيه أدفعه إلى السيف. أنت تزرع ولاتحصد، أنت تدوس زيتونا ولاتدّهن بزيت وسلافة ولا تشرب خمرًا).**[٤٥٣] أى تلك الأشياء لم تحدث لنا؟ أين الزيت والقمح والنبيذ الذى يعيش عليه العمال؟ ولكن المبتزين أنفسهم قد أصابتهم الكارثة بطريقة أشد وأقسى من أى شخص آخر.

فى السنة الأولى فقراء المنطقة السفلى والأغراب هلكوا كما سبق أن ذكرنا، وفى الثانية الذين كانوا يقيمون فوق الأوائل، وفى الثالثة الذين كانوا فوق هؤلاء، وأخيرا فى الرابعة هؤلاء الرجال الظالمون والمبتزون هلكوا هم أنفسهم، ولم يبق لهم شىء سواء من مالهم الخاص أو من الذى كانوا قد نهبوه وجمعوه.

تلك الأشياء وغيرها مثلها وأفظع منها، تلك التى تنبأ بها الأنبياء نفذت وأبرمت من الرجال الواحد فى مواجهة الآخر، فقد ضاعف منها أهل الريف وأهل المدن والتجار، وبدأوا يسيئون لأنهم سارعوا بشراء خير أهل الريف، كرومهم وحقولهم وكل أعمالهم، ولكنهم لم يفرحوا كثيرا لأن الفلاحين انقلبوا

---

(٤٥١) العهد القديم: صفنيا ٣: ٣/٤/٥.

(٤٥٢) العهد القديم: ميخا ٢: ١/٢.

(٤٥٣) العهد القديم: ميخا ٦: ١٢/١٣/١٤/١٥.

ضدهم، ولو كان لأحد هؤلاء المواطنين فى إحدى تلك البلدان نبيذ أو قمح لكانوا يحملونه لبيعه أو لأكله. وكان الحاكم يساعد فى كل تلك الآثام وكان لا يعاقب أحدًا.

أما عن هؤلاء التجار فقد كان الفلاحون لا يكتفون بمجرد نهبهم وأخذ خيراتهم، بل كانوا يقبضون عليهم ويقدمونهم للحاكم قائلين: "كل ثمرة عملنا قد نهبها هذا الرجل فأعطه أمرًا أن يدفع للبلدة". كان الحاكم يضطهده حتى يجعله يختفى من على وجه الأرض، ويأخذ كل ما يملك سواء الذى كان قد نهبه أو لم ينهبه. كان الأغنياء يهربون من أمام الفلاحين كالقطيع أمام الذئاب، يختبئون تاركين الكرمات وكل ما كانوا قد أخذوه.

حدث أيضا أن بعض الرجال ذهبوا لشراء نبيذ من معصرة الفلاحين، فذهب هؤلاء واشتكوا إلى الأمير. ولما كان النبيذ لا يزال موجودا فى بلدتهم فقد أرسل الحاكم وختمه بالشمع الأحمر، وإذا كان قد دخل المدينة كان الحاكم ينهبه. هكذا كان النبيذ وثمنه مفقودين.

وإذا كنا سنضاعف من سرد المساوئ التى حدثت، أو التى سببها الناس بعضهم لبعض بالتبادل، ستظل السيئات باقية هنا وهناك، لأنه من المستحيل على أى أحد أن يكتبها بسبب كثرتها، ولكن ذلك الكم يكفى للعقلاء.

فلنقل بشأن هذا الموضوع مع النبى إرميا: **(لأن شعبى أحمق، إياى لم يعرفوا، هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين، هم حكماء فى عمل الشر ولعمل الصالح ما يفهمون. نظرت إلى الأرض وإذا هى خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها)،**[٤٥٤] **(أنطلق إلى العظماء وأكلمهم لأنهم عرفوا طريق الرب قضاء إلههم، أما هم فقد كسروا النير جميعا وقطعوا الربط. من أجل ذلك يضربهم الأسد من الوعر، ذئب المساء يهلكهم، يكمن النمر حول**

---

(٤٥٤) العهد القديم: إرميا ٤: ٢٢/٢٣.

مدنهم، كل من خرج منها يفترس لأن ذنوبهم كثرت، تعاظمت معاصيهم)،[٤٥٥] (نظر وجوههم يشهد عليهم وهم يخبرون بخطيّتهم كسدوم، لا يخفونها، ويل لنفوسهم لأنهم يصنعون لأنفسهم شرا).[٤٥٦]

عن العام الثانى للكارثة، أى عام ١٠٨٥ يونانية (٧٧٤-٧٧٥م)

كما سبق أن كتبنا وأعطينا معلومات عن الكوارث الوحشية والنهب التى ارتكبها الرؤساء دون رحمة بسبب صدقة المال للعرب والصافى والعشر والنفى وأسباب أخرى كثيرة أشرنا إليها فيما سبق، فإنه لاداعى هنا أن نكرر للرجال العقلاء أن ذلك العام قد أضاف سيئات بكثافة غزيرة أكثر من السابقة واللاحقة، ولم يكن فقط من جانب الأرض والأهالى، ولكن أيضا من جانب السماء والرب.

إن مسئول الصافى طلب دون رحمة اثنين لواحد، والمعشرون انقضوا على عابرى السبيل مثل الكلاب المتوحشة ينهبون دون رحمة الذاهبين والعائدين، والذين كانوا يبحثون عن الهاربين كانوا أكثر جشعا من النسور التى تترقب خراب الجثث، ينتظرون بشغف سقوط الرجال المساكين بين الأيادى، فكانوا يسحبون الفقراء كالنسور حول الجثة.

ماذا سأقول عن انقلاب الأضرحة، والأحرى ماذا سيقول إرميا الذى تنبأ لنا عن انتهاك حرمات المقابر، وعن بعثرة عظامهم كالزبل على وجه الأرض، دون أن يوجد أحد لجمعهم؟ إنه مكتوب: **(فى ذلك الزمان، يقول الرب: يُخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة وعظام الأنبياء وعظام سكان أورشليم من قبورهم. ويبسطونها للشمس وللقمر**

---

(٤٥٥) العهد القديم: ارميا ٥: ٥/٦.

(٤٥٦) العهد القديم: إشعياء ٣: ٩.

ولكل جنود السموات التى أحبوها والتى عبدوها والتى ساروا وراءها والتى استشاروها والتى سجدوا لها، لا تجمع ولا تدفن بل تكون دمنة على وجه الأرض).[٤٥٧]

. تلك الأشياء حدثت فى وقتنا هذا، وقد أشرنا إليها فيما سبق. وقد فاق ذلك العام كل الأعوام السابقة واللاحقة بسيئاته، وخاصة بسبب انتهاك المقابر. وقال أيضا إرميا عن هؤلاء الذين يعيشون فى ذلك الوقت: **(ويختار الموت على الحياة عند كل البقية الباقية من هذه العشيرة الشريرة الباقية فى كل الأماكن التى طردتهم إليها، يقول رب الجنود).**[٤٥٨] ويقول إرميا مرة أخرى: **(وتصير جثث هذا الشعب أكلا لطيور السماء ولوحوش الأرض ولا مزعج. وأبطِّل من مدن يهوذا ومن شوارع أورشليم صوت الطرب وصوت الفرح وصوت العريس وصوت العروس لأن الأرض تصير خرابا).**[٤٥٩]

كل تلك الأشياء قد أنجزوها، ألقيت جثث الأهالى مرعًى لحيوانات الصحراء ولطيور السماء، لأن النبى يشبه هذا الشعب الذى ليس له رب بالحيوانات وبالطيور الدنسة. إن صوت فرح العريس والعروس قد توقف لأنه حتى هؤلاء الذين كانوا متزوجين ألقوا بزوجاتهم وعملوا لهن ورقة الطلاق بسبب كثرة الكوارث **(ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين).**[٤٦٠]

إنه ليس من الضرورى أن نقص تلك الأشياء من جديد، سنمر عليها بخطوة سريعة، سننتقل نحو تكاثر المصائب التى أضافها ذلك العام للسابقين، وسنتحدث عن الشتاء القاسى والبرد القارس، وعن عيوب المراعى، وعن نقص الغذاء للحيوانات البرية، وعن عدد وفيات البهائم، وعن المجاعة، وعن

---

(٤٥٧) العهد القديم: إرميا ٨: ١/٢.
(٤٥٨) العهد القديم: إرميا ٨: ٣.
(٤٥٩) العهد القديم: إرميا ٧: ٣٣/٣٤.
(٤٦٠) العهد الجديد: إنجيل متى ٢٤: ١٢.

الأمراض القاسية، وعن الطاعون الذى أهلك الرجال والحيوانات كـــالجراد، وعن العنف الذى مارسه سكان المدينة الواحد على الآخـــر، وعـــن نهـــب الرجال، وعن الاغتيالات التى ارتُكبت بسبب نقص الخبـــز، وعـــن قطـــع الطرق، حيث أدت إلى جعل المسيحيين يأكلون اللحم أيام الصوم، وأيضا أكل الموتى بدلا من الخبز. تلك هى الأشياء التى سأتحدث عنها، والتى سأرويها وسأكتبها من أجل هؤلاء الذين سيأتون من بعدنا.

عن الشتاء القارس، وعن الماشية والحيوانات والطيور التى نفقت، وعن الرياح العنيفة التى حدثت فى هذا الشتاء

إنه مكتوب: سأحول صيفكم إلى شتاء **(ويكون فى ذلـــك اليـــوم أنـــه لايكون نور، الدرارى تنقبض).**[٤٦١] هذا فى الواقع ما حدث فى العالم هـــذا العام.

فى هذا العام حدث ذلك فى العالم، فكانت زراعة النبيذ عزيـــزة، لأن الرب أراد أن يتنفس الفقير، وأن يضع حدًّا لجشع هؤلاء الحكام الذين كانـــت أفواههم فاغرة، مثل مقابر مفتوحة لم تشبع بالجثث التى يحملها كل يوم حكام الأقاليم. فى ذلك الوقت لم يكتفوا بالمزروعات التى كانت تحملها لهـــم كـــل الأقاليم. لقد أعطى الرب من ثروته مزروعات وفيرة من أجل سد أفـــواههم القذرة، ووهب الراحة للناس المساكين، منتظرين أن ياتى إليهم يوم الانتقام، وأن تكون سيئاتهم زائدة ومقياس مظالمهم مملوءًا.

ولكن الشتاء بدأ منذ شهر تشرين الأول(أكتوبر)، وهجم على الكرمات المحملة بالكروم ثلج غزير، واستمر فترة طويلة. دخل العمال الكرمات لجمع الكروم بينما كان الثلج يكسوها، وبسبب البرد الشديد الـــذى اشـــتد ســـقطت

---

(٤٦١) العهد القديم: زكريا ١٤: ٦.

الحبوب كلها أرضًا واختفت فى الثلج. لقد استفحل البـــرد والـــثلج، كمـــا أن المطر كعادته لم يسقط منذ تشرين الأول(أكتوبر) حتى بداية حزيران(يونيو). طوال تلك الفترة كان هناك يوم ثلج ويوم آخر رياح محملة بالجليـــد تشـــق الجبال، وكذلك برد قارس.

لقد أراد الرب فى هذا العام أن ينزل غضبه على الإقلـــيم مـــن كـــل الجوانب، من السماء ومن الأرض، من جهات السماء الأربع: مـــن الســـماء بالثلج، وبالجليد الشديد فى الأرض، ومن أسفل بثلج يشق الصخور، وعلـــى السطح بالمساوئ الكبيرة التى ارتكبها الناس بعضـــهم بـــبعض، والتـــى لا نستطيع حصرها.

عن نفوق الماشية والحيوانات الذى حدث ذلك العام، وعن نقص علف الحيوانات

حدث جفاف شديد كما ســـبق أن ذكرنـــا، فتجمعـــت قبائـــل التغالبـــة والمعديين، وجمعوا أغنامهم ورجالهم وعائلاتهم وقـــاموا بغـــزو المنطقـــة الشمالية، وكذلك قاموا بغزو المنطقة الجنوبية وخربوهـــا، اشـــتروا جميـــع الحبوب وأرسلوها إلى المنطقة السفلى. جميع المزارع الخارجيـــة احتلـــت واكتسحت الأرض، كما لو كانت قد كنست بمكنسة، الغذاء كان بكميات قليلة، ولما كانت لا توجد مراعٍ بالخارج وقليل من المحاصيل فى الداخل فإن كـــل ماشية المراعى والإسطبلات نفقت، وكذلك الخراف والماعز.

عندما كان يقوم الراعى باصطحاب حيواناته إلـــى المرعـــى كانـــت الحيوانات لاتجد ما تأكله، لم يكن يوجد إلا الغبار، ولا حتى ورقة شجر باقية من شدة الحر. الحيوانات التى كانت ترعى فى الخارج كانت تأكل ما يجمع الذين يرعون فى الإسطبلات، ثم فى النهاية تنفق هذه وتلك، لأن الشتاء امتد طويلاً وكان البرد قارسًا.

فى الخارج كان الصقيع وفى الداخل المجاعة، من أجـل ذلـك كـل مواشى المنطقة الشمالية نفقت، الأغنام والبقر والجياد والحمير، لدرجـة أن المزارع كانت موبوءة بجثثهم العفنة، حتى إنه كانت تنبعث منها رائحة عفنة أكثر من رائحة المقابر.

عن الرياح العاصفة التى هبت فى ذلك العام

علاوة على ذلك هبت ريح شديدة وعاصفة، لدرجة أننا لم نرَ لها مثيلاً فى زماننا أو زمان أجدادنا. لقد أبادت كثيرًا من الأهالى، والماشية الصغيرة، والحيوانات الكبيرة، والطيور. لقد اقتلعت كثيرًا من المزروعـات، وارتفـع التراب من على وجه الأرض فى دوامة أشبه بدوامات الثلج.

ازدادت قوتها ليومين متتالين بين عيد الميلاد وعيد الغطاس، ثم فـى الثالث عشر من شباط (فبراير) أول أحد فى الصوم الكبير ويوم الاثنين التالى له. ولما كانت الأرض محملة بالجليد ولم تكن هنـاك رطوبـة فـإن كـل المزروعات قد اقتُلعت من الأراضى الرملية، أما الأراضى الضـعيفة فقـد يبست وجفت. إن الضباب والظلام حدثا بسبب سحب التراب، وهلكت كـل الطيور وخاصة الحمام. لم نعرف ماذا حدث لهـا، هـل تقـدمت مدفوعـة بالهواء؟ أو سقطت فى الصحراء وهلكت من البرد؟ فإنها قد هلكت، ولكـن عددًا قليلاً منها قاوم، أما الحيوانات البرية فقد نفقـت وكـذلك الحيوانـات المتوحشة.

عن البرد الذى سقط ذلك العام

لقد سقط فى ذلك العام أيضا برد لم نر مثيلا له فى أيامنا، كان سميكا مثل الزلط، وكان ذا أشكال مختلفة، وكانت له زاويتان أو ثـلاث زوايـا أو

أربع، حادة كالسيف. لقد كسر الأشجار والكرمات واقتلع المزروعات، وكل الآجر الذى كان يكسو المنازل قد تحطم. إن هذا الصقيع قد سبب أضـــرارًا كثيرة بسبب الزوابع العظيمة التى هبت فى نفس الوقت.

. إن الهواء الذى كان يحول الجليد إلى سحب كان يحمل الميـــاه التـــى تسقط على الأرض، ويصعد بها فى مواجهة تلك الهابطة من السحاب، لدرجة أنها كانت تظهر للذين ينظرون إليها. إن الأرض نفسها كانت ترفعها وتقذف بها مباشرة أمام السموات.

عن العودة إلى بلدة موسى بن مصعب، وعن الحكام الذين عينهم، وعن العذاب الذى تحمله الأهالى من جانبهم

كما قلنا فيما سبق عندما مضى عام على هذا الظالم، أى العام السابق، تجمع كل سكان بلاد الجزيرة والموصل، وذهبوا إلى الخليفة ليتظلموا له من العذاب الذى فرضه عليهم، ولكنهم كانوا مخطئين عندما تصوروا أن العـــدل يكمن بجوار رجل ظالم وصديق للصوص. وبدلا من أن يجدوا الخير الـــذى ينشدونه لم يحدث إلا أن نفذ فيهم مكره، فإنه بالإضافة إلى عدم استجابته لهم فقد جمع العرائض التى قدمها له الفقراء بسبب عذابهم وسلمها إلى موســـى، وبذلك فقد غمره بالشرف، وجعله يتفوق على كل عظمائه. لقـــد فوضـــه أن يعين حكاما يختاره من بينهم، وكان على كل مدينة أن تقدم واحدًا منها.

عندما تسلم هذا الأمر أضاف إلى سيئاته الأولى سيئة جديـــدة، رجـــع غاضبا زائرا كالأسد المنقض على فريسته، أشبه بحيوان مفتـــرس عنـــدما يتمكن من الهروب من الفخ الذى وقع فيه. هكذا ضاعف هذا الرجـــل مـــن مساوئه عندما زاده الملك قوة بكلماته.

فقد ساعده الرب كما قال إرميا: **(لأنه هكذا قال لى الرب إله إسرائيل: خذ كأس خمر هذا السخط من يدى واسق جميع الشعوب الذين أرسلك أنا إليهم إياها. فيشربوا ويترنحوا ويتجننوا من أجل السيف الذى أرسله أنا بينهم. فأخذت الكأس من يد الرب وسقيت كل الشعوب الذين أرسلنى الرب إليهم).**[٤٦٢] ويقول أيضا: **(وتقول لهم: هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: اشربوا واسكروا وتقيأوا واسقطوا ولا تقوموا من أجل السيف الذى أرسله أنا بينكم).**[٤٦٣] ويقول مرة أخرى: **(لأنى هأنذا أبتدئ أسيء إلى المدينة التى دعى اسمى عليها فهل تتبرأون أنتم؟ لا تتبرأون لأنى أنا أدعو السيف على كل سكان الأرض، يقول رب الجنود. وأنت فتنبأ عليهم بكل هذا الكلام وقل لهم: الرب من العلاء يزمجر ومن مسكن قدسه يطلق صوته يزئر زئيرا على مسكنه بهتاف كالدائسين يصرخ ضد كل سكان الأرض. بلغ الضجيج إلى أطراف الأرض لأن للرب خصومة مع الشعوب هو يحاكم كل ذى جسد، يدفع الأشرار للسيف، يقول الرب).**[٤٦٤]

فى الحقيقة فإن الرب حاكم كل سكان الأرض ذلك العام، لأنه لم يوجد شعب واحد ولا مملكة واحدة فى سلام، ولكن كلهم على السواء حلت بهم الكارثة، كلهم شربوا الكأس من يد الرب. إن الفرس قد ثاروا وسخطوا لأننا لم نعطهم شيئًا، العرب كانوا مسحوقين بالابتزازات، واليهود والمسيحيون ومعهم المصريون والأرمن وأهل السند وكل الشعوب تكبدت ضريبة قاسية.

هذا يوضح أنهم شربوا من هذه الكأس **(أريت شعبك عسرا، سقيتنا خمرالترنح).**[٤٦٥] إن مملكة الرومان لم تكن معفاة من تلك الكارثة القاسية، ولكنهم مثل شعوبنا، فإن حكامهم سقطوا كذلك فى الجشع، لأن مزيج الكأس

---

(٤٦٢) العهد القديم: إرميا ٢٥: ١٥/١٦/١٧.
(٤٦٣) العهد القديم: إرميا ٢٥: ٢٧.
(٤٦٤) العهد القديم: إرميا ٢٥: ٢٩/٣٠/٣١.
(٤٦٥) العهد القديم: المزامير ٦٠: ٣.

نفسه كان مجهزا لكل الشعوب **(ويل لمن يسقى صاحبه سافحًا حُموَّك ومسكرا أيضا للنظر إلى عوراتهم).**[٤٦٦]

وقال حبقوق أيضا: **(قد شبعت خزيا عوضا عن المجد، فاشرب أنت أيضا واكشف غرلتك، تدور إليك كأس يمين الرب، وقياء الخزى على مجدك. لأن ظلم لبنان يغطيك واغتصاب البهائم الذى روعها لأجل دماء الناس وظلم الأرض والمدينة وجميع الساكنين فيها).**[٤٦٧] لقد أظهر النبى أن الكأس الأولى التى تجرعتها الأرض وسكانها فى العام الماضى كانت من أيدى الرب، عندما أنذر وقال: "إن كأس يمين الرب ستغطيك والخزى سيمحو نصرك". **(ويكون مقْدِسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبَيْتَىْ إسرائيل وفخًا وشركا لسكان أورشليم).**[٤٦٨] إن هذا قد تحقق فى موسى، فمن كانوا يستقبلونه جلبوا على أنفسهم الغضب، والذين لم يستقبلوه السيف، من كل جانب كان العذاب يحيط بهم.

عاد كما سبق أن ذكرنا ووضع الرب عقبات عن طريق وسيطه وذلك لكل الشعوب، فأرهقهم بالبرد والجليد والثلج والصقيع، لدرجة أنهم لم يتمكنوا من الخروج والهروب من أمامه، بسبب قسوة البرد. إذا نجح أحد منهم فى الهروب يرجع فورًا وسريعًا دون أن يذهب خلفه أحد، مثل الذى كان فى السجن ثم خرج ملهوفا إلى مسكنه **(إن نقبوا إلى الهاوية فمن هناك تأخذهم يدى وإن صعدوا إلى السماء فمن هناك أنزلهم).**[٤٦٩]

لقد تنبأ الرب بما كان يجب أن يحدث لنا، عندما عاد موسى زأر كالأسد المنقض على فريسته، بحث فوجد رجالا أقوياء دون رحمة فعينهم حكاما فى بلادهم. كان هذا ضد مصلحة الأهالى الفقراء لأنهم لم يتمكنوا من

---

(٤٦٦) العهد القديم: حبقوق ٢ :١٥.
(٤٦٧) العهد القديم: حبقوق ٢: ١٦/١٧.
(٤٦٨) العهد القديم: إشعياء ٨ : ١٤.
(٤٦٩) العهد القديم: عاموس ٩: ٢.

مغالطة الحاكم الذى كان أصلا من المنطقة، ولم يكن يخفى عليه شىء، فاختارهؤلاء بدورهم نبلاء المدينة والمنطقة وتعاونوا معًا. منذ ذلك الوقت كرسوا أنفسهم علنًا للصوصية هم والحاكم، ولم يطلب منهم أحد حسابا.

لقد كان الفقراء فى حالة حزن عميق، فضعفت أيديهم وارتعبت قلوبهم وتمزقت صدورهم، عندما علموا بوصول هذا الآثم وضاع أملهم. **(لأنه مثل خبزى يأتى أنينى ومثل المياه تنسكب زفرتى. لأنى ارتعابا ارتعبت فأتانى والذى فزعت منه جاء على. لم أطمئن ولم أسكن ولم أسترح وقد جاء الرُجز).**(٤٧٠) هكذا قال أيوب.

لقد عينهم حكاما، واحدًا لكل بلدة، كان هناك الكثيرون مع هذا الرجل. إن ابتزازاتهم قد فاقت الضرائب التى كانوا يفرضونها، لأنهم كانوا لصوصًا وأشرارًا وقطاعَ طرق. لقد اختار هؤلاء الرجال قضاة ليعينوهم. إنه مكتوب **(الحاكم المصغى إلى كلام كذب كل خدامه أشرار).**(٤٧١)

لذلك كانوا يرتكبون ابتزازاتهم بعنف مع الأهالى المساكين، وكذلك ضربات وصفعات وحشية. كانوا ينالون مكافأة أكثر من نصف الذى سلبوه، ثم يعودون مرة أخرى ويأخذون عددا من الزوازى لمجهوداتهم. كانوا يجبرونهم على بيع خيراتهم ليؤدوا الضحية، فكانوا يبيعونه ويأخذونه مكافأة. هكذا ملأوا منازلهم بخيرات اليتامى والأرامل، وباعوا أيضا أغنامهم وأبقارهم وكل ما كانوا يملكون. أحيانا كان أحدهم يذهب إلى مكان لا يوجد به شىء فيبدأ فى طلب مكافأته، ثم يقوم بتهديد الأهالى ويبيع خيراتهم. هل سنجد شخصا أكثر وحشية من هذا؟ **(رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لايقضون لليتيم ودعوى الأرملة لاتصل إليهم).**(٤٧٢)

---

(٤٧٠) العهد القديم: أيوب ٣: ٢٤/٢٥/٢٦.
(٤٧١) العهد القديم: الأمثال ٢٩: ١٢.
(٤٧٢) العهد القديم: إشعياء ١: ٢٣.

كانوا يطلبون بقسوة من هؤلاء المساكين ثلثًا أو ثلثين، وكانوا لايعرفون لا بداية ولا نهاية. كانوا لا يخبرون أحدا بما كانوا يحملون، كنا نجهل ما كانوا يأخذون أو ما كانوا يتركون. كانوا يتصرفون كاللصوص والأشرار وكقطاع الطرق، فقد احتجزوا نبلاء المدينة وأحرارها وباعوا بهائمهم مع كل ما كانوا يملكون. كانوا يبيدونهم ويفنوهم من على وجه الأرض، كان لا يكفيهم أن يأخذوا كل ما كانوا يملكون، بل كانوا يطلبون منهم أيضا ما لم يكونوا يملكون.

لقد عين ولاة من أجل الضرائب العديدة لصدقة المال للعرب، وكان هؤلاء يطلبونها عدة مرات. لقد جعلوهم يدفعون الضرائب القديمة، فمن كان مفروضا عليه عشرة زوازٍ كانوا يطلبون منه ثلاثين وأحيانا أربعين. كانوا يختلقون باسم رؤسائهم ضرائب خارجية يفرضونها على السائرين في الطرقات خارج البلاد، وحدث أنهم كانوا يضربون الأغراب المعينين في البلدة ويدعونهم "حديثي العهد بالإسلام وكذلك بالمسيحية"، لأنهم لم تكن تقلقهم مصلحة الإسلام، ولكن ما يهمهم هو إشباع طمعهم وجشعهم. كانوا يحددون ويفرضون الضرائب دون رحمة على البلد وعلى حقول العرب دون أن يعرفوا قيمة المحاصيل.

كان ذلك أساس المساوئ، ثم أضاف عليه الحكام وكذلك رؤساء المناطق والرسل والولاة.

فى الحقيقة إن اللصوصية وعدم الرحمة والغش والخداع كانت تهيمن عليهم جميعا دون فرق، فقد تحدث النبى إشعياء عن هؤلاء الناس عندما قال: **(من أطراف الأرض سمعنا ترنيمةً: مجدًا للبار، فقلت: يا تلفى يا تلفى، ويل لى، الناهبون نهبوا الناهبون نهبوا نهبا. عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض. ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط فى الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ، لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس**

الأرض تزلزلت. انسحقت الأرض انسحاقا، تشققت الأرض تشققا، تزعزعت الأرض تزعزعا. ترنحت الأرض ترنحا كالسكران وتدلدلت كالعِرْزال وثقل عليها ذنبها فسقطت ولا تعود تقوم)،[٤٧٣] كانوا يمارسون الظلم دون حياء، لقد ثارت الأرض وانقلبت وانتقل الناس من بلدة إلى بلدة ومن مكان إلى مكان وازداد ظلم الناس (وكما يكون الشعب هكذا الكاهن، كما العبد هكذا سيده، كما الأمة هكذا سيدتها، كما الشارى هكذا البائع، كما المقرض هكذا المقترض وكما الدائن هكذا المديون).[٤٧٤]

وقد قال إشعياء أيضا بخصوصهم: (هوذا الرب يخلى الأرض ويفرغها ويقلب وجهها ويبدد سكانها. وكما يكون الشعب هكذا الكاهن، كما العبد هكذا سيده، كما الامة هكذا سيدتها، كما الشارى هكذا البائع، كما المقرض هكذا المقترض وكما الدائن هكذا المديون. تفرغ الأرض إفراغا وتنهب نهبا لأن الرب قد تكلم بهذا القول. ناحت ذبلت الأرض، حزنت ذبلت المسكونة، حزن مرتفعو شعب الأرض. والأرض تدنست تحت سكانها لأنهم تعدوا الشرائع غيروا الفريضة نكثوا العهد الأبدى).[٤٧٥] لقد قال الشيطان لمريديه: "إن عينى تراهم". قال لأعوانه: "اتبعوه واقبضوا عليه".

لن يثور أحد ولن يهرب أحد من الكفر كبيرًا كان أم صغيرًا، لقد نصب شبكته فوقع فيها كل أبناء آدم. إن يده مثل العش قد تجمعت فيه كل الشعوب. إن أحدًا سواء كان أسقفًا أو قِسًّا[٤٧٦] أو حاكمًا لم يكن معصومًا من الخطيئة أو من الكارثة أو من النهب أو من الوشاية أو من الإهانة أو من اللعنة أو من الحقد أو من الثرثرة أو من اللصوصية أو من الزنا أو من

---

(٤٧٣) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٦/١٧/١٨/١٩/٢٠.
(٤٧٤) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٢.
(٤٧٥) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١/٢/٣/٤/٥.
(٤٧٦) القس كلمة آرامية (قشيشا) معناها "الشيخ". ولما كان الكهنة فى صدر النصرانية ينتخبون من بين الشيوخ لاتصافهم بالحكمة والخبرة دعى الكاهن قسًّا أو قسِّيسًا. (تاريخ الأمم والملوك ج٩ ص٢٣٩)

انتهاك حرمات القبور. إن كل بذور الشيطان من الآن مزروعة في كل الرجال، كل واحد كان مضطرًا أن يفعل الشر وفقا لترتيبه ولقدرته.

عند رؤية تلك الأشياء قال النبى: **(لذلك لعنةٌ أكلت الأرض وعوقب الساكنون فيها، لذلك احترق سكان الأرض وبقى أناس قلائل. ناح المسطار ذبلت الكرمة أنَّ كلُ مسروري القلوب. بطل فرح الدفوف انقطع ضجيج المبتهجين بطل فرح العود. لايشربون خمرا بالغناء، يكون المسكر مُرًّا لشاربيه. دمرت قرية الخراب، أغلق كل بيت عن الدخول. صراخ على الخمر فى الأزقة، غرب كل فرح، انتفى سرور الأرض).**[٤٧٧] لقد ذهب الفرح وتوقف الرقص، وبدلا منهما كان البؤس والحزن والمرارة.

لم تصل إلينا تلك الأشياء عن طريق السمع، ولكننا نراها أمام أعيننا. لقد تبادل الناس معا العذاب، وقد تمكنوا من مهاجمة الأساقفة والمنعزلين والعموديين، وأنزلوا الكثيرين من فوق أعمدتهم وأخرجوهم من صوامع اعتزالهم. إن القسس الذين كانوا يعيشون بعفة وطهارة فى المجتمعات التقية للأبرشيات والأديرة كانوا يقاسون أكثر من الاضطهاد والتعذيب والضربات العنيفة، بسبب ابتزازات هؤلاء القضاة، فليعلم الذى يقرأ ويفهم أننا لم نر فى العالم تعذيبًا أشد قسوة من ذلك الذى حدث فى ذلك العام. لو لم تختلط الأمور لدرجة أن كل الشعوب قد ظُلمت وتعذبت أكثر من كل الشعوب السابقة لكنت قد مجدت شهداء اليوم، فلو كان أحد يملك شيئا ويريد الهروب لكان يظل محبوسا كما لو كان فى أغلال، حتى يصبح خاليا من كل شيء ولا يبقى له شيء، وبمجرد أن يصبح خاليا من كل شيء كان يستطيع الهرب، ولكن ما لم يكن يمتلك شيئا لا يستطيع ذلك سبيلا. فإذا هرب فإن الطريق نفسه ينهبه، وإذا حدث أن وضع شيئا فى الأرض فإن المكان نفسه يعلنه: "هذا خير فلان فاحضر وخذه". وإذا أسلم أحدًا وديعة يكون هذا مغتصبه، ويأخذ خيره بدلا من اللصوص وقطاع الطرق.

---

(٤٧٧) العهد القديم: إشعيا ٢٤: ٦/٧/٨/٩/١٠/١١.

بهذا الشأن قال النبى عوبديا: **(إن كنت ترتفع كالنسر وإن كان عشك موضوعا بين النجوم فمن هناك أحدرك يقول الرب)**،[٤٧٨] ويقول أيضا: **(كيف فُتِّش عيسو وفحصت مخابئه؟)**.[٤٧٩] كان يجب أن تعرف كيف أن ما كان يخبئه شخص يصبح واضحًا جليًا. وقد قال هوشع أيضا: **(جاءت أيام العقاب، جاءت أيام الجزاء، سيعرف إسرائيل، النبى أحمق، إنسان الروح مجنون من كثرة إثمك وكثرة الحقد)**،[٤٨٠] وأيضا: **(أفرايم منتظر عند إلهى، النبى فخ صياد على جميع طرقه، حقد فى بيت إلهه)**،[٤٨١] الحقد قد تضاعف بين الجميع، بالإضافة إلى الكذب والظلم والمحاباة.

(لأن شعبى أحمق، إياى لم يعرفوا، هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين، هم حكماء فى عمل الشر ولعمل الصالح ما يفهمون. نظرت إلى الأرض وإذا هى خربة وخالية وإلى السموات فلا نور لها)،[٤٨٢] قال إرميا: كل الأرض كانت خربة وانقلبت رأسا على عقب، وكسى سطحها ظلمات المعاصى والظلم. لقد بيعت كل مواشى المنطقة، كما يقول لنا النبى ناحوم: **(أكثرتِ تجَّارك أكثر من نجوم السماء، الغوغاء جنحت وطارت)**.[٤٨٣] إن تجار الماشية أصبحوا أكثر عددًا من نجوم السماء كما قال لنا النبى ناحوم. كنا نبيع دابتين مليئتين أو ثلاثًا بزوزا واحد، ونفس العدد من الغنم، والبقرة بزوزا والحمار بزوزا والبغل بعشرة، وكل ما بقى من هذه الدواب كان يذهب هباء. إن ممتلكاتهم الثمينة والقيمة التى نهبها القضاة كانت أيضا تباع مقابل لا شىء، فالشىء الذى كان يساوى عشرين زوزا أو ثلاثين كان يباع باثنين أو ثلاثة.

---

(٤٧٨) العهد القديم: عوبديا ١: ٤.
(٤٧٩) العهد القديم: عوبديا ١: ٦.
(٤٨٠) العهد القديم: هوشع ٩: ٧.
(٤٨١) العهد القديم: هوشع ٩: ٨.
(٤٨٢) العهد القديم: إرميا ٤: ٢٢/٢٣.
(٤٨٣) العهد القديم: ناحوم ٣: ١٦.

عندما دمرت المنطقة كنا فى بداية أيام الصوم الكبير المقدس، وبدأنا فى الأسابيع المسماة "السعادة"، والتى لن نسميها نحن السعادة ولكن نطلق عليها المرارة والحزن والقلق، لأن الكارثة أصبحت أعظم من باقى السنة.

إن الكارثة امتدت طيلة الصوم الكبير المقدس حتى الأحد "**الجديد**".(٤٨٤) لم يكن هناك لا عيد ولا يوم أحد... لم نقم بالصلوات التى كانت عادتنا القيام بها أيام الصوم والشعانين، وحتى أيام الآحاد. لقد نزع المسيحيون كل الأدوات الحديدية والخشبية من منازلهم وباعوها، فقد انتزعوا الأبواب وباعوها منتظرين الفرج، وأخيرا انتزعوا حتى العوارض الخشبية لمنازلهم وباعوها، ثم تركوا أنقاض مساكنهم وذهبوا عراة ينتقلون من بلدة إلى بلدة ومن مكان إلى مكان. إنه هنا الذى يجب أن نقول مع النبى إرميا: (**لذلك، هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم. وأبددهم فى أمم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم السيف حتى أفنيهم**).(٤٨٥) وقال إشعياء أيضا: (**ويكونون كظبى طريد وكغنم بلا مَن يجمعها، يلتفتون كل واحد إلى شعبه ويهربون كل واحد إلى أرضه**)،(٤٨٦) وأيضا: (**بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ البوم بيوتهم وتسكن هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحش. وتصيح بنات آوى فى قصورهم والذئاب فى هياكل التنعم ووقتها قريب المجىء وأيامها لاتطول**).(٤٨٧)

إننا يجب ألا نقول فقط: (**انقطعت التقدمة والسكيب عن بيت الرب، ناحت الكهنة خدام الرب**)،(٤٨٨) وقد انتزعت الكتب من الكنيسة وتم بيعها، أما

---

(٤٨٤) الأحد الجديد: هو أول أحد بعد عيد شم النسيم عند السريان.
(٤٨٥) العهد القديم: إرميا ٩: ١٥/١٦.
(٤٨٦) العهد القديم: إشعياء ١٣: ١٤.
(٤٨٧) العهد القديم: إشعياء ١٣: ٢١/٢٢.
(٤٨٨) العهد القديم: يوئيل ١: ٩.

الباقى فقد أحرق فى النار، وأيضا آنيتهم المقدسة قد تحطمت، وخربت حدائق الكروم وقطوف العنب (**ناح المسطار ذبلت الكرمة أنّ كلُ مسروري القلوب**).[489] لقد أنبتت الحقول أشواكًا وعليقًا، وأشجار تين قد يبست وذبلت، وكذلك أشجار الزيتون والرمان ونخيل البلح وأشجار التفاح، لذلك اختفت الفرحة من بين الناس، فقد هرب العمال وأصبحت منازلهم مأوًى للحيوانات المتوحشة.

عن الكارثة التى تحملها سكان القرى نتيجة للسلب، وعن المساوئ التى ارتكبها الفلاحون أنفسهم

لم نشأ أن نترك هذا خارج النص الحزين الملىء بالحسرة والألم القاسى. لقد قلت فيما سبق إن تعيين الحكام الأصليين فى البلاد كان أكثر ضررًا من كل المساوئ السابقة واللاحقة، ولما كان جشع الحاكم الشخصى لا يكفى فقد اختار كل حاكم مساعدين له من الأشخاص الأكثر وحشية والأكثر بؤسا، والذين لم يتركوا ولو مسمارا فى الحائط دون أن ينزعوه، لأنهم كانوا جشعين كذئاب الليل. كانوا لا يملكون شيئا، وفجأة هنا امتلكوا ثروات عن طريق اللصوصية بمشاركة حكامهم. هؤلاء الذين كانوا سفاحين وقطاع طرق وسكارى وملحدين وناهبى الكمائن ليلا وناهبى المنازل، اليوم هم الذين أصبحوا حكاما. انظروا يا إخوانى عمل المعاصى وبين أيدى من كانوا يلقون بهم؟ هكذا قيل "إن الشرير سيعاقب بالشر"... ها هنا بين أيدى من ألقت بنا سيئاتنا، وماذا فعل بنا هؤلاء الجشعون الذين لارحمة لهم؟

وعند جمع الضريبة وكثير غيرها كانوا يطالبون بأكثر من القيمة بكثير، فباعوا كل ما كان يملكه الرجال وأخذوا الثمن. لم يكونوا يفرضون الضريبة المطلوبة فقط فى مكان ما، ولكن كانوا يفرضون نفس الضريبة لعدة

---

(٤٨٩) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ٧.

مرات. لم تكن هناك بداية ولا وسط ولا نهاية لابتزازاتهم. كانوا ينقضون على المدن قائلين: "إن نصيب تلك البلدة كذا وتبقى عدة آلاف من الدنانير لدفعها". ويذهبون لفرضها من جديد، ولما كانوا يحصلون على المبلغ بالقوة كانوا يبدأون من جديد فى طلبها. لم يستطع أحد أن يتكلم، لأن الجميع كانوا يخشون أن تفرض عليهم ضريبة إضافية من الحاكم. كانوا يقبضون على النبلاء ويستنزفونهم دون رحمة، لدرجة أنهم أهلكوا وأبادوا الكثيرين.

إن الفلاحين أنفسهم قد ساعدوا الأشقياء، فكانوا يهاجمون الرجال، فيحملون ويبيعون كل ما كانوا يمتلكون، وكانوا يقولون كذبا: "إن لديك فى بلدتنا كرمة أو حديقة أو غابة أو حقل زيتون". أو: "إنك أجبت بدلا من شخص". أو: "إنك خاضع عندنا للضريبة، وها هى عدة سنوات لم تدفع الجزية، ادفع الآن".

لتلك الأسباب ولأسباب أخرى مماثلة قبض أهل القرى على الرجال المساكين ونهبوهم. لقد علمهم الحاكم نفسه أن يتصرفوا هكذا، فكان يساعدهم ولا يحاسبهم على أفعالهم. كانوا ينقضون على عابر سبيل يقبضون عليه، ثم يثيرون ضده شهود زور يقولون: "إن فلانًا متضامن لجزيتنا". وكان يؤكد بأدلة: "لم أر فى حياتى هؤلاء الرجال ولا هم قد رأونى من قبل". وكان هؤلاء يقولون: "إنه متضامن لجزيتنا". فكان يوجد بينهم شهود زور، كانوا يتحاملون عليه، وهكذا كانوا يبيعون ماشيته وخيراته وكل ما كان يملك. كانوا يمرون فى المدن كالكلاب التى تقتفى أثر أصحابها فى الأرض، كالحيوانات أو الأغنام. كانوا يستفسرون عن كل من كان عنده أمانة، سواء كانت قمحًا أو حديدًا أو أىَّ بضاعةٍ أخرى، ويأخذونها منه. كانوا يتجولون فى المدن فى جماعات مراقبين رجلا وقائلين: "إن فلانًا هذا منا". إن الذى يهرب من واحد كان يقع فى يد آخرين يقودونه بدورهم إلى آخرين، وإذا حدث أنه كان يخبئ شيئا، سواء فى الأرض أو عند أحد، كان المكان نفسه

يصرخ كالمرأة الحامل التى أصابتها آلام الوضع، إنه فى تلك الحالات أو فى حالات مماثلة أو حالات مشابهة أمضى الأهالى الأيام المقدسة للصوم الكبير.

فلنرجع الآن إلى الأضرار الأخرى التى ارتكبها القرويون فيما بينهم، **(يذهبون من قوة إلى قوة، يُرَون قدَّام الله فى صهيون)**،[٤٩٠] ونحن سننتقل من سوء إلى سوء **(لأنه أمر على أمر، أمر على أمر، فرض على فرض، فرض على فرض، هنا قليل هناك قليل)**،[٤٩١] **(ولا يضعف قلبكم فتخافوا من الخبر الذى سمع فى الأرض فإنه يأتى خبر فى هذه السنة ثم بعده فى السنة الأخرى خبر وظلم فى الأرض، متسلط على متسلط)**.[٤٩٢]

عن المرارة التى عانى منها الرجال، وعن النهب الذى مارسه القرويون بعضهم ضد بعض

(لأن السيدرب الجنود يصنع فناء وقضاء فى كل الأرض)[٤٩٣] فقد تمكنا من أن نرى خراب كل شيء. إن غضب الرب لم يبتعد أيضا عنا لأننا لم نتوقف عن ارتكاب العديد من المعاصى، ولكن من يوم إلى يوم نضيف إلى أخطائنا، كالرجل الذى فرض عليه حمل ثقيل، وبدلا من أن يخفف منه على العكس يضيف عليه. لقد سخط الرب علينا، ولكننا داومنا على عمل الشر، ولهذ صرخ فينا إرميا قائلا: **(ثم قال الرب لى: وإن وقف موسى وصموئيل أمامى لاتكون نفسى نحو هذا الشعب. اطرحهم من أمامى فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك: إلى أين نخرج؟ أنك تقول لهم: هكذا قال**

---

(٤٩٠) العهد القديم: المزامير ٨٤: ٧.
(٤٩١) العهد القديم: إشعياء ٢٨: ١٠.
(٤٩٢) العهد القديم: إرميا ٥١: ٤٦.
(٤٩٣) العهد القديم: إشعياء ١٠: ٢٣.

الرب الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبى فإلى السبى، وأوكل عليهم أربعة أنواع، يقول الرب: السيف للقتل والكلاب للسحب وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك).[٤٩٤]

الآن طردنا الرب من أمامه، ولم يتمكن القربان ولا التكفير ولا الرجال العادلون الموجودون بيننا من مصالحة الرب معنا، ولكنه خرب البلاد، فخرج الأهالى من منازلهم، وانقض عليهم الكلاب لتقطيعهم والطيور لافتراسهم دون رحمة. إن هؤلاء الناس كانوا أسوأ من الكلاب والطيور، لأنهم عندما أكلوا وأشبعوا غليلهم لم يتوقفوا عن التخريب، بخلاف ذلك الحيوان لا يفترس ولا يطحن ولا يوطئ بقدمه ما تبقى. على العكس، تلك الحيوانات المفترسة قد التهمت فأشبعت غليلها وحملت معها إلى مأواها ما تبقى.

إن هذا لا يكفى كل السيئات التى سردناها، بل يجب أن نضيف عليهم هذا، عندما سددت الضرائب تقريبا بأكملها جاء رجل قاس يدعى "رازين" سبق أن تحدثنا عنه فيما سبق، جاء إلى آمد إلى أرزون[٤٩٥] وإلى ميافرقاط. فى آمد بين أهالى البلدة كان يوجد رجال محتقرون وبخلاء...أرزون...فى ميافرقاط...[٤٩٦]

عندما رأى المساكين أن تلك اللصوصية الواضحة لم تتوقف، وأن هؤلاء المبتزين لم يكن لديهم خوف من الرب أو خشوع، وأن مصدر كل المساوئ لم يطلب منهم حسابا عن الآثام التى ارتكبوها فى المنطقة، ثاروا وقالوا: "لقد أعطينا لنا ولجيراننا، لقد دفعنا جزيتنا وأيضا تلك التى لم تكن

---

(٤٩٤) العهد القديم: إرميا ١٥: ١/٢/٣.

(٤٩٥) منطقة كانت تمتد من نهر دجلة الشرقى إلى مياه "بطمان"، ومن سعرد إلى ميافارقين، وأشهر مدنها أرزون وسعرد، فكانت أرزون بين سعرد وميافارقين، وترى خربها الآن فى مكان يقال له "خراب بازار"، أى المدينة الخربة، وتبعد نحو عشر ساعات عن سعرد. (أول نصارى بغداد ص٤٢)

(٤٩٦) هنا فقرة كبيرة مفقودة فى المخطوطة.

مفروضة علينا. متى إذن سيشفون غليلهم من لحومنا؟ لن نعطى شيئا لأننا لانعلم من أين نأخذ وماذا نعطيهم".

عندما سمع الحاكم ذلك ضرب كفيه وصك أسنانه، وكالأسد أصبح محبا لسفك الدماء. لقد جمع ضدهم كل لصوص مدنهم وسفاحيها، وأرسل معاونه ومعه مجرمين ودمويين، ومعه نبلاء المدينة وفلاحين فاسقين، ودون رحمة جمع هذا من بين القرويين جماعة غفيرة العدد مسلحة بالرماح والقلاع وتقدم نحوهم. لقد ارتكب مزارعو المنطقة كثيرًا من الأذى لكل المجرمين واللصوص الموجودين بينهم، وجعلوا إخوانهم يعانون كثيرًا من الأذى، لدرجة أن اللسان غير قادر على سردها.

المنطقة التى ثارت كانت تقع فى الجبال فى المنطقة الشمالية للمدينة، وكانت تدعى "تونس"، فكان شعبها يتكون من سوريين وأُرتيين، كانوا يتقاسمون المنطقة، أى أرمينيا الرابعة. كانت توجد فى تلك المنطقة الأماكن التى تنتج الرصاص والفضة وركائز أخرى من حديد، وبسبب الكارثة الكبيرة التى حلت فى كل البلاد اجتمع عدد كبير من الرجال فى هذا المكان، حيث كان يوجد الرصاص، حتى أصبح المكان مخيما، ولدرجة أن الملك نفسه قد عين حاكما فيه. لقد اجتمع الرجال فى هذا المكان من كل فج، وشقوا خنادق كبيرة وعميقة للبحث عن الرصاص.

وقد اتجهت قوات الفلاحين إلى المكان الذى حددناه. لقد أرادوا أن يفرضوا عليهم الضريبة، ولكن الحكام الفرس لم يستجيبوا. كانوا يقولون "إن معظمهم كانوا من بلدكم. إنهم يدفعون الجزية والضريبة". ولكن هؤلاء لم يستسلموا فاستعدوا للقتال بضراوة، ولنهب كل ما كان يملكه غيرهم. لقد أعطى الفرس الأمر لساكنى المخيم أن يستعدوا لمهاجمتهم، ولمنعهم من الدخول عندهم إذا لم يكونوا يريدون أن يقتلوا. عندما انقض عليهم الذين لم يكونوا من المخيم وبدأوا فى قتلهم فإن الذين كانوا يعملون فى الرصاص ولوا الأدبار فى وجود السيف.

ولما كنا لا نزال فى الشتاء فقد كان يوجد فى تلك المنطقة جليد كثيف. كان الثلج على منافذ الخنادق، والحفر كانت مملوءة بالمياه بسبب الثلوج التى لم تكن ظاهرة. لقد وقع الكثيرون فى تلك الخنادق عند هروبهم، ومعظمهم اختنقوا وهلكوا دفنًا تحت الثلج فى قيعان تلك الحفر. لقد قتلوا الكثيرين أيضا بحد السيف، لم يعفوا عنهم ونهبوهم، وفى النهاية نجد أنهم قد سلبوا كل المخيم.

فليأتِ إذن النبى إرميا شخصيًّا، وليقل بهذا الشان: **(فتح كل أعدائنا أفواههم علينا. صار علينا خوف ورعب وهلاك وسحق. سكبت عيناى ينابيع ماء على سحق بنت شعبى. قد اصطادتنى أعدائى كعصفور بلا سبب. قرضوا فى الجب حياتى وألقوا علىَّ حجارة. طفت المياه فوق رأسى، قلت: قد قُرضت)**،[497] فليضف أيضا ما قد قيل: **(ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط فى الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ، لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت)**،[498] لم ينقص أى شىء من هذا هنا. إن المسيحيين لم يرأفوا حتى بزملائهم الذين كانوا قد اختنقوا أو قتلوا، ولم يسحبوهم حتى لدفنهم، وإذا حدث بالصدفة أن سحبوا أحدًا يكون ذلك بسبب سلخه من ملابسه ويتركونه عاريًا فى قاع الخندق.

أما عن السيئات التى ارتكبوها فى تلك المنطقة فإنه من الأفضل عدم التحدث عنها، أولا لأنه ربما لن يصدقنا أحد بسبب مكرهم، ثانيا خوفًا من أن يعرف الملحدون ولا يقولوا إن المسيحيين لايخشون الرب أبدا، لأن أفعالهم أسوأ من أفعال المجوسيين، لذلك ومن أجل إظهار ما هى الأسباب التى أدت بنا إلى تلك الكارثة، لكى يأخذ الذين يرون أعمالنا حذرهم، وأيضا لإظهار رحمة الرب التى تتحمل بصبر إثارتنا وكثرة جشعنا فسوف نقول شيئا.

---

(٤٩٧) العهد القديم: مراثى إرميا ٣: ٤٦/٤٧/٤٨/٥٢/٥٣/٥٤.

(٤٩٨) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٨.

لقد تقدموا إذن نحوهم، وبسبب الثلج الغزير الموجود على الأرض لم يتمكنوا من الهرب، وإذا حدث أن هربوا يذهب البعض على أثرهم ويجدونهم ويلقون بهم فى الثلج، هم وخيراتهم وزوجاتهم وأولادهم. هؤلاء ارتعدوا وأصبحوا كالحين كالملح بسبب قسوة البرودة، وبدلا من أن يرحموهم نهبوا الرجال والنساء والأطفال وتركوهم عراة دون ملابس ودون أحذية، فقد خلعوا عنهم أيضا سراويلهم، ولم يخشوا أن يكشفوا الطبيعة. لقد ارتكبوا أيضا دون خجل أعمال فجور مع نسائهم وبناتهم فى وجودهم كلهم. إن الآثم الذى كان على رأسهم حكم أن كل ما يستولى عليه رجل فإنه يكون ملك ذلك الرجل، لدرجة أنه هو نفسه وهؤلاء اللصوص الذين انضموا إليه وجاءوا معه استطاعوا تلبية رغبتهم وتنفيذها وغصبهم:

كان الفلاحون ورؤساؤهم أكثر صلابة من الوثنيين، ولم تكن لديهم أدنى رحمة بإخوانهم، لقد اقترفوا جشعهم فى هؤلاء الذين كانوا محترمين فى نظر الجميع. إن قطاع الطرق قد حطموا كل الأشياء التى كان يستخدمها الرجال، لقد حطموا بالنار ما كان من خشب، كسروا ذلك الذى فى الأرض، أخذوا لأنفسهم البرونز والحديد، لم يتركوا فراشًا ولا بابًا ولا آنيةً ولا حوضًا دون أن يحطموها بالنار. لقد حطموا الأوانى والحلل والجرَّات، وقد شربوا نبيذا كان موجودا بقدر ما استطاعوا وسكبوا الباقى على سطح الأرض. إذا حدث أن دفن وعاء فى باطن الأرض ولم يتمكنوا من تحطيمه فيمسك أحدهم رمحه ويثقب القاع، فيندلع النبيذ فى باطن الأرض، وفعلوا نفس الشىء مع العسل، فقد أكلوا على قدر ما استطاعوا وسكبوا الباقى على الأرض، وحطموا خلايا النحل، غمسوها فى الماء حتى يبيدوها كلها. كانت لديهم الجرأة أن يفعلوا ذلك، وفقا لنصيحة الشيطان الذى خطط لهم الطريق، ليصبحوا أسوأ من الوثنيين الموجودين بينهم، تجرأوا أن يأكلوا لحمًا وجبنًا أثناء أيام الصوم المقدس، وعملوا أعمالاً أخرى كثيرة محرمة. وحدث أنه عندما وصل إلينا ما كانوا قد قاموا به تجاه إخوانهم أن غرقنا فى حزن عميق ودموع وأسى، وقد اندهشنا عندما رأينا إلى أى درجة أغوى الشرير الرجال.

لقد تجرأوا أيضا على أن يهاجموا الكنيسة التى نهبوها، فقد أخذوا كتبها وكل أشياء العبادة المقدسة، ولما كانوا قد حبسوا زوجاتهم فى الكنائس فقد دخل الوثنيون بأنفسهم واعتدوا عليهن فى وسط المعابد. إنه هنا يجب أن نبكى مع إرميا ونقول: **(وقد خرج من بنت صهيون كل بهائها، صارت رؤساؤها كأيائل لاتجد مرعى فيسيرون بلا قوة أمام الطارد. طرق صهيون نائحة لعدم الآتين إلى العيد، كل أبوابها خربة، كهنتها يتنهدون، عذاراها مذللة وهى فى مرارة. نجاستها فى أذيالها، لم تذكر آخرتها وقد انحطت انحطاطا عجيبا، ليس لها مُعزٍّ، انظر يا رب إلى مذلتى لأن العدو قد تعظم. بسط العدو يده على كل مشتهياتها فإنها رأت الأمم دخلوا مقدِسها الذين أمرت أن لا يدخلوا فى جماعتك)**،[٤٩٩] **(قد صار ميراثنا للغرباء، بيوتنا للأجانب)**[٥٠٠] تلك الكوارث حدثت فى تلك المنطقة، لقد قادوا الرجال مكبلين مثل القتلى، جمعوا كل غنائمهم وقادوهم معهم. لقد جابوا كثيرًا من القرى طاردين الفلاحين ناهبين وساحبين الأهالى.

ذهب رازان إلى أرزون وإلى ميافرقاط، وعندما رأى لصوصية حكام تلك البلاد قادهم إلى عذاب عظيم وإلى تعذيب قاسٍ **(ففى الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعط المجد لله، فصار يأكله الدود ومات)**،[٥٠١] حطم أيديهم وقيد أرجلهم بالأغلال، وحمل كل ما كانوا قد نهبوه. لقد سلمهم الرب إلى أيدى هذا المجرم الآثم، وكل الفواحش التى كانوا قد ارتكبوها وقعت عليهم أنفسهم. كنا نقول عنهم إنهم كانوا يحتجزون فى الشوارع شبابًا جردًا وكانوا يدنسونهم.

(٤٩٩) العهد القديم: مراثى إرميا ١: ٦/٤/٩/١٠.
(٥٠٠) العهد القديم: مراثى إرميا ٥: ٢.
(٥٠١) العهد الجديد: أعمال الرسل ١٢: ٢٣.

إن الكتاب والعرافين الظالمين الذين كانوا مسيحيين كانوا يأخذون ويقودون دون خجل شابات، سواء من بنات الشعب أو بنات النبلاء فيقومون بتدنيسهن. فى الحقيقة لم يخجلوا مطلقًا ولم يكونوا يعرفون أى حدود جعلتهم يهاجمون عرائس المسيح، لقد سلمهم الرب إلى أيدى من هو أظلم منهم: "إن الشرير ينتقم من الشرير والرب من الاثنين".

عندما رأى هذا أعمالهم الشريرة أحضرهم فثقب أنوفهم ووضع لكل منهم لجامًا مثل الجمال، وعمل لهم ثقبًا فى الجبهة بين العينين، وعلق به ألواحًا وربطهم بسلاسل، وكانوا يسحبونهم منها ...هذا...[٥٠٢] كان يسلمه إلى الخادم لكى يدور به بسخرية فى الساحة العامة، ثم يلقى بهم فى السجن. كان لايعطى لهم الخبز أبدًا إلا ليظلوا على قيد الحياة. لقد كانت تتصاعد من كل مكان فى المنزل - حيث كانوا محتجزين - رائحة عفونة أسوأ من رائحة المقبرة. لقد لاحظت بعض تلك الأشياء، فعند رؤيتها يضع الرؤساء الرب أمام ضمائرهم، حتى لايتصرفوا وفقًا لرغباتهم مخالفين للنزاهة، وحتى يعلموا أن هناك قانونًا حتى بالنسبة لمن يسن القانون، وليفهموا أن الأمير الذى يتصرف بطريقة غير قانونية يفقد سريعًا لقب أمير، ويحصل بدلا منه على لقب طاغية، اللقب الملىء بالعار.

عن المجاعة التى تفشت بين البشر، وعن الأمراض الوحشية، وعن الطاعون العظيم الذى حل فى ذلك العام

إنه مكتوب فى النبى: **(لذلك، هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم. وأبددهم فى أمم لم يعرفوها**

(٥٠٢) الجملة هنا ناقصة فى المخطوطة.

هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم السيف حتى أفنيهم)،[٥٠٣] **(لذلك، هكذا قال رب الجنود عن الأنبياء: هأنذا أطعمهم أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم لأنه من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق فى كل الأرض)،**[٥٠٤] **(وأرسل عليهم السيف والجوع والوبأ حتى يفنوا عن وجه الأرض التى أعطيتهم وآباءهم إياها).**[٥٠٥] كل تلك الأشياء التى تنبأ بها النبى حدثت، وليس أقل ولكن أسوأ.

لقد حدث خراب عظيم فى بلاد الجنوب بسبب الجفاف الذى تحدثنا عنه فيما سبق، ثارت كل المنطقة الجنوبية والشرقية بسبب وحشية "موسى بن مصعب" واضطهاده، فقد قام سكانها بغزو بلاد ما بين النهرين، وامتلأت القرى والمدن والمنازل والحقول، لدرجة أننا لم نستطع المرور أو حتى الوقوف فى مكان ما بسببهم. إن ذلك أدى إلى قسوة العذاب الذى حل على المساكين وعمال الجزيرة، لأنه لم يعط أحدًا أى أجر، ولم يستخدموا أحدًا منهم إذا عرض أن يعمل بثمن طعامه. كان منهم الكثيرعلى قدر ما نتوقع، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يحصلون على الخبز المطلوب. كانوا يمرون حول المنازل رجالاً ونساءً وأطفالاً وكهولاً طوال اليوم دون توقف، وعندما يلاحظون فى مكان ما بابًا مفتوحًا يسرع إليه ثلاثون أو أربعون مرة واحدة. فى البداية كان الجميع يحسنون إليهم، ولكن عندما تزايد حشد هؤلاء المساكين وهؤلاء الغرباء وهؤلاء الجياع توقف الناس عن العطاء، لأن الأهالى خافوا أن يعجزوا هم أنفسهم، وأن يصبحوا أكثر بؤسا من هؤلاء، بالإضافة إلى أن الحاكم عن طريق الغش والسرقة نزع كل محصول الحقول وباعه...[٥٠٦] إن الفقراء أنفسهم لم يسلموا من المساوئ، فبينهم شباب أصحاء صنعوا ملابس لأنفسهم كما لو كانوا مصابين بالجذام أو من ذوى العاهات

---

(٥٠٣) العهد القديم: إرميا ٩: ١٥/١٦.
(٥٠٤) العهد القديم: إرميا ٢٣: ١٥.
(٥٠٥) العهد القديم: إرمياء ٢٤: ١٠.
(٥٠٦) الجملة هنا ناقصة فى المخطوطة.

أومن المكفوفين، وبجرأة ودون خوف كانوا يمــرون منحنــين كــالعجزة، وينقضون على الذى يمتنع عن إعطائهم ويضربونه حتى الموت. كان الرجل لا يبتعد عن الباب قبل أن يحصل على ما يطلبه، وبسبب لعناتهم كان الرجال يخشون أن يفتحوا أبوابهم.

إن الآثمين الذين كانوا يتصرفون هكذا كانوا يذهبون بعد ذلــك إلــى السوق يبيعون الخبز الذى شحثوه ويشترون لهم لحمًا ونبيذًا، فكان الأفــراد عندما يرون ذلك يتوقفون عن مساعدة الفقراء، ولكنهم وقعوا فى أسى عظيم، لأن الآثمين المحرومين من الإنسانية، والذين كانوا يقومون بتلــك الفظــائع ويعتبرونها مهنة، هاجموا منازل كل المناطق وطواحينها. إن سكان مختلف مناطق الجزيرة اجتمعوا ودخلوا المدن بسبب المجاعة، باعوا كل خيــراتهم ولم يقبل أحد أن يعيرهم، أكلوا لحمًا وموادً لبنية طيلة الصوم، وبسبب بخس ثمن الماشية كنا نعطيهم لحما حيثما كانوا، وعلى قدر ما كانوا يطلبون. فــى عدة مناطق اشتدت تلك المجاعة على أهل البلد، بسبب كثرة الأجانب، لدرجة أنهم تعرضوا لجثث الموتى.

إن الأغراب الذين كانوا قد تركوا بلادهم بسبب المجاعة لكى لا يهلكوا كان السيف والطاعون قد سبقهم وصاحبهم وتبعهم حيثما ذهبوا، فأكلوا المــر وشربوا الحقد، وتشتتوا وسط قوم لا يعرفونهم، فأرسل الرب خلفهم الســيف والأسر والمجاعة والطاعون حتى هلكوا **(وأرسل عليهم الســيف والجــوع والوبأ حتى يفنوا عن وجه الأرض التى أعطيتهم وآباءهم إياها).**[٥٠٧] لقــد غرقوا فى ذلك العذاب طيلة فترة الشتاء، ولكن عندما حلت الأيام الأكثر دفئا وبدأنا نرى العشب انقضوا على الحقول الخضراء، وتغــذوا علــى طريقــة الحيوانات.

---

(٥٠٧) العهد القديم: إرميا ٢٤: ١٠.

كانوا يقطفون ما يحملونه ويذهبون إلى السوق ويبيعونه ليشتروا خبزًا، كان لونهم لون العشب الأخضر، لم يكونوا أبدا قد شبعوا كما كانت الحيوانات. ولقد نفذ فيهم ما قاله النبى: (**أنت تأكل ولا تشبع وجوعك فى جوفك، وتعزّل ولا تنَجِّى والذى تنجيه أدفعه إلى السيف**)،(٥٠٨) حدث ذلك الآن، كان هؤلاء يأكلون ولم يشبعوا أبدا. لقد وقعوا جميعهم فى مرض الأمعاء، وامتلات بهم الأروقة والأسواق وواجهات المتاجر والأبراج والمبانى وكل الأماكن. ثم بعد ذلك استولت عليهم عدة أمراض، الخراريج والبثور وآلام المعدة وآلام العين والحمى، دون ذكر أمراض أخرى مثل الجدرى والحصبة وكثير غيرهما لا نعرفها، كما أن البواسير والاستقساء كانت منتشرة جدًا.

لقد سمعنا أنه يوجد فى الموصل مرض يؤدى إلى ورم رأس المصابين به، ثم يسقطون فجاة ويموتون، لدرجة أنه كان الوقت لا يكفى لدفنهم. لقد نظرنا إلى ذلك على أنه أسطورة، ولكنه لم يتأخر فى الحدوث عندنا. إن هذا الضرر انتشر شيئا فشيئا فى مدن المنطقة السفلى حتى وصل إلينا، هكذا يتدرج المرض، كان أولا يستحوذ على قمة الرأس، ثم يتقدم شيئا فشيئا حتى يصيب القلب، فيختل العقل وينطفئ نور العين، ويفقد الشخص وعيه ويظل دون حركة كالميت، يظل هكذا لأيام طويلة محرومًا من كل معرفة إنسانية. إذا لم يكتب الرجل المصاب بهذا المرض وصيته منذ اليوم الأول أو الثانى للمرض فلن يكون من الممكن له أن يفعلها بعد ذلك، ولو حدث بعد ذلك أن استرد أحاسيسه ومقدرتة على الكلام يجد نفسه أشبه بمن يستيقظ من نوم عميق، ولا يدرى حتى أنه كان مريضًا إذا سمح له ضعف جسمه أن ينهض واقفا.

---

(٥٠٨) العهد القديم: ميخا ٦: ١٤.

إن هذا الضرر كان يستولى على نفس الشخص أكثر من خمس مرات أو ست. كان البعض يرزح منذ الهجوم الأول أو الثانى، وكان البعض أيضا يصاب أكثر من خمس مرات، ومازالوا مأخوذين من الضرر. الكثير من الذين كانوا مصابين كانت تطفح فيهم خراريج بيضاء، كانت تجف بعد يوم أو اثنين، ثم احمرار يختفى أيضا ثم تظهر بقع داكنة، وقد تحملنا كل ذلك العذاب لفترة طويلة، وكنا نظن أننا على وشك استرداد الصحة. إن الذى كان يهرب من ذلك الضرر كان يصاب بالبثور والجدرى، كنا نرى أربعة أشخاص أو خمسة فى بلدة واحدة يعانون، وكل واحد منهم مصاب بمرض مختلف، لأن مرض كل واحد منهم لايشبه مرض الآخر. كنا نجد الذى يتألم من البثور ومن المعدة ومن الخراريج ومن البواسير، ومن هذا المرض الذى يؤدى إلى اضطراب القلب، وأحيانا كانت جميع تلك الأمراض تظهر مرة واحدة على نفس الشخص، وبعد أن يعانى من كل ذلك يسقط ميتا، لأن الجوع والظمأ كانا يعذبانه أكثر من تلك الأمراض. كانوا يتألمون فى الأروقة والمعابد والكنائس والأبراج والأسواق، كانوا مطمورين بالزبل ومكبلين بمختلف الأمراض، وغيرهم مدفوعين من عذاب الجوع يتجولون فى المدن. كانوا يقفون بجوار باب حوالى عشرة مكروبين أو عشرين أوثلاثين دفعة واحدة ، بعضهم بالبثور والبعض بالخراريج والبعض يتألم من الأحشاء والبعض بأمراض أخرى. وبينما كل تلك الكوارث تحل بأجسامهم إذا بألم الجوع والظمأ الوحشى يضطرهم إلى السير على أيديهم وأرجلهم ليطلبوا الخبز من كل مكان، وكأن الذين يريدون تقديم الصدقة كانوا لا يكفون حتى لإعطاء من يأتون إلى أبوابهم، وبسبب كثرة الذين يذهبون إلى المنازل كان الذين يسيرون فى الشوارع يعانون من الجوع والظمأ **(والشعب الذى يتنبأون له يكون مطروحا فى شوارع أورشليم من جَرّى الجوع والسيف وليس من يدفنهم هم ونساؤهم وبنوهم وبناتهم وأسكب عليهم شرهم. وتقول لهم هذه الكلمة: لتذرف عيناى دموعا ليلا ونهارا ولا تكفا لأن العذراء بنت شعبى**

سُحقت سحقا عظيما بضربة موجعة جدا. إذا خرجت إلى الحقل فإذا القتلى بالسيف وإذا دخلت المدينة فإذا المرضى بالجوع لأن النبى والكاهن كليهما يطوفان فى الأرض ولايعرفان شيئا).(٥٠٩)

وانتشر ذلك المرض فى البلاد وبدأ الأهالى يتساقطون كالجراد، وكان الناس يخشون دخول المدن، سواء من ظلم السلطة أو من الأمراض والطاعون. لقد انقضوا على الرجال، وهاجموا الطرقات ونهبوا المارين، لقد هجموا عليهم ونهبوهم وسلبوهم وقتلوهم، ليس سعيا وراء الذهب والمال ولكن من أجل لقمة العيش، لدرجة أن كثيرًا من الرجال قتلوا لأن أحدهم كان يحمل دقيقا أو قمحا وهو ذاهب إلى أهله، وذلك بسبب قفيز واحد أو خمسة...،(٥١٠) كانوا يسكبون دم رجل دون رحمة.

لقد تجرأت مناطق بأكملها فى مهاجمة مناطق ونهبها، ومناطق أخرى قطعت فيها الطرقات على عابرى السبيل. إن لون هؤلاء الأهالى عندما تركوا بلادهم كان مثل العشب الأخضر، كانوا يبيعون ثمرة عملهم ليقتنوا الخبز، كانوا يأكلون دون حدٍّ، وبعد فترة قصيرة يسقطون على باب الموت. أحيانا بينما كان أحدهم يمسك الخبز فى يده ويأكل يتحول إلى اللون الأسود، ويلتوى إلى الخلف ويسقط ويلفظ أنفاسه. إن هذا قد حدث لكثير من بينهم، بدأوا يموتون بأعداد كبيرة، لدرجة أن الرجال لم يتمكنوا من دفنهم طيلة اليوم. إن الرب لم يهجر الفقراء، فقد امتدت رحمته وشفقته إليهم. لقد تمكن منهم ذلك المرض الذى سقط الأولون فيه، لدرجة أن الشوارع وكل الأماكن كانت موبوءة، لذلك فى تلك اللحظة حيث كان الأهالى لا يزالون يمتلكون بعض الشيء كان كل واحد يعتنى بهم وفقا لوسائله، فمن كان منهم يموت كان يدفن بتكريم. كان الأهالى يحضرون نعوشا وأكفانا، وكسوهم وأوصلوهم

(٥٠٩) العهد القديم: إرميا ١٤: ١٦/١٧/١٨.

(٥١٠) هنا كلمة ناقصة فى المخطوطة.

ووضعوهم فى مقابرهم الخاصة، وسط فرقة من الخدم والمزامير كما هو لائق بالمسيحيين. وجمعوا أيضا الذين تلقوا صفعات، وكانوا يتسكعون فى الشوارع مكبلين بالمرض والجوع والظمأ، فأدخلوهم فى مبنى كبير حيث عينوا البعض لخدمتهم، كان كل واحد يأخذهم ويحملهم حسب قوته.

ولكن عندما انتشرت الكارثة فى البلدة أصبح الجميع على السواء فى الحاجة، فالذين كانوا أغنياء أصبحوا شحاثين **(الذين كانوا يأكلون المآكل الفاخرة قد هلكوا فى الشوارع، الذين كانوا يتربون على القرمز احتضنوا المزابل).**[٥١١] إن نفس النبى إرميا أضاف: **(صارت صورتهم أشد ظلاما من السواد، لم يعرفوا فى الشوارع، لصق جلدهم بعظمهم، صار يابسا كالخشب. كانت قتلى السيف خيرا من قتلى الجوع، لأن هؤلاء يذوبون مطعونين لعدم أثمار الحقل).**[٥١٢]

هكذا كان حال هؤلاء الذين أدركتهم تلك الأمراض، لأنهم حملوا من الشوارع ودفنوا، لقد استولت الكارثة أيضا على أبناء نبلاء المدن، وسقطوا جميعا مرة واحدة، كبيرًا وصغيرًا، أطفالاً وشيوخًا، شبابًا وشاباتٍ، لدرجة أنك لو دخلت عشرين منزلا كنت تجد بصعوبة رجلاً يستطيع أن يقدم ماءً لجاره. كان الجميع راقدين كالأموات غير قادرين على التمييز بين الخير والشر.

بالمثل، كما قلنا فيما سبق، لم يكن هناك منزل لا يوجد فيه أموات، بالمثل يمكن القول هنا لم يوجد ولا حتى منزل واحد فيه مرضى. ويمكن أن نضيف مع إرميا **(لصق لسان الراضع بحنكه من العطش، الأطفال يسألون خبزا وليس من يكسره لهم).**[٥١٣] فى الواقع إذا حدث أن بقى هناك فى

---

(٥١١) العهد القديم: مراثى إرميا ٤ : ٥

(٥١٢) العهد القديم: مراثى إرميا ٤ : ٨/٩.

(٥١٣) العهد القديم: مراثى إرميا ٤ : ٤.

منزل شخص أو اثنان لم يصبهم المرض كانوا يتألمون هم أيضا من الجوع أكثر من المرض، لأنه لم يوجد هناك من يعمل لهم ويخبز الخبز. الذين كانوا يتأوهون من مختلف الأمراض يتألمون أيضا من الجوع والظمأ، لأن الناس كانوا فى حالة إعياء شديد لا تمكنهم من القيام وتقديم الماء للآخرين.

اشتدت الأزمة وبدأ الطاعون يتفشى فيما بينهم، لدرجة أننا كنا ندفن فى يوم واحد شخصين أو ثلاثة من نفس المنزل. كنا نحمل مرة واحدة فى نفس النعش الأم وابنتها أو الأب وابنه أو الأخوين معا. لقد دفن أخوان فى نفس الوقت، أحدهما فى جانب من المدينة والآخر فى الجانب الثانى، أحضرنا نعشيهما وجمعناهما معا وأوصلناهما إلى المقبرة ووضعناهما الواحد فوق الآخر، وأحيانا فى نفس اللحظة يحدث أن أهاليهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة. اشتد المرض على النبلاء وعلى رؤساء العائلات، وكل كهنة كنيسة آمد سقطوا فى هذا الطاعون.

بدأت الآفة تنتشر شيئا فشيئا وتخرج من المدن لتغزو ضواحيها وقراها، وما حدث فى المدن حدث فى الخارج. هنا نفذ قول إشعياء: (**انهضى انهضى قومى يا أورشليم التى شربت من يد الرب كأس غضبه ثفل كأس الترنح شربْتِ مصَصْت. ليس لها من يقودها من جميع البنين الذين ولدتهم وليس من يمسك بيدها من جميع البنين الذين ربتهم. اثنان هما ملاقياك، من يرثى لك، الخراب والانسحاق والجوع والسيف، بمن أعزيك؟. بنوك قد أعيوا اضطجعوا فى رأس كل زقاق كالوعل فى شبكة، الملآنون من غضب الرب من زجرة إلهك**).[٥١٤]

كان لون الرجال الذين هربوا من هذا المرض فى الواقع مثل لون السلق الذابل من الصقيع، كانوا جميعا صلعا لدرجة أننا لم نتمكن من التفرقة

---

(٥١٤) العهد القديم: إشعياء ٥١ : ١٧/١٨/١٩/٢٠.

بين الراهب والأسقف إلا عن طريق ملابسهم، لم نستطع التمييز بين الأسقف وبين الدنيوى لأنهم كانوا على السواء حالقين. إن السمع والبصر قد ضعفا ولم يقويا إلا بعد فترة طويلة، طوال فترة الصيف اشتد المرض.

عندما حل موسم الحصاد فى "بيت عربايا" اجتمع كل شعب المنطقة الشمالية، حتى الأجانب اجتمعوا، ليذهبوا للحصاد بثمن لقمتهم فقط، وقد ذهب أيضا النساء والعمال. إنها عادة شعب الشمال أن يذهب الشبان للحصاد، ولكن فى تلك الفترة المسنون والعمال والنساء والأطفال ذهبوا، بسبب الكارثة الكبرى التى حلت بهم، فمنذ أن ذهبوا وأكلوا حتى الشبع سقط جميعهم فى مختلف الأمراض، لدرجة أن الطرقات والشوارع المنحدرة والأراضى المرتفعة والمنخفضة كانت مكدسة بهم، فى المدينة والقرى وفى كل مكان كانوا يسقطون كالجراد.

ولم يكن هناك أى أجر لهم إلا الخبز اللازم. نقول إن الكثيرين كانوا يذهبون إلى الحقول، وبمجرد أن يأكلوا ويشبعوا يسقطون أمواتا، لدرجة أنهم كانوا يخرجون عشرين ويعودون خمسة. عندما علم ذلك أصحاب الحصاد لم يدخلوا إلى حقولهم، إلا الذين كانت لهم هيئة جيدة وبنية سليمة. كانوا يعطونهم خمسة أوبولات أجرًا يوميًا أو عشرة على الأكثر. هكذا كان الرجال يجنون محصولهم الذى كان وفيرا دون رحمة بهؤلاء المساكين، كانوا لا يعطونهم حتى الخبز الجاف للشبع، ليس بسبب الجدب ولكن بسبب سوء نيتهم. سنشير أيضا إلى الأضرار التى سببها الرجال، وانتهاك حرمات المقابر وسلب الموتى.

عن انتهاك حرمات المقابر، وعن سلب الموتى

إن النبى إرميا قد تنبأ بانقلاب المقابر، لقد تحدث عن تشتيت عظامهم كالزبل على الأرض ولا تجد هناك من يجمعها. كانوا كالزبل على سطح الأرض، عن هذا الزمن قال الرب: **(فى ذلك الزمان، يقول الرب: يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة وعظام الأنبياء وعظام سكان أورشليم من قبورهم. ويبسطونها للشمس وللقمر ولكل جنود السموات التى أحبوها والتى عبدوها والتى ساروا وراءها والتى استشاروها والتى سجدوا لها، لا تجمع ولا تدفن بل تكون دمنة على وجه الأرض).**[٥١٥] لقد هاجمنا الشيطان بسبب سيئاتنا التى تعد أكثر من القرون والأزمنة والأعداد الكبيرة، وقد عملوا ما قد تحملناه هذا.

لقد أعادوا الرجال وألقوا بعظامهم دون رحمة خارج المقابر كما يسحب رجل حجرة من المنزل ويلقى بها فى الخارج، هكذا كانوا يسحبون ويلقون بعظامهم خارج مقابرهم، كانوا لا يبالون أبدا بوضعهم فى أماكنهم عندما كانوا ينفذون فيهم انتقامهم وجشعهم. إذا وُجد رجال صالحون ويخشون الرب يلومونهم بسبب هذا المكر وهذا الظلم وهذا الإلحاد كانوا يقولون: "ما هو الضرر الذى نفعله؟" أو "من أين نأخذ لنعطى الضريبة؟" عندما كنا نسألهم: "هل تجدون شيئا؟" كانوا يجيبون على الفور موافقين بأقوال الشيطان والدهم ورئيسهم: "إننا وجدنا". وعندما كنا نستجوب أحدهم: "أنت نفسك ماذا وجدت؟" كان يقول: "أنا لم أجد حتى الآن شيئا، ولكن فلانًا وجد كذا وكذا أقراطًا وأحزمةً وعقودًا من ذهب، وفى تلك البلدة قد أخذنا كذا من الذهب والفضة". لقد علمه الشيطان أن يقول تلك الأقوال الباطلة بسبب الخزى. عندما كنا نسأل الذى ادُّعى عليه أنه قام باكتشافات كان اكتشافه إما قرطًا من

(٥١٥) العهد القديم: إرميا ٨: ١/٢.

نحاس أو حزامًا من حديد. تلك كانت اكتشافاتهم، ولكن الشيطان عن طريق أعوانه ادعى لهم المعجزات بالألوف والملايين، حتى تضامن معه الجميع فى هذا الإلحاد، لقد أعطاهم جهنم مكافأة.

ولما كانت الأجيال الماضية المختلفة قد قاومته، ولم يتمكن من ممارسة خططه عليهم أثناء حياتهم، فإن أنصاره استجابوا له ونفذوا الآن رغباته بتشتيت عظامهم. إن عدو كل الخير قد استخف بنا وبآبائنا، استخف بهم لأن عظامهم قد تبعثرت، وبنا لأننا نفذنا هذا العمل بأيدينا، وبالمثل فهؤلاء قد تعرضوا للعديد من الكوارث، من أمراض مختلفة حلت على الناس، وتحققت أقوال الكتاب المقدس التى تقول إنه عند فتح المقابر ستغزو البلاد العديد من الأوبئة.

وبسبب الحرية الكبيرة التى نالها الرجال بانتهاك حرمات المقابر فإنهم قد قاموا بنهب الأموات المدفونين حديثا، لدرجة أنهم عندما كان الذين يقومون بالدفن يدفنون ميتا ويرجعون ليأخذوا جاره كانوا يجدون أن الأول قد نهب، وكذلك كانوا ينهبون مقابر العرب واليهود. عندما كانوا ينهبون ميتًا كانوا يدفنونه مرة أخرى لكى لا نلاحظ ذلك، أو يتركونه عاريًا ملقًى على وجهه ويذهبون بمجرد أن يلاحظ الناس ذلك، سواء لأنهم باغتوا بعض منتهكى حرمات المقابر، أو لأنهم وجدوا حاجيات الموتى عندهم. لذلك لم يكن الميت الذى يدفن يترك دون حارس ليلاً أونهارًا حتى تتعفن جثته. كانوا يغطونه بالجبس حتى تتسوس عظامه، حتى الملابس القيمة التى كانوا يلفونه بها طلوها بزيت الأرز. لهذا السبب كان هناك كثير من السهارى وسط مدافن السوريين والعرب واليهود، لأنهم لم يكونوا يتركون ميتًا دون حراس قبل أن تتعفن وتتحلل جثته. لم يراع هؤلاء الآثمون واللصوص حتى المساكين المدفونين فى قميص ممزق أو ثوب مهلهل.

إننا نجد ذلك مذكورا عن انتهاك حرمات المقابر، ولكن ليس عن نهب الموتى. والآن نجد أننا قد تفوقنا بكفرنا وظلمنا على كل الشرور المذكورة وغير المذكورة فى الكتب المقدسة، فلنتعرف إذن بالطبيعة التى لا تقدر والتى لا تفهم للرب إزاء هؤلاء الأولاد الضالين الذين تحملوا خطايانا وكثرة سيئاتنا.

عن الطاعون وما سببه من دمار،
وعن الحيوانات المفترسة التى ظهرت بعد ذلك

بعد أن سقطنا فى كل ذلك الكفر، وفى كل ذلك الظلم البغيض من كذب ونهب وسلب ونميمة، ومن اغتياب ومن لصوصية ومن زنا ومن سرقة ومن شهادة زور ومن قتل، بدأت المصائب تحيط بنا من كل جانب. لم نقم بالتوبة ولم نتوجه إلى الرب، ولكننا حركنا الموتى النائمين من أماكنهم، لذلك تحول الرب نحو أعمالنا. لقد هجرنا الرب وأصبحت كل الأضرار تحيط بنا كما قال النبى: **(أجمع عليهم شرورا وأنفذ سهامى فيهم. إذ هم خاوون من جوع ومنهوكون من حمى وداء سامٍ أرسل فيهم أنياب الوحوش مع حمة زواحف الأرض. من خارج السيف يثكل ومن داخل الخدور الرعبة الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأشيب)**،(٥١٦) وقد قال إشعياء أيضا: **(تترك معا لجوارح الجبال ولوحوش الأرض فتصيف عليها الجوارح وتشتى عليها جميع وحوش الأرض)**.(٥١٧) وقال حبقوق: **(قد شبعت خزيا عوضا عن المجد، فاشرب أنت أيضا واكشف غرلتك! تدور إليك كأس يمين الرب وقياء الخزى على مجدك. لأن ظلم لبنان يغطيك واغتصاب البهائم الذى روعها لأجل دماء الناس وظلم الأرض والمدينة وجميع الساكنين فيها)**.(٥١٨) وقد قال القديس

---

(٥١٦) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٢٣/٢٤/٢٥.

(٥١٧) العهد القديم: إشعيا ١٨: ٦.

(٥١٨) العهد القديم: حبقوق ٢: ١٦/١٧.

إرميا أيضا: (ثم قال الرب لى: وإن وقف موسى وصموئيل أمامى لا تكون نفسى نحو هذا الشعب اطرحهم من أمامى فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك: إلى أين تخرج؟ أنك تقول لهم: هكذا قال الرب، الذين للموت فإلى الموت والذين للسيف فإلى السيف والذين للجوع فإلى الجوع والذين للسبى فإلى السبى. وأوكل عليهم أربعة أنواع، يقول الرب: السيف للقتل والكلاب للسحب وطيور السماء ووحوش الأرض للأكل والإهلاك. وأدفعهم للقلق فى كل ممالك الأرض من أجل مَنَسَّى بن حزقيا ملك يهوذا من أجل ما صنع فى أورشليم).(٥١٩) ويقول: (إذا خرجت إلى الحقل فإذا القتلى بالسيف، وإذا دخلت المدينة فإذا المرضى بالجوع لأن النبى والكاهن كليهما يطوفان فى الأرض ولا يعرفان شيئا).(٥٢٠)

عندما عظمت الشدائد بسبب الحاكم، وحلت الفاقة والمجاعة والطاعون ومختلف الأمراض على البشر، قاموا بترك منازلهم وأقاموا فى الجبال والأودية. هناك هلكوا كالجراد من الجوع ومن الطاعون ومن البرد، وافترستهم الطيور والحيوانات ولم يجدوا أحدًا يدفنهم.

استفحل هذا الطاعون فى البقاع السفلى وخربت كل تلك المنطقة، حتى إن بعض المناطق التى كان يوجد بها أربعون شخصًا أو خمسون، فرغت من سكانها. فى الموصل كنا نخرج من البلدة أكثر من ألف نعش يوميا، وفى منطقة نصيبين(٥٢١) دمرت كثير من القرى المهمة بأكملها، مات كل عظماء

---

(٥١٩) العهد القديم: إرميا ١٥: ١/٢/٣/٤.

(٥٢٠) العهد القديم: إرميا ١٤: ١٨.

(٥٢١) نصيبين بلدة تقع داخل الحدود التى ضمت إلى روما عام ٢٩٨، فلما أصبحت حينئذ من مدن الحدود، وكانت متحكمة فى الطريق الرئيسى بين أعالى العراق ودمشق، حصنها الرومان تحصينا قويا. ربما كان بها مسيحيون فى ذلك الوقت كما كانوا فى أماكن أخرى كثيرة فى العراق، وبعد بضع سنين عام ٣٠٠/٣٠١ اعتبرت مقرا لكرسى الأسقفية، فكان أول أساقفتها "بابو" وخلفه "يعقوب"، وكان بالمدينة كثير من اليهود أيضا، وكانت لهم بها مدرسة. (مسالك الثقافة الإغريقية فى الغرب ص١٨٦)

البقاع. إن هذا الوباء قد أهلك بالأخص أساقفة المدن والقرى، ففي دير قرتمين هلك بسبب ذلك الوباء خمسة وتسعون شخصًا من البارزين، وفي دير **القديس صليبا**(٥٢٢) مات كل العظماء، وتحولت حقول البلدان والساحات الواسعة للمدن إلى صحراء.

بعد ذلك الوباء ظهرت بعض الحيوانات المتوحشة، والتي لم تكن تخشى أحدًا، فلم تكن تهرب من أمام الرجال ولا تخشاهم، وأهلكت الكثيرين. كانت تلك الحيوانات قريبة الشبه بالذئب، ولكنها تختلف عنه في أن وجهها كان صغيرا وطويلا ولها أذنان كبيرتان كالخيل، وشعرها المنتشر على العمود الفقرى كان يشبه شعر الخنزير، وكان طويلاً ومتجهًا إلى أعلى. اقترفت تلك الحيوانات الكثير من الأذى بين أهالي طور عابدين. لقد قيل إنها افترست في بعض البلدان أكثر من مائة شخص، وفي كثير غيرها عشرين أو أربعين أوخمسين. لم يستطع الرجال عمل شيء ضد هذه الحيوانات التي لم تكن تخشى أحدًا، فإذا صادف وطارد بعض الرجال أحدها فإنه لم يكن يهرب من أمامهم، ولكنه كان يهاجمهم فيلقون بأسلحتهم وينقض عليهم ويمزقهم إربا. كانت الحيوانات تدخل المنازل والساحات وتحمل الأطفال وتخرج دون أن يتصدى لها أحد. كانت تصعد ليلا فوق الأسطح وتحمل الأطفال من منازلهم وفراشهم وتنزل دون أن يتعرض لها أحد. حتى الكلاب نفسها لم تكن تنبح عليها، ولهذا السبب تحملت المنطقة كلها محنة مرة وأكثر قسوة من تلك التي كانت قد تحملتها من قبل. لم يكن رجلان أو ثلاثة يستطيعون أن يسيروا سويًا. لم نعد نرى ماشية في تلك البلدة، لأنها أبيدت كلها. في الواقع عندما كان أحد تلك الحيوانات المتوحشة يهاجم قطيعا من الماعز أو الغنم فإنه يقضي على الكثير منها.

---

(٥٢٢) دير القديس صليبا أو دير الصليب: يوجد كثير من الأديرة بهذا الاسم، وربما كان أحدهم الذي ورد اسمه هنا هو الذي يقع بالقرب من "هاج" في طور عابدين. (ابن العبرى: التاريخ الكنسي ج١ ص٥٦٩/ ج٢ ص٥٢٢)

وماذا يمكن القول بخصوص تلك الكارثة الرهيبة غير أنها مرسلة من قبل الرب؟ لأنه واضح للكافة أنها استمدت قوتها من الرب، ما دامت الكلاب والرجال لم يتمكنوا من إلحاق الأذى بأى واحد منها. لقد قال: **(أجمع عليهم شرورا وأنفذ سهامى فيهم)**.[٥٢٣] تلك هى العقوبات التى حلت بنا: جزية بلا رحمة، والهروب من مكان إلى آخر، وها هى أيضـا المجاعـة، والوبـاء، ومختلف الأمراض، وها هو النهب، والسلب المتبادل بين المدن المجاورة.

فى ذلك العام لم تهلك فقط الماشية، ولكن وجدنا أيضا الطيور الكاسرة تنهش جثث الرجال الراقدين دون تابوت، بالإضافة إلى كل ذلك هـا هـى الحيوانات المفترسة التى اقترفت كثيرًا من الأذى فى كل بلدة. لقد مرت تلك الحيوانات فى بلدة أرزون وكذلك فى منطقة ميافرقاط وعلى جبل "صـهيا"، كما سببت بعض الخسائر فى آمد.

(من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضـربه حتى ارتعدت الجبال وصارت جثثهم كالزبل فى الأزقة، مع كل هذا لم يرتـد غضبه بل يده ممدودة بعد)،[٥٢٤] وذلك لو لم يكن قد رفع صولجانه، فيكون هذا لأننا لم نتب عن آثامنا، ولكننا قد أضفنا إليها، وفى مـرات كثيـرة قـد ضاعفناها، لدرجة أن آثامنا قد توالت دون توقف، وقد مد الرب يـده مـرة أخرى من أجل إصلاحنا...[٥٢٥]

لقد قبضوا أيضا على العرب والسوريين بسبب الميـراث، وأهـانوهم بوحشية وبمرارة، وكانوا لا يعترفون أبدا بالقرابة وفقًا لما هو مكتوب فـى قانون الملوك بخصوص الورثة، ما عدا الابن الذى كان ممكنـا أن يكـون وريثا لأبيه والأب لابنه والعم لابن شقيقه وابن الشقيق لعمه.

---

(٥٢٣) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٢٣.
(٥٢٤) العهد القديم: إشعياء ٥: ٢٥.
(٥٢٥) بعض من أوراق المخطوطة مفقود هنا.

كنا نهرب بصعوبة من تلك الحيوانات المفترسة. لقد قال النبى يوئيل: **(إذ قد صعدت على أرضى أمة قوية بلا عدد أسنانها وأسنان الأسد ولها أضراس اللبوة. جعلت كرمتى خربة وتينتى متهشمة، قد قشرتها وطرحتها فابيضت قضبانها).**[٥٢٦]

...[٥٢٧]

عن وفاة أمير آمد

إن الوقت قد طال بنا لنروى المصائب التى حلت على آمد فى ذلك العام، لأنها قد تحملت تلك الكارثة أكثر من البلاد الأخرى. ولما كان الاضطراب لا يزال فى البداية ولم ينته بعد فسأتحدث عن بداية الآفة. سنحضر القديس إشعياء لأنه قد رأى مقدما تلك المصائب، وهو أكثر بلاغة منا، ومعه رفيقه إرميا: **(لايقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التى يحظى بها، على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر)،**[٥٢٨] **(يا ملآنة من الجلبة المدينة العجَّاجة القرية المفتخرة؟ قتلاك ليس هم قتلى السيف ولاموتى الحرب . جميع رؤسائك هربوا معا، أسروا بالقسى، كل الموجودين بك أسروا معا، من بعيد فروا. لذلك قلت: اقتصروا عنى فأبكى بمرارة، لا تلحوا بتعزيتى عن خراب بنت شعبى. إن للسيد رب الجنود فى وادى الرؤيا يوم شغب ودوس وارتباك، نقب سور وصراخ إلى الجبل. ودعا السيد رب الجنود فى ذلك اليوم إلى البكاء والنوح والقرعة والتنطق بالمسح).**[٥٢٩]

---

(٥٢٦) العهد القديم: يوئيل ١ : ٦/٧.

(٥٢٧) هنا فقرة مفقودة فى المخطوطة.

(٥٢٨) العهد القديم: التثنية ١٩ : ١٥.

(٥٢٩) العهد القديم: إشعيا ٢٢: ٢/٣/٤/٥/١٢.

جاء أيضا النبى إرميا "الذى كانت أقواله أفضل من أى واحد آخر" تعبر عن الألم والنواح **(من مفرج عنى الحزن؟ قلبى فىَّ سقيم. هو ذا صوت استغاثة بنت شعبى من أرض بعيدة: ألَعَلَّ الرب ليس فى صهيون أو ملكها ليس فيها؟ لماذا أغاظونى بمنحوتاتهم بأباطيل غريبة؟. من أجل سحق بنت شعبى انسحقت، حزنت، أخذتنى دهشة. أليس بلَسانٌ فى جلعاد أم ليس هناك طبيب؟ فلماذا لم تُعْصب بنت شعبى؟)،**[٥٣٠] **(ياليت رأسى ماء وعينىَّ ينبوع دموع فأبكى نهارا وليلا قتلى بنت شعبى. ياليت لى فى البرية مبيت مسافرين فأترك شعبى وأنطلق من عندهم لأنهم جميعا زناةٌ جماعةُ خائنين. يمدون ألسنتهم كقسيهم للكذب، لا للحق قووا فى الأرض، لأنهم خرجوا من شر إلى شر وإياى لم يعرفوا، يقول الرب).**[٥٣١] تلك المصائب وأفظع منها تضاعفت تلك السنة على آمد بلدة الجزيرة، بسبب فعل هذا الحاكم الظالم والطاغية الذى كان قد جاء.

حدث أن جاء حاكم أصله من الرقة، ويدعى "مبدول"، كان رجلاً كافرًا بخيلاً، ولا يبالى أبدا بالرب فى تصرفاته. هكذا...،[٥٣٢] هذا المبدول كان الرجال لا يستطيعون المرور أو الاقتراب من ضواحى (منزله) بسبب رائحة العفونة النفاذة التى كانت تهب من هذا المنزل وتنتشر على البعد، وإذا أُجبر أحد أن يذهب إلى هذا البيت لأنه كان يوجد هناك أحد له، يظل منزعجا من تلك الرائحة لمدة يوم أو يومين.

هنا يجب أن نقول مع النبى إشعياء: **(فأصابت يدى ثروة الشعوب كعش وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ولم يكن مرفرف جناح ولا فاتح فم ولا مصفصف)**[٥٣٣] إن العرب والسوريين، الكبار

---

(٥٣٠) العهد القديم: إرميا ٨: ١٨/١٩/٢١/٢٢.
(٥٣١) العهد القديم: إرميا ٩: ١/٢/٣.
(٥٣٢) هنا ورقة أو أكثر مفقودة من المخطوطة.
(٥٣٣) العهد القديم: إشعياء ١٠: ١٤.

والصغار، أصحاب البلد والأجانب، تجمعوا دون أن يوجد أحد ليخفق جناحه ويفتح فمه ويتكلم، فليأت النبى داود أيضا وليَرَ المعبد المقدس مدنسًا وقد أصبح مكانًا قذرًا مثل معبد بعل الذى هدمه جدعون **(اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك، نجسوا هيكل قدسك، جعلوا أورشليم أكواما).**[٥٣٤] وقال إشعياء: **(لذلك لعنة أكلت الأرض وعوقب الساكنون فيها، لذلك احترق سكان الأرض وبقى أناس قلائل)،**[٥٣٥] **(ناحت ذبلت الأرض، حزنت ذبلت المسكونة، حزن مرتفعو شعب الأرض)،**[٥٣٦] **(فإن جميع الموائد امتلأت قيئًا وقذرًا، ليس مكان)**[٥٣٧] لقد قال لهم النبى متحدثا باسم الرب: **(الذين قال لهم: هذه هى الراحة، أريحوا الرازح وهذا هو، السكون، ولكن لم يشاءوا أن يسمعوا. فكان لهم قول الرب: أمرًا على أمرٍ أمرًا على أمرٍ، فرضًا على فرض، فرضًا على فرضٍ...).**[٥٣٨] كنا نستطيع أن نرى هنا قاذوراتهم وقيأهم، وكانت موائدهم مغطاة من كل جانب بالقاذورات.

أى دموع وأى آلام يمكن أن تكفى عندما نرى رجالاً نبلاء ومحترمين يأخذون الخبز فى أيديهم ليأكلوا، وأمامهم الزبل يتراكم بعضه فوق بعض، بينما آخرون خرجوا من قبل بسبب الاشمئزاز من هذا المكان. بخصوص هذه المواضيع قال النبى يوئيل وكتب: **(تنطقوا ونوحوا أيها الكهنة، ولولوا يا خدام المذبح، ادخلوا بيتوا بالمسوح يا خدام إلهى لأنه قد امتنع عن بيت إلهكم التقدمة والسكيب)،**[٥٣٩] ولكن لأن الكنيسة قد نبذها وهجرها الرب وألقى بها فى أيدى الأغراب.

---

(٥٣٤) العهد القديم: المزامير ٧٩: ١.
(٥٣٥) العهد القديم: إشعيا ٢٤: ٦.
(٥٣٦) العهد القديم: إشعيا ٢٤: ٤.
(٥٣٧) العهد القديم: إشعياء ٢٨: ٨.
(٥٣٨) العهد القديم: إشعياء ٢٨: ١٢/١٣.
(٥٣٩) العهد القديم: يوئيل ١: ١٣.

بينما كان الرجال غارقين فى هذا البؤس الكبير أخذ هذا الكافر الكتاب الذى كُتب فى أول العام على هيئة تعديل، إن أى فرد لم يكن مسجلا أو مختوما على يديه تفرض عليه غرامة قدرها ٤٨ زوزا، وتصل إلى ستين أو خمس وثلاثين أو خمس وعشرين أو خمسة عشر، وبذلك أخرج الكثيرين، ولكن الفقراء والمعوزين ظلوا فى السجن يقاسون من الجوع ومن تلك الرائحة العفنة.

لقد قبض على النبلاء بدلا من أولادهم وإخوانهم وأهاليهم الذين لم يكونوا مسجلين فى هذا الدفتر المفصل، وفرض عليهم غرامة، وقد قبض أيضا على الذين كانوا مسجلين وسبب لهم خسائر فادحة. لقد اختار رجالا سكارى وفاسقين يعاونونه، كانوا يبحثون عن الكبير والصغير ويسلمونهم له، حتى إنه لم يفلت أحدًا دون أن يجبر على الدفع سواء عن نفسه أو عن أهله دون أى منازعات.

لقد احتجز مرة أخرى سكان المنطقة، وأجبرهم على أن يتعاملوا معه، وبسبب هذا الموضوع كانت هناك نزاعات كثيرة. ضرب رؤساءهم إلى حد الموت، وسلب ونهب كل فرد وفقًا لرغبته الخاصة، دون أن يجد من يلومه أو يسأله "ماذا تفعل؟" لم يكن هناك صدق أو إخلاص فى معاونيه، فقد قبضوا على أهالى المدينة، وبعد أن عاهدوهم وأولادهم وإخوانهم وأهاليهم على متوسط ألفى دينار، وبعد أن تسلموها لم يتوقفوا عن أعمالهم الشريرة، بل فرضوا عليهم الغرامات، وأوجدوا لهم مشكلات من كل نوع، فخرجوا إلى الطرقات والشوارع. وعندما قبضوا على المرابين أو الذين لم يكونوا قد نهبوهم من قبل أخذوا كل ما كان معهم. إن الرب فى رحمته عمل على أن تكون تلك الكارثة فى شهر أيار(مايو)، ومنذ ذلك الوقت اختبأ الرجال فى الجبال مثل اليمامة فى التجويفات. لم يعد هناك على الطرقات لا رائحٌ ولا غادٍ، لأن هذا الاضطهاد امتد إلى كل مكان. هلك الناس من الجوع، وكانوا

يخشون دخول المدينة أو البلدة إذا حدث أن كان أحدهم يملك شيئا يمكن بيعه، ولشراء خبز كانوا يحضرون معهم زوجاتهم، وبمجرد اقترابهم من المدينة كانوا يرسلون زوجاتهم إلى البلدة، أما هم فيختبئون في الحقول يتألمون من شدة الجوع، منتظرين عودة الذين أرسلوهم، بعضهم يومين وآخرون ثلاثة أيام وغيرهم أربعة، بل قد يمتد أحيانا من يوم الأحد إلى الأحد التالى. كانوا يظلون مكدسين مثل الحمام فى المقابر والحقول يعذبهم الجوع، وأحيانا كانت الزوجة تعود خاوية الوفاض. الآن نستطيع أن نقول: **(من خارجِ السيفُ يثكل ومن داخل الخدور الرعبة، الفتى مع الفتاة والرضيع مع الأشيب).**[٥٤٠]

اشتد الفزع أيضا على أهالى تلا والرها وحران. لقد قال النبى فى الواقع: **(فقال لى: هذه هى اللعنة الخارجة على وجه كل الأرض، لأن كل سارق يباد من هنا بحسبها وكل حالف يباد من هناك بحسبها).**[٥٤١] عندما وصلت هذه الكارثة إلى نصيبين، ورأى أهلها أن عليهم ضرائب قاسية، وأنه يقبض على الغادى والرائح، وأنهم انقضوا فورا على المزارع، اجتمع نبلاء البلدة وذهبوا للقاء موسى وحاولوا أن يقنعوه أن يعقد معهم اتفاقا ولكنه رفض. طلبوا منه استرداد الضرائب الخارجية التى فرضها عليهم أعوانه، وأن يمنع تلك الكلاب المتوحشة من دخول البلدة، فلم يلبِّ لهم ذلك، وقبض عليهم وألقى بهم فى السجن فى الموصل، وظلوا مكبلين بالأغلال. لقد أقسم بحياته أنه طوال احتفاظه بسلطته لن يخرجوا من السجن. تشفع لهم الكثيرون ولكن دون جدوى، وظلوا فى السجن حتى خلصهم الرب ولقى الطاغية العقاب الذى يستحقه.

آن الأوان الآن أن نتحول عن تلك الكارثة إلى كارثة أخرى.

---

(٥٤٠) العهد القديم: التثنية ٣٢: ٢٥.

(٥٤١) العهد القديم: زكريا ٥: ٣.

عن أمراء مكلفين للعشر، وعن أمراء مكلفين للصافى

سأتحدث عن الثعبان الذى نشأ من تلك الأفعى، والثمار المكروهة التى بعثرها علينا.

إن ما كانت ترسله تلك الأفعى على البلد كان أسوأ من الثعبان، فقد جاءوا ودخلوا المدينة وأحصوا دون رحمة كل ما كان يملكه الأهالى. لو كان هناك رجل لا يملك قمحا ولا شعيرا ولكنه يشترى من السوق ليأكل كانوا يسجلون له ألف جريب، ولآخر ألفين ولآخر خمسة آلاف ولآخر عشرة، وحتى أربعين ألف جريب أو خمسين ألف، دون أن يدخلوا منزل كل واحد ليروا ماذا يملك. كانوا يسجلون ما يمليه الشيطان عليهم، وفعلوا نفس الشىء بالنسبة لأصحاب المتاجر وتجار الغلال وتجار الزيوت، وتجار كل نوع موجود فى الأسواق. كانوا يفرضون عليهم الضريبة دون رحمة، ويطالبونهم بها، لدرجة أن الواحد لو باع كل ما يملك فى متجره فإنه لا يحصل على أكثر من نصف المطلوب منه.

إنه هنا الذى نستطيع أن نقول: **(فضلة القَمص أكلها الزحَّاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار)**،[٥٤٢] وهكذا كل ما بقى بعد الضريبة أخذه المرابى، وما تركه المرابى أخذه المعشر، وكل ما فلت من هؤلاء أخذه الصافى **(ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط فى الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ، لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت)**.[٥٤٣]

---

(٥٤٢) العهد القديم: يونيل ١: ٤.

(٥٤٣) العهد القديم: إشعياء ٢٤: ١٨.

عن الأمير الثانى المكلف بالمرابط

عندما توفى خليل بن زادان أمير المرابط الذى سبق أن تحدثنا عنه أخذ مكانه أبو عون. إن الحكام الذين عينهم موسى بن مصعب تعرضوا لأتباعه وطردوهم من المدينة، فجاء رجل فارسى مرسل من قبل الملك. كان رجلا شرسا دمويًا، أفزع كل من فى المدينة. قاسى كل عرب المنطقة منه، لأنه فعل ما لم يكن من عادة الفرس.

إن عادة الفرس الأصلية هى أن يسجنوا طويلا دون رحمة، وقد اعتاد هذا أن يقتل بالضرب وحتى بالصلب. استولى الفزع على السوريين حيثما ذهب، بسبب طلبه إيواء دوابه أو بسبب جماعته، حيث كانوا يقيمون عند الأهالى، وغذاؤهم وغذاء دوابهم على نفقته (المضيف).

لقد قال النبى: **(يأتون كلهم للظلم، منظر وجوههم إلى قدام ويجمعون سبيا كالرمل)**،[٥٤٤] قبل أن يخرجوا من المدينة كانوا يرسلون رسولا مسبقا، لتجهيز مكان تقيم فيه دوابهم، وكانت هذا المراسلة تصل إلى المدينة قبل عشرين يوما مسبقًا، وتُقترف كل أنواع الأذى والسلب والنهب. خرج مع جنوده إلى الطرقات والمزارع وأخذوا البغال والخيول التى يقودونها. كما أخذوا المعمرين واحتجزوهم فى منازل أو فى ساحات، وكانوا يطلقون سراح من يعطيهم زوزيين للبغل أو للجواد ويأخذون جاره. كانوا يذهبون أيضا إلى الشوارع والخانات خارج المدينة، ويأخذون حمير المساكين، كانوا يفرضون زوزا للحمار ويتركونهم. كانوا يخرجون أيضا فى المنطقة يطلبون رجالا يقودون دوابهم، كانوا يستمرون فى طلب الزوازى زوزيين للبغل وزوزا للحمار، ومن لا يدفع يأخذون دابته؛ وبذلك أخذوا الكثير من الدواب من البلدة ومن الطرقات ومن السوق، وحبسوهم فى المنازل.

---

(٥٤٤) العهد القديم: حبقوق ١: ٩.

لقد قاسى الرجال كثيرا بسبب نفقاتهم ونفقات دوابهم، وعنـــدما...[٥٤٥] أُخذت دواب كثيرة من التجار والمارة، وبهذه الطريقة أُخذت حيوانات كثيرة كانت ملكا للفقراء خلال أيام كثيرة وشهور، ولم يخل سبيلهم قبل أن يبيعـــوا كل ما كانوا يملكون ليتكفلوا بالنفقات. لم يرد أن يترك لهـــم أى شـــىء. إن الكتاب يقول: (**وخيلها أسرع من النمور وأحد من ذئاب المساء، وفرسانها ينتشرون وفرسانها يأتون من بعيـــد ويطيـــرون كالنســـر المســـرع إلـــى الأكل**)،[٥٤٦] وأيضا: (**يأتون كلهم للظلم، منظر وجوهم إلى قدام ويجمعـــون سبيا كالرمل**).[٥٤٧]

فلنقل أيضا شيئا بخصوص الرجل نفسه.

كان الخوف والرعب يستحوذ على الجميع عندما يتحدثون عنـــه فـــى البلدة، كان الفزع والرعشة يسيطران على العالم كله، يضرب دون رحمـــة ويقتل وحتى يصلب. كل مدينة دخلها كان يصلب شخصين أو ثلاثة أشخاص أو خمسة، وكان الرجال يرتعدون فى وجوده، كانوا يقولون إنه لا يقتل إلا... اللصوص، القتلى، قطاع الطرق الكبار. وقد عرفنا... ولكن أيضا المبتهلـــون يطلق عليهم لفظ متسولين.

لقد عبر كل مدن المنطقة السفلى للجزيرة، ضاربًا قاتلاً صالبًا حتـــى وصل إلى آمد. ظل هناك فترة طويلة، وصلب أربعة رجال ثم اتجـــه إلـــى ميافرقاط، ومن هناك رجع إلى آمد حيث استقر بها.

وعندما...[٥٤٨]

---

(٥٤٥) هنا جملة ناقصة فى المخطوطة.
(٥٤٦) العهد القديم: حبقوق ١: ٨.
(٥٤٧) العهد القديم: حبقوق ١: ٩.
(٥٤٨) بقية صفحات المخطوطة غير موجودة.

مراجع الترجمة

المراجع العربية:

١- د.إبراهيم أحمد العدوى: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥١م.

٢- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، بيروت، ١٩٦٥م.

٣- ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩٠م.

٤- أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، بيروت، ١٩٦٣م.

٥- أسد رستم: الروم وصلاتهم بالعرب، لبنان، ١٩٥٥م.

٦- أغناطيوس أفرام الأول برصوم: اللؤلؤ المنثور، حمص، ١٩٤٣م.

٧- أوليرى: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ١٩٥٧م.

٨- بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٧٩م.

٩- البلاذرى: فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٣٢م.

١٠- جريجوريس صليبا شمعون: تاريخ مار ميخائيل السريانى الكبير، دمشق.

١١- رفائيل بابو إسحاق:

- أحوال نصارى بغداد فى عهد الخلافة العباسية، بغداد، ١٩٦٠م.
- تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية، بغداد، ١٩٤٨م.
- مدارس العراق قبل الإسلام، بغداد، ١٩٥٥م.

١٢- فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٢م.

١٣- فيليب دى طرازى: السلاسل التاريخية فى أساقفة الأبرشيات السريانية، ١٩٤٨م.
١٤- المسعودى: مروج الذهب، القاهرة، ١٣٤٦هـ.
١٥- يوسف حبى: تواريخ سريانية من القرن ٧م إلى ٩م، المجمع العلمى العراقى، الهيئة السريانية ١٩٨٢م.
١٦- السريان نقلة حضارات: التراث السريانى، أعمال المؤتمر التاسع، مركز الدراسات والأبحاث الشرقية، الرهبانية الأنطونية المارونية، عام ٢٠٠٥م.

المراجع الأجنبية

1- ASSEMANI: Y.S.
BIBLIOTHECA ORIENTALIS, 1924

2- DUCHESNE
JEAN D' ASIE ECCLESIASTIQUE

3- DUVAL:R.
HISTOIRE POLITIQUE, RELIGIEUSE ET LITTERAIRE D'EDESSE PARIS, 1892

4- LANGLOIS:
CHRONIQUE DE MICHEL LE GRAND, PARIS 1934

5- LEBEAU:
HISTOIRE DU BAS EMPIRE, PARIS 1929

6- GOUBERT:
BYSANCE AVANT L'ISLAM, PARIS 1951

7- ST. MARTIN: PAULIN(ABBE)
CHRONIQUE DE JOSUEE LE STYLITE, LEIPZIG, 1876

8- NAU: F.
ANALYSE DES PARTIES INEDITES DE CHRONIQUE ATTRIBUE A D. TELLMAHRE.PARIS1898

9- WRIGHT:W.
THE CHRONICLE OF JOSHUA THE STYLITE, CAMBRIDGE 1882.
SHORT HISTORY OF SYRIAC LITERATURE. LONDON 1895.

المؤلف فى سطور

ديونسيوس التلمحرى

يعتبر "ديونسيوس التلمحرى" من أشهر مؤرخى القرن القرن التاسع الميلادى، وقد قام بتأليف كتاب "تاريخ الأزمان" وهو عبارة عن تاريخ عام باللغة السريانية يشتمل على أحداث ٢٦٠عاما، تناول فيه ديونسيوس أخبار ظهور الإسلام وانتشاره وما قام به المسلمون من فتوحات. كما أنه عاش فى الفترة التى تولى فيها أمور الخلافة العباسية كل من المأمون والمعتصم والواثق، وقد عاش فى الرها وأنطاكية، أى فى ظل ولاة أقاليم الشام والجزيرة، وزار مصر وسوريا وعاصر العديد من الاضطرابات الداخلية والخارجية. ولم يعتمد ديونسيوس فقط على الأحداث السياسية ولكنه قام بربط تلك الوقائع بغيرها من موضوعات كنسية واجتماعية.

المترجمة فى سطور

شادية توفيق حافظ

ليسانس الآداب – جامعة القاهرة – قسم اللغات الشرقية، تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف ١٩٧٣م.

الماجستير ثم الدكتوراه فى اللغة السريانية وآدابها فى كلية الآداب – جامعة القاهرة.

أهم الوظائف التى تقلدتها:

- رئيس مجلس قسم اللغات الشرقية وآدابها بكلية الآداب من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو بلجنة ترقيات أستاذ مساعد وأستاذ من ١٩٩٨ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو بمجلس كلية الآداب من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو بلجنة الدراسات العليا من ١٩٩٩ حتى ٢٠٠٤م.
- عضو بلجنة تشكيل اللائحة الجديدة لكلية الآداب ٢٠٠٢م.
- عضو بلجنة "تقويم الأداء الجامعى" عن كلية الآداب ٢٠٠٢م.
- عضو بجمعية خريجى أقسام اللغات الشرقية بالقاهرة منذ إنشائها.
- الإشراف على العديد من الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه) فى كلية الآداب جامعة القاهرة والمعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى بالزقازيق.

كتب للمترجمة:

- قصة أهل الكهف فى المصادر السريانية (مجلة الدراسات الشرقية العدد٥، ١٩٨٧م)
- التأنيث بين العربية والسريانية (الدار العالمية للنشر، ١٩٨٧م)

- كتابة المخطوط السريانى (الدار العالمية للنشر، ١٩٨٧م)
- السريان وتاريخ الطب (دار نهضة مصر، ١٩٩٢م)
- آدم وحواء بين المصادر العربية والمصادر السريانية (دار نهضة مصـــر، ١٩٩٢م)
- الخير والشر بين هابيل وقابيل (دار نهضة مصر، ١٩٩٣م)
- قصة يوسف دراسة مقارنة بين العربية والســريانية (دار نهضـــة مصـــر، ١٩٩٣م)
- إبليس فى المصادر السريانية والعربية (دار نهضة مصر، ١٩٩٣م)
- الأعداد ورموزها فى السريانية (دار نهضة مصر، ١٩٩٣م)

المراجع فى سطور

السباعى محمد السباعى

- ليسانس الآداب – جامعة القاهرة – قسم اللغات الشرقية – فرع لغات الأمم الإسلامية عام ١٩٦٣ بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف.
- الماجستير ١٩٦٦ ثم الدكتوراه ١٩٧٢م بمرتبة الشرف الأولى.
- شغل منصب رئيس قسم اللغات الشرقية من ١٩٨٣ إلى ١٩٨٩م
- عين خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة للغتين الفارسية والتركية اعتبارًا من ١٩٩٢م.
- رئيس تحرير مجلة "الدراسات الشرقية" التى تصدر عن جمعية خريجى أقسام اللغات الشرقية لمدة ثلاثة أعوام.
- رئيس تحرير مجلة "رسالة المشرق" التى تصدر عن مركز الدراسات الشرقية منذ ١٩٩٢ حتى ١٩٩٧م.

الإنتاج والأعمال العلمية:

أولاً الكتب:

١- اللغة الفارسية (نحو وصرف وتعبير)، ١٩٧٥م.

٢- النثر الفارسى منذ نشأته حتى نهاية العصر القاجارى فى إيران، ١٩٧٨م.

٣- الثورة الإسلامية فى إيران من وجهة النظر الإيرانية، ٢٠٠٠م، الموسوعة العامة، مقاتل من الصحراء (المملكة العربية السعودية).

٤- عبد الوهاب عزام، رائدًا ومفكرًا، القاهرة، الكتاب المصرى اللبنانى، يناير ٢٠٠٥م.

ثانيًا الترجمات:

١- تاريخ إيران القديم "تأليف حسن بيريا والترجمة بالاشتراك مع د. محمد نور الدين عبد المنعم ومراجعة د. يحيى الخشاب.

٢- الإسلام فى إيران لمؤلفه الروسى بطرشوفسكى ترجمه عن الفارسية وقدم له، الطبعة الرابعة، مارس ٢٠٠٥م.

٣- "من الفكر الصوفى الإيرانى المعاصر" تأليف صادق عنقا، وتقديم الترجمة بالاشتراك مع د. إبراهيم الدسوقى شتا.

٤- ترجمات لمواد خاصة بإيران وتركيا وتاريخ آسيا الوسطى فى الـــدوريات المختلفة.

٥- ترجمة عدد من أعلام الفكر والتاريخ الإسلامى ورواد الدراسات الشـــرقية لليونسكو.

٦- مراجعة المعجم الذهبى "فرهنك طلائى" - المعجم الفارســـى العربـــى - تأليف الدكتور النونجى، لونجمان ١٩٩٦م، القاهرة.

الإشراف اللغوى: محمد عيسوى
الإشـــراف الفنى: حســن كامل